t.me/yasmeenbook

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

المعجزة

إيما دونهيو

ترجمة: مرثا بشارة

مراجعة لغوية: محمد عبد العال

إخراج فني: ضياء فريد

الطبعة الأولى يناير 2024

لغة
للنشر والتوزيع

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

القاهرة - مصر

Copyright © 2016 by Emma Donoghue Ltd.
"This edition published by arrangement with Little, Brown and Company, New York, New York, USA. All rights reserved."

Original title: The Wonder

رقم الإيداع: 2710/ 2024

ISBN: 9789778674293

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن رأي وتوجه دار النشر.

إلى ابنتنا أونا:

«ليت الصقيع لا يُفسد حقولك المزروعة بالبطاطا،
ولا تأتي الديدان على حقولك المزروعة بالملفوف!».

(أمنية أيرلندية قديمة)

الفصل الأول

ممرّضة

لإطعام الرضيعة وتربية الطفلة ورعاية المريضة

لم تكن الرحلة أسوأ مما توقعته؛ فقد ركبت في القطار من لندن إلى ليفربول، ثم قضت ليلتها على متن الباخرة إلى دبلن، ومن بعدها سافرت نحو الغرب في قطار يوم الأحد البطيء إلى بلدة تُسمى آثلون. وهناك كان السائق في انتظارها: «السيدة رايت، أليس كذلك!».

تمتلك ليب معرفة جيدة بالرجال والجنود الأيرلنديين، لكن ذلك مضى عليه بضع سنوات؛ ولهذا تشعر الآن ببعض الضيق، وهي تحاول أن تتبيّن كلمات السائق! حمل حقيبتها ووضعها داخل عربته التي يُسميها «عربة التجوُّل»، وهي تسمية أيرلندية خاطئة؛ فلا شيء يُعبّر عن البهجة في مثل هذه العربة المتواضعة! جلست ليب فوق المقعد الوحيد الموجود في وسط العربة، كان حذاؤها يتدلّى من جهة العجلة اليُمنى، بطريقة لم تُشعرها بالراحة. رفعت مظلتها ذات الإطار المعدني لتحتمي من رذاذ المطر.. في أسوأ الأحوال، تبدو هذه العربة أفضل حالًا من القطار ذي الأجواء الخانقة.

على الجانب الآخر من المقعد، جلس السائق وأرخى ظهره، حتى كاد يُلامس ظهرها، ضرب الخيل بالسياط: «هيا، انطلق الآن»! فأهاج الأحصنة ذات الذيل الكثيف وانطلقت مُسرعة. أما على الطريق المُعبّد بالحصى والأسمنت خارج مدينة أثلون، كان هناك قلّة من الناس يبدو عليهم ضعف البنية، ربما يكون غذاؤهم الذي يعتمد في أغلبه على البطاطا وقليل من الأشياء الأخرى، هو السبب في ذلك. هكذا فسرت ليب الأمر، وربما يكون هو

نفس الشيء الذي تسبب في فقدان السائق لأسنانه أيضًا!

ذكر السائق في حديثه شيئًا ما عن الموت، قال: «أعتذز منكِ، نحن هنا في (The dead(1)) center) سيدتي!»، فتشبّثت ليب، بالعربة استعدادًا لاهتزازها العنيف.. قال الرجل وهو يُشير إلى الأسفل: «نحن هنا في وسط المدينة بالضبط!».

كانت عبارة عن حقول مسطحة، تبدو مُخططة بأوراق الشجر الداكنة، وطبقات من تُربة طينية بُنية اللون وتميل إلى الاحمرار، أليس معروفًا أن المستنقعات بيئة حاضنة للأمراض؟! وهذه بقايا رمادية مبعثرة لأحد الأكواخ، غالبًا تكسوها الطحالب. لم يكن في المكان أي مناظر خلابة تُبهر ليب، فمن الواضح أن أراضي وسط أيرلندا تبدو كمنخفض كئيب تجتمع المياه بوسطه، كما تجتمع في قاع شلطانية مستديرة! خرجت «عربة التجوُّل» من هذا الطريق إلى طريقٍ أضيق مُعبّد بالحصى، وظل المطر ينقُر بوتيرة متواصلة، على قماش مظلّتها. نظرت حولها، فوجدت أكواخًا بلا نوافذ، تخيّلت أن كل عائلة ربما تختبئ مع حيواناتها من هطول المطر!

بين الحين والآخر، يتفرّع عن الطريق شارع صغير، يُفضي إلى مجموعة من أسطح المنازل التي ربما تشكل قرية، لكنها في كل مرة لم تكن هي القرية المقصودة! كانت تشعر ليب أنه ربما يجب عليها أن تسأل السائق كم تبقى من الوقت؟ لكنها لم ترغب في سؤاله الآن، خشية أن يكون الجواب: **«ما زال أمامنا وقتٌ طويلٌ!»**.

كل ما قالته رئيسة الممرضات في المشفى، أنه مطلوب ممرضة ذات خبرة في رعاية حالة خاصة

لمدة أسبوعين، وسوف يتم تغطية تكاليف الإقامة والسفر من وإلى أيرلندا، بالإضافة إلى مبلغ يومي. لا تعرف ليب شيئًا عن عائلة أودونيل سوى أنها لا بد وأن تكون عائلة ميسورة الحال، ولديها معرفة بأماكن أخرى في العالم، حتى يرسلوا إلى إنجلترا من أجل طلب ممرضة ذات كفاءة أعلى! لكن خطر في بالها الآن أن تتساءل، كيف يمكنهم معرفة أن المريض سيحتاج إلى خدماتها لمدة لا تزيد ولا تقل عن أسبوعين؟! ربما أرسلوا في طلبها لتكون ممرضة بديلة لهذه الفترة فقط!

على أية حال، سوف تحصل على أجر جيد في مقابل مجهوداتها، كما أنها تجربة جديدة وربما تكون مثيرة! ففي المشفى، كان عمل ليب محل امتنان أحيانًا واستياء في أحيانٍ أخرى، ولا يتطلب الكثير من مهاراتها، فقط القيام ببعض الأمور الأساسية، مثل: إطعام المرضى، وتغيير الضُمادات، وترتيب الأسِرّة.. إلى آخرهِ.

قاومت رغبتها الشديدة في سحب ساعتها من أسفل المِعطَف لمعرفة الوقت، سوف يجعل ذلك الوقت يمر ببطءٍ أكثر، وربما يُفسد المطر الساعة. ظهر أمامها كوخ بدون سقف، على جانب الطريق، كان سقفه الجمالوني المُحترق يشكو إلى السماء، فلم تنجح الأعشاب في تغطية هذا الخراب بعد. نظرت ليب إلى فوضى يسود عليها اللون الأسود، من خلال فتحة يبدو أنها كانت الباب، المنظر يُشير إلى نشوب حريق منذ فترة ليست ببعيدة، (لكن كيف يمكن للنيران أن تُمسك بأي شيء في هذا البلد الرّطب)؟! لم يكلف أحد نفسه عناء إزالة القوائم الخشبية المُحترقة، أو حتى تركيب قوائم جديدة وسقف بسيط من القش.. هل صحيح أن الأيرلنديين

لا يهتمون بالتحسين والتطوير؟!

كانت هناك امرأة ترتدي قُبّعة مُزركشة مُتّسخة، تقف بين مجموعة أطفال صغار يحيطون بها كالسياج، لفت انتباههم صوت حشرجة عجلات العربة، فتقدموا نحوها، رفعوا أياديهم إلى أعلى كأنهم يحاولون صيد قطرات المطر. شعرت ليب بالحرج وأدارت وجهها بعيدًا! تمتم السائق: «إنه وقت المجاعة!».

لكننا في أوائل الصيف، كيف يكون الطعام شحيحًا في مثل هذا الوقت؟! هل يحدث ذلك في كل المواسم؟!

تلطّخ حذاؤها بالوحل والحصى الذي تقذف به عجلات العربة، بل وانحرفت بهما أكثر من مرة وغاصت في برك ضحلة عميقة، جعلتها تتشبّث بالمقعد حتى لا تنفلِت وتطير من العربة. ظهر في الأفق مزيد من الأكواخ، بعضها به ثلاث نوافذ وبعضها الآخر به أربع، ومزارع وحظائر، ومنزل ريفي من طابقين، ثم منزل آخر.. كان هناك رجلان، تركا ما بأيديهما من أحمال يرفعونها على عربة أمامهما، واستدارا نحوها، حملقا بها، قال أحدهما شيئًا للآخر، نظرت ليب في ريبة إلى نفسها، هل في ملابسها شيئًا غريبًا؟! أم أن سكان هذه البلدة متسكّعين بما فيه الكفاية، حتى يتركون أعمالهم ويتفرغون للحملقة في الغرباء؟!

إلى الأمام من على بُعد، سطع لون الجص الأبيض من بناء له سقف مدبب وصليب على قمته، يعني هذا أنها كنيسة كاثوليكية. وعندما انحرف السائق عن الطريق، أدركت ليب أنها وصلت إلى القرية المقصودة. لكن تلك القرية بحسب معايير البناء الإنجليزية لا تعدو كونها أكثر من مجموعة من

t.me/yasmeenbook

المباني الكئيبة! نظرت إلى ساعتها، كانت حوالي الساعة التاسعة، ولم تغب الشمس بعد. أخفض الحصان رأسه وقضم بعض الحشائش. يبدو أن هذا هو الشارع الوحيد. قال السائق:

-ستتم استضافتكِ في دكّان الروحيات!

-غذرًا، ماذا تقصِد؟

أومأ السائق جهة اليسار قائلًا: «مبنى راين»، فأشار إلى مبنى لا يحمل أي لافتة. لا يمكن أن يكون هذا هو المكان المقصود! سمحت ليب للرجل أن يُمسك بيدها ليساعدها على النزول، بعد أن تيبس جسدها طوال الطريق. مدّت زراعها بعيدًا ونفضت المظلة، طوت القماش، وأحكمت غلق الأزرار عليها جيدًا، ثم جففت يدها داخل معطفها، قبل أن تخطو داخل الدُكّان ذو السقف المنخفض.

ما أن دلفت، حتى أزكمت رائحة الحطب المُحترق أنفها، ولم يكن هناك ما يُضيء المكان بخلاف النيران المشتعلة أسفل المدفأة الضخمة، سوى مصباحين في الحائط الذي تقف بجواره فتاة، تحاول وضع غلبة صغيرة بإحكام على الرف. قالت ليب:

-عمتم مساءً! يبدو أنهم أتوا بي إلى المكان الخطأ!

أجابت الفتاة بصوت مرتفع قليلًا، كما لو كانت ليب صمّاء:

-لا بد وأنك السيدة الإنجليزية! هل ترغبين في الدخول إلى الخلف لتناول عشاءً خفيفًا؟

حاولت ليب أن تُحافظ على هدوئها؛ فإذا لم تستطع أو ترغب عائلة أودونيل في توفير فندق مناسب لإقامة الممرضة التي استأجرتها، فالشكوى لن تكون ذات جدوى!

دخلت من الباب الموجود بجانب المدفأة، فوجدت نفسها داخل غرفة صغيرة، خالية من أي نوافذ، ولا تحتوي سوى على طاولتين. تجلس على إحداها راهبة ملامح وجهها غير واضحة تمامًا، من خلف طبقات غطاء الرأس المشدودة بإحكام. جفلت ليب قليلًا، فهي لم تشاهد شيئًا مثل هذا منذ سنوات؛ وفي إنجلترا، لا ترتدي الأخوات المكرّسات(2) مثل هذا الزي، خوفًا من إثارة المشاعر المعادية للكاثوليك. حيّتها ليب بتأدب: «عمتِ مساءً!».

ردت الراهبة تحيتها بانحناءة شديدة، فربما لا تفضّل الراهبات في طائفتها الحديث مع من هم ليسوا من نفس العقيدة! أو ربما يقطعون عهدًا بالصمت وعدم الكلام على الإطلاق، أليس هذا من الجائز؟!

جلست ليب على الطاولة المقابلة، وأشاحت وجهها بعيدًا عن الراهبة، في انتظار الطعام. تمنت لو لم يكن صوت قرقرة معِدتها عاليًا بما يكفي ليسمعه أحدا! سمِعت صوت طقطقة خافت يصدر من أسفل طيات زي المرأة الأسود، لا بد وأنه صوت حبّات تلك المِسبحة الشهيرة! أخيرًا، بعد أن أتت الفتاة بصينية الطعام، أحنت الراهبة رأسها وهمست بتلاوة صلاة الشكر قبل تناول وجبتها. كانت تبدو في الأربعينات أو الخمسينات من العمر، وعينيها منتفخة قليلًا. خمّنت ليب أنها ربما نشأت في قرية، بسبب يديها الممتلئة.

وضعت الفتاة الطعام على الطاولة، وكان عبارة عن تشكيلة غريبة: خبز الشوفان، والملفوف، ونوع من الأسماك. قالت ليب للفتاة:

-كنت أتوقع طبقًا من البطاطا!

-ستنتظرين شهرًا آخر حتى يمكنك أكل البطاطا.

-أها!

فهمت ليب الآن لماذا كانت هذه هي فترة المجاعة في أيرلندا؛ لأنهم لا يحصدون البطاطا حتى قدوم فصل الخريف! ورغم المذاق السيئ للطعام، أنهت ليب طبقها بالكامل. لقد تعلمت ألا تترك ولو حتى الفُتات، بعد ما اختبرته في سكوتاري، حين كان نصيب الممرضات من الطعام قليلًا جدًا، تمامًا مثل الجنود الجرحى(3).

سمعت بعض الجلبة الآتية من الخارج في دكان البقالة، ثم دخل إلى الغرفة مجموعة من أربعة رجال، قال الأول منهم:

-ليحفظ الله جميع مَن في المكان!

لم تعرف ليب بماذا تُجيب، فأومأت رأسها وحسب. أما الراهبة فردت التحية: «ليحفظك الله أيضًا!»، وهي ترسم علامة الصليب(4) بوضع يدها على جبهتها، ثم صدرها، ثم على الكتف الأيسر ومن بعده الكتف الأيمن. ثم غادرت الغرفة. لم تعرف ليب إذا كانت الراهبة قد غادرت لأنها انتهت من تناول وجبتها المتواضعة، أم لتترك الطاولة للأشخاص القادمين!

كانوا مجموعة من المزارعين المزعجين وزوجاتهم، هل كانوا يشربون في مكان آخر طوال الوقت بعد ظهر الأحد؟ دكّان الروحيات! الآن فهمت ليب عبارة السائق. لم يكن يقصد دكّان بقالة مسكون بالأشباح، بل دكّان بقالة يبيع المشروبات الروحية!

تطرق حديثهم إلى **«المعجزة الخارقة»** التي يجدون صعوبة في تصديقها، رغم أنهم رأوها بأم أعينهم، ظنت ليب من حديثهم، أنهم لا بد وأن كانوا في زيارة لمعرض أو متحف. صاح رجلٌ مُلتحٍ،

«أعتقد أن الجماعة الأخرى هي التي وراء ذلك»، لكزته زوجته بكوعها حتى يصمت، لكنه تمسك برأيه وأردف: «هم يخدمونها على مدار الساعة!».

وقف رجلٌ غريب على باب الغرفة، قرع على صدريته وقال:

-السيدة رايت؟

أدارت رأسها، والتفتت نحوه، تذكرت ليب اسم الرجل، إنه دكتور ماكبرارتي! هذا هو اسم الطبيب الخاص بعائلة أودونيل. نهضت عن مقعدها وصافحته. بدا من مظهره أنه ربما في السبعين من عمره، له شارب أبيض متدلٍ على جانبي شفتيه، شعره أشعث خفيف، يرتدي سترة رثة، يكسوها قشر الرأس أعلى كتفيه، يمسك بعكاز ذي رأس على شكل كرة.

وقف المزارعون وزوجاتهم يحدّقون بهما باهتمام. قال لها الطبيب: «كرمٌ منكِ أن تسافري كل هذا الطريق الطويل»، كما لو كانت ليب ستدفع أجر زيارة بدلًا من استلام عملها! واصل سؤالها دون أن يعطيها فرصة للرد: «هل كان الطريق مرهقًا؟ هل انتهيتِ من طعامك تمامًا؟».

قامت عن الطاولة وخرجت من غرفة الطعام وتابعته إلى داخل الدُكّان، أشارت لهما الفتاة التي تحمل المصباح أن يصعدا على درجٍ ضيق. صعدا إلى غرفة ضيقة جدًا وغير مرتبة، وشغلت حقيبة ليب أغلب المساحة على أرضية الغرفة. هل كان من المتوقع أن تُجري مقابلتها مع الطبيب ماكبرارتي وهما محشوران في مثل هذا المكان؟! ألا يوجد غرفة أخرى خالية، أم أن الفتاة غير مهذبة بما يكفي لتقوم بترتيب الأشياء؟! قال الطبيب للفتاة: «حسنًا جدًا يا ماجي». ثم سألها عن صحة أبيها:

-كيف حال والدك، هل ما زال يسعل؟

-إنه يشعر بتحسن طفيف.

ما أن غادرت الفتاة، حتى أومأ إلى ليب لتجلس على المقعد الخشبي الوحيد في الغرفة: «الآن يا سيدة رايت..».

كانت ليب بحاجة إلى عشر دقائق على الأقل؛ لتكون بمفردها حتى تستخدم المبولة والحوض في الغرفة، لكن يبدو أن الأيرلنديين لهم سمعة سيئة في إهمال تفاصيل مجاملة الضيوف! اتكأ الطبيب على عكازه، وواصل حديثه: «ما هو عمرك؟ إذا كان مسموحًا لي بالسؤال»! وجدت ليب نفسها مضطرة إلى إجراء مقابلة حول الوظيفة، رغم أنهم أفهموها أنه تم قبولها بالفعل لهذه الوظيفة، أجابته:

-لم أبلغ الثلاثين بعد حضرة الطبيب!

-أنتِ أرملة، أليس كذلك؟ آآ.. بدأتِ العمل بالتمريض عندما وجدتِ نفسكِ.. مضطرة لتدبير أموركِ المادية؟

هل كان ماكبرارتي يتحقق من رواية رئيسة الممرضات عنها؟ لم تجد السيدة رايت مفرًا من أن تومئ برأسها لتؤكد كلامه، قالت: «نعم، أقل من عام بعد الزواج».

لقد تصادف أنها قرأت مقالًا عن الآلاف من الجنود الجرحى، الذين يعانون من جروح بالرصاص أو من الكوليرا، ولا يوجد أحد ليعتني بهم. وقد أعلنت صحيفة **التايمز** أنه تم جمع مبلغ سبعة آلاف جنيه إسترليني؛ لإرسال مجموعة من النساء الإنجليزيات إلى القرم للعمل كممرضات. وبالرغم من الرهبة التي شعرت بها ليب، كان يخامرها أيضًا شعور بالجرأة، فكرت في نفسها: «**أنا قادرة على القيام بهذا العمل**». لقد فقدت الكثير بالفعل وكانت متهورة أيضًا!

كل ما قالته للطبيب حتى الآن هو، «كنت في الخامسة والعشرين من عمري». قال الطبيب مندهشًا: نايتنجيل!

يبدو أن رئيسة الممرضات قد أخبرته بالكثير! كانت ليب تخجل دائمًا من تقديم اسم هذه السيدة العظيمة في الحديث عن عملها، بل وتكره هذا اللقب العبثي، **(لقب الآنسة نايتنجيل)** الذي تم إلصاقه بجميع الفتيات اللاتي تدربن على يد الآنسة نايتنجيل، كأنهن دُمى مصنوعة على نفس قالبها البطولي. أجابت ليب:

-نعم، كان لي شرف العمل تحت إشرافها في سكوتاري.

-يا له من عمل نبيل!

إذا قالت «لا» سيبدو كلامها غريبًا، وإذا قالت «نعم» ستبدو متعجرفة! لقد ضعفت ليب بعد أن عرفت أن اسم نايتنجيل فقط هو السبب الذي دفع عائلة أودونيل، لتكبد عناء جلب ممرضة عبر بحر أيرلندا! كان بإمكانها أن تخبر الرجل الأيرلندي المسن بالمزيد مما يود سماعه عن جمال مُعلمتها الآنسة نايتنجيل، وصرامتها، والتزامها الشديد. لكنها عوضًا عن ذلك قالت:

-كنت ممرضة محترفة.

-متطوعة؟

أرادت توضيح الأمر، لكنه فهمها بشكل خاطئ. احمر وجهها. لكنها تساءلت، لماذا عليها أن تشعر حتى بأدنى درجة من الحرج من كونها ليست متطوعة؟! لقد كانت الآنسة نايتنجيل تذكرهن دائمًا بأن، حقيقة أنهن يعملن في مقابل أجر لا يقلل من قدر وقيمة الخدمة التي يقدمونها. قالت، «لا.. أقصد

أنني كنت واحدة من الممرضات المتعلّمات وليست ممرضة عادية» ثم أردفت بشيء من الحماقة «والدي كان رجلًا نبيلًا، هو ليس ثريًا، ولكنه كان نبيلًا!

-أها.. حسنًا جدًا! منذ متى وأنتِ في المشفى؟

-سوف أكمل ثلاث سنوات في سبتمبر.

بالطبع هذا أمر رائع في حد ذاته؛ لأن معظم الممرضات لا يبقين عادةً أكثر من بضعة أشهر، ولم تكن ليب مثل العاملات على شاكلة السيدة جامبس(5)، اللأتي يتذمرن ويصِحن من أجل الحصول على حاجتهن من البيرة. لكنها رغم ذلك لم تحظَ بتقدير خاص هناك؛ فقد سمعت مشرفة التمريض ذات مرة، تصف الممرضات اللأتي اشتركن في حملة نايتنجيل في القرم، بأنهن متعجرفات. أردفت ليب:

-بعد خدمتي في سكوتاري، عملت مع الكثير من العائلات، وراعيت والدي ووالدتي في أثناء مرضهما في أواخر حياتهما.

-هل سبق لكِ أن راعيتِ طفلًا، سيدة رايت؟

اندهشت ليب من هذا السؤال لكن لبرهة فقط، ثم أجابته:

أعتقد أن مبادئ الرعاية الطبية هي نفسها. هل المريض طفل؟

-نعم، آنا أودونيل.

-لم يخبروني مما تشكو!

تنهد الرجل. فتوقعت ليب أن الطفلة قد تكون مصابة بمرض قاتل ولكن تأثيره بطيء؛ لأنه لم يُنه حياة الطفلة حتى الان. قد يكون السل على الأرجح، خاصة في هذا المناخ الرطب.

-هي ليست مريضة بالمعنى الحرفي. سيكون عملك الوحيد هو مراقبتها.

مهمتي مراقبتها! تذكرت ليب تلك الممرضة المرعبة في رواية چين آير، لقد كانت مكلّفة بإبقاء المجنون مختبئًا في مكان منعزل بأعلى القصر! قالت باندهاش:

-هل أتيتم بي إلى هنا لـ.. لأعمل كرقيب؟!

-لا، لا، فقط للملاحظة!

لكن الملاحظة هي فقط مجرد جزء بسيط في عملية الشفاء. لقد علّمت الآنسة نايتنجيل ممرضاتها كيف يلاحِظن المرضى بعناية لكي يفهمن ما يحتاجون إليه وتوفيره لهم، وذلك لا يشمل العلاج - فهذه مهمة الأطباء - ولكن دورهن هو التركيز على الأشياء الأخرى التي اعتبرتها ضرورية أيضًا لإتمام الشفاء، مثل: الضوء والهواء والتدفئة والنظافة والراحة والتغذية وتبادل الحديث.. إلى آخره. أردفت ليب:

-إذا فهمتك بشكل صحيح..

-لا، لا، أشك في أنكِ تفهمين ما أقصِد حتى الآن، والخطأ خطئي أنا!

أحنى ماكبرارتي رأسه واستند على حامل الحوض الذي في الغرفة، كأن قوته تتلاشى. كانت ليب تود أن تقدم للرجل المسن المقعد، إذا بإمكانها فعل ذلك دون أن تتسبب في إهانة له!

-لا أريد أن أؤثر على تفكيرك بأي شكل من الأشكال. لكن ما يمكنني قوله هو، أنها حالة غير عادية للغاية.. لأن آنا أودونيل تدّعي - أو بالأحرى هكذا يدّعي والديها - أنها لم تتناول طعامًا منذ عيد ميلادها الحادي عشر!

قطّبت ليب حاجبيها وقالت:

-لا بد أنها مريضة إذن!

-ليس هناك أي مرض محدد.. حاول ماكبرارتي تصحيح ما قاله فأردف، محدد بالنسبة لي على الأقل، هي فقط ببساطة لا تأكل!

-هل تقصد أنها تعيش على السوائل فقط؟

لقد سمعت ليب عن هذا السلوك الغريب للعذارى المكرّسات الحديثات، إذ يعيشن فقط على شراب شاي الأروروت المغلي أو شوربة لحم البقر لعدة أيام متتالية. لكنه راجعها فيما تقول:

-لا تتغذى على أي شيء من أي نوع، فقط مياه ولا شيء آخر..

-لكن، كما نقول في التمريض «لا يستطيع لا تعني لا يُريد»! ما لم تكن.. هل تعاني المسكينة من انسداد في المعِدة؟

-على الإطلاق، وإلا اكتشفت ذلك!

كانت ليب في حيرة من أمرها، «هل غثيان شديد؟ هي تعرف أن بعض النساء الحوامل يشعرن بألم شديد في المعِدة، لدرجة تجعلهن غير قادرات على تحمُّل الطعام. هز الطبيب رأسه بالنفي. فسألت ثانيةً:

-هل تعاني من الاكتئاب؟

-لا يمكنني قول ذلك، فهي فتاة وديعة ومتدينة!

-أها.. إذن، ربما يكون الأمر مجرد حماس للممارسات الدينية وليست مسألة طبية على الإطلاق! هل هي كاثوليكية؟

بدا من حركة يده، كما لو كان يسألها: «وماذا أيضًا؟! لقد افترضت أنهم جميعًا كاثوليك، فهم بعيدون عن دبلن، ربما يكون الطبيب نفسه

كاثوليكيًا!

-لا بد وأنك حذرتها من مخاطر الصيام، أنا متأكدة من ذلك!

-بالطبع فعلت ذلك في البداية، وحتى والديها أيضًا، لكن آنا ثابتة على موقفها تمامًا!

هل أتوا بليب عبر البحر، من هذه المسافة البعيدة لأجل هذا السبب؟ نزوة طفلة؟! لا بد وأن عائلة أودونيل قد أصابهم الجنون منذ اليوم الأول الذي رفضت فيه ابنتهم تناول الإفطار، وأرسلوا تلغرافًا إلى لندن يطالبون فيه بإرسال ممرضة، وليست أي ممرضة، بل واحدة من الجيل الجديد الذي لا تشوبه شائبة: «أرسلوا لنا ممرضة من فريق الآنسة نايتنجيل»! سألت ليب:

-منذ متى كان عيد ميلادها؟

نتف ماكبرارتي شواربه وهو يقول: «أبريل، هذا كان قبل أربعة أشهر بالضبط»!

لو لم تكن ليب ممرضة مُدربة ومهنية، لكانت لتضحك بصوتٍ عالٍ!

-حضرة الطبيب، لو كان ذلك حقيقيًا، لكانت هذه الفتاة ميتة الآن!

انتظرت منه أي إشارة تؤكد اتفاقه معها حول أمر هذه السخافات، إشارة بالعين مثلًا، أو حكّة على الأنف. لكنه فقط أومأ برأسه. وقال:

-إنه لغز كبير!

هذه بالطبع ليست الكلمة التي تفسر بها ليب الأمر، سألته:

-إذن هي طريحة الفراش على الأقل؟

هز رأسه وقال، الفتاة تتحرك وتسير مثل أي فتاة أخرى.

-هل جسدها هزيل؟

-جسدها ضئيل بطبيعة الحال، لكن لا، لم يطرأ عليها أي تغيير يذكر منذ إبريل الماضي.

لقد تحدث الطبيب بصدق، لكن هذا سخيف، هل أصاب عينيه العمى عن رؤية الصورة كاملة؟! أضاف ماكبرارتي:

-وبالرغم من ذلك، هي ما زالت تتمتع بكل قواها ووظائفها الجسمانية.. في الحقيقة، تبدو آنا كما لو كان بداخلها قوة تشعل حيويتها، لدرجة جعلت عائلة أودونيل يقتنعون تمامًا بأنها يمكنها العيش بدون طعام.

-مُدهش!!!

خرجت الكلمة من ليب بطريقة ساخرة ولاذعة! لكن ماكبرارتي أردف:

-أنا غير مُتفاجئ من تشكككِ في الأمر يا سيدة رايت، لقد كنت أفكر مثلكِ من قبل..

-كنت! هل تريد أن تقول لي بكل جدية، أنك..

قاطعها ويديه النحيلة تلوّحان إلى أعلى:

-أول ما يتبادر إلى الذهن، هو أن هذا الأمر كله مجرد خُدعة..

قالت ليب بحسم:

-بكل تأكيد!

-لكن هذه الطفلة.. ليست كباقي الأطفال الآخرين.

انتظرت منه أن يخبرها بالمزيد..

-لن أستطيع أن أخبرك بالمزيد يا سيدة رايت، أنا فقط لديّ تساؤلات، لقد قتلني الفضول طيلة الأربعة أشهر الماضية، وأنا على يقين أنك أنت أيضًا هكذا الآن!

لكن الفضول لم يقتل ليب كما يظن، بل إن كل ما تريده هو إنهاء هذه المقابلة، وإخراج هذا الرجل من غرفتها! قالت له:

-حضرة الطبيب، تعلّمنا من مادة العلوم أن الحياة بدون طعام مستحيلة!

-لكن ألم تبدو معظم الاكتشافات في تاريخ الحضارة غامضة، بل وحتى مبنية على السحر! اهتز صوته بقليل من الحماسة ثم أردف، بدءًا من أرشميدس وحتى نيوتن، كل العظماء حققوا إنجازات عظيمة بسبب اتباع حدسهم دون رفض مُسبق. لذا، كل ما أطلبه منك هو، أن يكون عقلكِ منفتحًا عندما تلتقين غدًا بـ آنا أودونيل.

نظرت لأسفل وهي تأسف على ماكبرارتي، كيف لطبيب أن يسمح لنفسه بالوقوع كفريسة للُعبة طفلة، ويظن نفسه يسير في خُطى هؤلاء العظماء! سألته بأدب، اسمح لي بالسؤال، «هل كانت هذه الطفلة تحت رعايتك فقط؟ لكن ما كانت تقصده بالفعل هو، ألم يكن هناك من هو أفضل للعناية بها؟!

-هي..

أردف ماكبرارتي مؤكدًا: «في الحقيقة، كانت هذه فكرتي، أن أعمل على كتابة تقرير عن الحالة، وأرسله لصحيفة **التايمز الأيرلندية**».

-صحيفة قومية!

لم تسمع ليب بأمر هذه الصحيفة من قبل.

-لقد تأسست مؤخرًا يا سيدتي..

ثم أردف بحزن: «آمل أن يكون أصحاب الصحيفة أقل في التعصب الطائفي الأعمى، وأكثر انفتاحًا على كل ما هو جديد واستثنائي يظهر على الساحة. لقد فكرت في أن أشارك الحقيقة مع جمهور العامة،

أتعلمين ما هو حجم الأمل الذي سينالونه إذا استطاع شخصٌ ما أن يفسر لنا الأمر»!

-ألم يقم بذلك أي شخص حتى الان؟

قال بتنهيدة مكتومة:

-لقد تلقينا العديد من الرسائل الحماسية التي تعتبر حالة آنا معجزة حقيقية بدون أدنى شك، لكن هناك بعض الاعتراضات القليلة أيضًا، ويفترض البعض أنها ربما تعتمد على بعض الطرق الغذائية التي لم تُكتشف بعد، لنقُل، قوة مغناطيسية مثلًا أو مجرد رائحة!

-رائحة!

عضت ليب شفتيها حتى تُخفي ابتسامتها.

-في إحدى الرسائل الجريئة، افترضوا أنها ربما تحوّل ضوء الشمس إلى طاقة كما يفعل النبات، أو فقط تعيش على الهواء كما تفعل بعض الأنواع.

ثم لمع وجهه المتجعد وسألها:

-أتذكرين طاقم السفينة الغرقى، الذين قالوا إنهم كانوا يقتاتون لأشهر عديدة على التبغ؟!

أطرقت ليب رأسها ونظرت لأسفل حتى لا يرى السخرية في عينيها. لكن ماكبرارتي أمسك بطرف الحديث مرة أخرى، وأردف:

-لكن الغالبية العظمى من الردود تحمل إساءات شخصية.

-إساءة للطفلة؟

-للطفلة، وعائلتها، وحتى لي أنا شخصيًا. التعليقات لم تكن في صحيفة التايمز الأيرلندية وحسب، بل وحتى في العديد من الصحف البريطانية. لقد اتخذوا الحالة وكأنها فرصة للشهرة!

الان فهمت ليب الأمر، لقد قطعت كل هذا الطريق

الطويل لتعمل كممرضة نائبة لسيادة الطبيب، كل ذلك لأجل كبرياء الطبيب القروي الجريح. لماذا لم تلح في معرفة المزيد من التفاصيل من رئيسة الممرضات قبل القبول بهذه الوظيفة!

قال بغضب:

-معظم المراسلات تفترض أن عائلة أودونيل غشاشون، فهم يخدعون الجميع بينما يطعمون ابنتهم سرًا.

ثم أردف بانفعال:

-لقد صار اسم قريتنا مرادفًا للسذاجة والتخلف، وبات الكثير من الشخصيات الهامة هنا يشعرون بأن سمعة البلدة، بل والأمة الأيرلندية بأكملها على المحك!

هل استشرت سذاجة هذا الطبيب كالحمّى بين هذه **الشخصيات الهامة**! هل هذا ما جعلهم يشكلون لجنة ويتخذون القرار بوجوب وضع مراقبة؟ حسنا، إذنْ لم تكن عائلة أودونيل هي التي أرسلت في طلب ليب على الإطلاق!

حاولت ليب أن تستبعد أي نبرة سخرية من حديثها:

-إذن أنا هنا فقط بغرض إثبات أن الطفلة تعيش بوسيلة تفوق قدرات البشر!

قاله مؤكدًا لها:

-لا، لا فقط لتظهر الحقيقة للنور، أيًا كانت هذه الحقيقة. اثنتان من المراقبات سوف تبقيان بجوار أنا، تتناوبان المراقبة بين اليل والنهار طوال أسبوعين كاملين.

إذنْ لم تُستدع ليب لأجل خبرتها في التعامل مع الحالات الجراحية أو الأمراض المعدية، ولكن لأجل

تدريبها المعروف عنه الدقة والصرامة الشديدة. من الواضح أن اللجنة تأمل في إضفاء بعض المصداقية على قصة عائلة أودونيل الخُزعبلية، من خلال استقدام ممرضة متمرسة نالت تدريبًا حديثًا، وذلك بغرض جعل هذه القصة البدائية العفنة معجزة أمام العالم أجمع! اصطكت أسنان ليب غيظًا، وشعرت بنفس الشعور تجاه زميلتها، المرأة الأخرى التي أستدرجت لهذا المستنقع، سألت:

-الممرضة الأخرى.. أظن أنني لا أعرفها!

قال الطبيب وهو عاقدٌ حاجبيه:

-ألم تتعرفي إلى الأخت مايكل في أثناء العشاء؟!

خمنت ليب أنها يجب أن تكون تلك الراهبة الصامتة، يا له من أمرٍ غريب، كيف يعطونها اسم رجل، كأن الأمر تُنكر للأنوثة! لكن لماذا لم تُقدم الراهبة نفسها بشكل صحيح؟ هل كانت تلك الانحناءة الشديدة تفي بالغرض؟ يبدو أنها وهذه المرأة الإنجليزية اجتماعا معًا في هذا العبث!

-هل تلقت هي الأخرى تدريبها في جزيرة القرم؟

-لا، لا، لقد أرسلوها إليّ للتو من بيت الرحمة في تالامور.

قالت ليب في نفسها، ربما تكون واحدة من هؤلاء **الراهبات المتجولات**. لقد خدمت برفقة بعضهن في سكوتاري، على الأقل كُنّ محل ثقة.

-لقد طلبت العائلة أن تكون واحدة من الممرضات على الأقل من نفس..

-إذنْ طلبت عائلة أودونيل أن تكون من نفس طائفتهم الدينية كاثوليكية!

-بل وحتى من جنسيتهم!

قالها وكأنه أراد تخفيف الأمر.

قالت ليب بابتسامة خافتة:

-أعرف جيدًا أن لا أحد في هذه البلدة يحب الإنجليز.

قال ماكبرارتي معترضًا:

-لقد بالغت في وصف الأمر!

لكن ماذا عن تلك الوجوه التي اتجهت نحو «عربة التجوُّل» بينما كانت ليب تمر عبر شارع القرية؟! أولئك الرجال كانوا يتكلمون عنها لأنهم كانوا ينتظرون مجيئها، هذا ما أدركته الآن. فلم تكن مجرد امرأة إنجليزية وحسب، بل تلك المرأة التي تم شحنها لتأتي إلى هنا لأجل مراقبة طفلتهم المدللة!

-وجود الأخت مايكل سوف يُضفي شيئًا من الأُلفة مع الطفلة، هذا كل ما في الأمر.

فكرة **الألفة** في حد ذاتها، ضرورية وربما مؤهلِ مفيد للمراقبة، أما بالنسبة للممرضة، فلم يكلفه الأمر سوى اختيار مجرد ممرضة من فريق «الآنسة نايتنجيل» الشهير للتمريض! وهذا لكي تبدو المراقبة **دقيقة وصارمة**، وبخاصة في عيون الصحافة البريطانية. فكرت ليب أن تقول بنبرة هادئة: **«حضرت الطبيب، يبدو أنكم أتيتم بي إلى هنا، على أمل أن يضع ارتباط اسمي بسيدة عظيمة، غطاءً من الاحترام على احتيال فاضح.. لن أكون جزءًا من ذلك».**

إذا غادرت في صباح اليوم التالي، يمكنها العودة إلى المشفى في خلال يومين. لكنها اكتأبت عندما تخيلت نفسها تحاول توضيح، أن الوظيفة التي أُرسلت لها في أيرلندا، أثبتت أنها غير مقبولة من الناحية الأخلاقية. كيف ستستقبل رئيسة التمريض هذا الأمر؟ لذا، وجدت ليب أنه من الأفضل أن

تكبح مشاعرها، على الأقل الآن، وتركز على الأشياء العملية. قال ماكبرارتي:

-كل المطلوب منك ببساطة، فقط الملاحظة.

شرعت ليب في الحديث:

-لكن لو حدث في أي وقت، وعبّرت الفتاه عن رغبتها في الأكل ولو شيء بسيط..

قال الطبيب وقد بدا مذهولًا:

-إذن فلتأتها به!

ثم أردف:

-ليست قضيتنا تجويع الفتاة.

أومأت ليب وقالت:

-إذَنْ نحن الممرضات مطلوبًا منا أن نقدم تقريرنا لك في غضون أسبوعين؟

هزّ الطبيب رأسه قائلًا:

-بصفتي طبيب آنا، - وبعد توريطي في هذا الأمر ذي السمعة السيئة في الصحف - يمكن اعتباري طرفًا معنيًا. لذلك، يجب عليكن أن تُقسمن وتُشهدن أمام اللجنة المنعقدة.

وهذا ما تطلّعت له ليب. أضاف الطبيب قائلًا:

-سوف تقدمين تقريركِ وتقدم الأخت مايكل تقريرها كلٌ على حدة.

ثم أضاف مشيرًا بأحد أصابعه المجعدة المعكوفة:

-دون أي تشاور. نحن نرغب في سماع وجهة نظر كل منكما، بشكل مستقل تمامًا عن الآخر.

-حسنًا جدًا، هل سمحت لي بالسؤال، لماذا لا تتم عملية المراقبة هذه داخل أحد المستشفيات؟ إلا إذا لم يكن هناك أي مستشفى في طول الجزيرة وعرضها!

-أهه.. لقد رفضت عائلة أودونيل فكرة أن تؤخذ ابنتهم الصغيرة إلى مشفى المقاطعة!

لقد حسم هذا الأمر بالنسبة لليب؛ فالرجل النبيل وزوجته يرغبان في إبقاء ابنتهما في المنزل حتى يتمكنا من إطعامها سرًا. لن يستغرق الأمر أسبوعين من المراقبة حتى تضبطهما متلبسين. اختارت كلماتها بحنكة لأن الطبيب كان على ما يبدو، أنه يُحب هذه الفتاة المنافقة بشدة! سألته:

-في حال تمكنت من العثور على دليل يؤكد إطعام آنا سرًا قبل انقضاء مدة الأسبوعين، هل من المفترض أن أقدم تقريري إلى اللجنة مباشرةً؟

تجعدت وجنتيه المختفيان أسفل الشوارب، قال:

-أفترض في هذه الحالة، سيكون الاستمرار أكثر من ذلك ليس إلا إهدارًا لوقت وأموال الجميع!

إذن، من الممكن أن تكون ليب على متن سفينة العودة إلى إنجلترا في غضون أيام، ولكن بعد إغلاق ملف هذه القضية غريبة الأطوار بطريقة تُرضيها. وماذا أيضًا؟ إذا كانت الصحف في جميع أنحاء المملكة ستعطي الممرضة «إليزابيث رايت» الفضل في فضح هذه الخُدعة، سيتعين على طاقم المشفى التي تعمل بها تقدير ذلك. من حينها سيقول إنها **متكبرة**؟! وربما يكون ذلك سببًا في حدوث أشياء أفضل؛ كحصول ليب على منصب يتناسب مع مهاراتها، أو أكثر أريحية. أو ربما حياة أكثر رفاهية! رفعت يدها لتكتم التثاؤب الذي داهمها فجأة. قال ماكبرارتي:

-من الأفضل أن أغادر الان، لا بد وأنها العاشرة على الأغلب!

سحبت ليب السلسلة حول خصرها، ورفعت ساعتها إلى أعلى وقالت:

-سأجعلها العاشرة وثماني عشرة دقيقة.

-آهه.. التوقيت متأخر هنا خمسًا وعشرين دقيقة.. أنتِ ما زلت على التوقيت الإنجليزي!

نامت ليب جيدًا.

أشرقت الشمس قبل السادسة بقليل، وبحلول الوقت كانت ترتدي زي المشفى الرسمي؛ فستان من الصوف الرمادي، تعلوه سترة وغطاء رأس أبيض. (على الأقل يبدو مناسبًا. فواحد من الأمور المهينة التي اختبرتها في سكوتاري، هو مشاكل الزي الموحد؛ حيث كانت الممرضات القصيرات تظهرن كأنهن محشورات بداخله، بينما تبدو ليب كشحاذة بشكل الأكمام التي لا تغطي كامل يديها)!

تناولت إفطارها بمفردها في الغرفة التي خلف دكان المشروبات الروحية. كان البيض طازجًا، وبدا لون صفاره كصفار الشمس.

دخلت فتاة مبنى ريان.. ربما اسمها ماري؟ أو ميج؟ ترتدي نفس المريلة المُبَقعة التي كانت ترتديها مساءً بالأمس. عندما عادت لتنظف المكان، قالت إن السيد ثاديوس في الانتظار. ثم غادرت الغرفة مرة أخرى قبل أن تتمكن ليب من إخبارها بأنها لا تعرف أحدًا بهذا الاسم. دلفت ليب إلى المتجر، سألت الرجل الواقف هناك:

-هل أردت أن تتحدث معي؟

لم تكن متأكدة تمامًا إذا ما كانت بحاجة إلى أن تُضيف كلمة «سيدي!

-عمت صباحًا سيدة رايت، آمل أنك نمت جيدًا!

كان السيد ثاديوس أكثر لباقة في الحديث مما توقعت بسبب سترته البالية. وجهه وردي، لا يبدو شابًا تمامًا، له أنف قصير وشعر أسود غزير ظهر

عندما رفع قبعته.

-أنا هنا لأصطحبك إلى منزل عائلة أودونيل الآن، إذا كنتِ مستعدة.

-مستعدة تمامًا.

لكنه لا بد وأن سمع نبرة التساؤل في صوتها، لأنه أضاف:

-يرى الطبيب أنه من الأفضل أن يقوم صديق للعائلة بتقديم الضيوف لهم!

ارتبكت ليب وقالت:

-كان في تصوري أن دكتور ماكبرارتي هو هذا الصديق!

-بالطبع هو كذلك، ولكن أعتقد أن أفراد عائلة أودونيل يثقون بشكل خاص في كاهنهم.

كاهن؟! هذا الرجل يرتدي زيًا مدنيًا.

قالت ليب:

-معذرةً، هل حضرتك الأب ثاديوس؟

هز الرجل كتفيه، قال:

-حسنًا، هذا هو شكل الزي الجديد، ولكننا لا نهتم كثيرًا بمثل هذه الأمور.

كان من الصعب تصور أن هذا الشخص الودود هو كاهن القرية، حامل أسرار الناس. أومأت ليب نحو صدره، وهي لا تعرف اسم الرداء الأسود ذي الأزرار، قالت:

-لكنك لا ترتدي طوقًا كهنوتيًا حول الرقبة، أو..

قال السيد ثاديوس بابتسامة:

-لدي الزي المناسب للأيام المقدسة في عربتي، بالطبع!

عادت الفتاة مسرعة، وهي تمسح يديها وتقول:

-إليك التبغ خاصتك الآن.

ثم قامت بطي طرفي غلاف العلبة الورقي، وألقت بها فوق الطاولة.

-ليباركِكِ الرب يا ماجي. وصندوق من أعواد الثقاب أيضًا... أنت رايت، إذا أنت الأخت الراهبة؟

كان يتحدث وهو ينظر خلف ليب، تلفتت حولها ووجدت الراهبة تحوم في صمت! متى تسللت هذه إلى هنا؟!

أومأت الأخت مايكل برأسها للكاهن ثم ليب وحرّكت شفتاها حركة بسيطة للابتسام. تقريبًا أصيبت شفتاها بالشلل بسبب الخجل! هكذا افترضت ليب. تُرى لماذا لم يرسل ماكبرارتي في طلب اثنتين من ممرضات نايتنجيل بينما كان هناك الكثير منهن؟ لقد خطر ببال ليب الآن أنه ربما ولا واحدة من الخمسين الأخريات - سواء ممرضات عاديات أو مُكرّسات - كانت متاحة لمثل هذه المهمة القصيرة. فهل كانت هي الممرضة الوحيدة في القرم التي فشلت في العثور على مكانتها بعد نصف عِقد من العمل؟ هل كانت الوحيدة في وضع سيئ بدرجة تكفي لابتلاع الطعم المسموم لهذه الوظيفة؟

اتجه ثلاثتهم يسارًا إلى الشارع، وساروا في ضوء الشمس الغائم، أما ليب فسارت معتلّة بين الكاهن والراهبة، وهي تجر حقيبتها الجلدية.

بدت المباني على الطريق بأشكال متباينة وكأنها تتنافر مع بعضها بعضًا في برود. مروا بامرأة عجوز تطل من نافذة، أمامها طاولة مكدّسة بالسلال، ويقف في مقابل غرفتها بائع متجول، ربما يبيعها شيئًا! لم يكن هناك ضجيج في صباح الإثنين، مثلما توقعت ليب كما هو الحال في إنجلترا. مر في طريقهم رجلٌ يحمل جوالًا يحني ظهره، تبادل

التحية مع السيد ثاديوس والأخت مايكل.

في أثناء سيرهم، قال الكاهن وهو ينظر في اتجاه الراهبة:

-السيدة رايت كانت تعمل مع الآنسة نايتنجيل.

-نعم، سمعت بذلك!

أردفت الراهبة بعد بُرهة:

-لا بد وأنك تمتلكين خبرة قوية في التعامل مع الحالات التي تتطلب التدخل الجراحي!

أومأت ليب بتواضع قدر المستطاع، أضافت: «لقد تعاملنا أيضًا مع عدد هائل من حالات الكوليرا والزُحار والملاريا، وبالطبع تعاملنا مع قرصات الصقيع في الشتاء». في الحقيقة، تقضي الممرضات الإنجليزيات معظم أوقاتهن في ترتيب مراتب الأسرة وطهي الطعام والوقوف عند أحواض الاستحمام. لكن ليب لم ترغب في أن تظن الراهبة أنها كانت تعمل بمهنة وضيعة؛ فالذي لا يفهمه أحد، هو أنه غالبًا ما يتطلب منهن إنقاذ الأرواح حتى تنظيف المِرحاض!

ليس هناك أي إشارة إلى وجود ساحة لسوق أو مساحة خضراء، كما تجد في إنجلترا، لا شيء يبدو جديدًا سوى مبنى تلك الكنيسة ناصعة البياض. قطع السيد ثاديوس الطريق من أمامها وسار في طريقٍ موحل حول منطقة المقابر، بدت شواهد القبور مغطاة بالطحالب وكأنها غُرست في الأرض بشكل عشوائي غير منُظم في صفوف. سألت ليب بفضول: «هل منزل عائلة أودونيل خارج القرية؟! وكأنها تستنكر لماذا لم تكن هذه العائلة على درجة كافية من الذوق حتى يرسلون سائقًا، تاركين الممرضات لتدبير أمرهن!

قالت الراهبة بصوتها الهامس:
-الطريق ليس بعيدًا.
أضاف الكاهن:
-ملاخي يحتفظ بالدابة.
كانت هذه الشمس الضعيفة تصدر حرارتها بشكلٍ أقوى مما ظنت ليب، فصارت تتعرق أسفل المعطف الذي ترتديه، سألت:
-كم طفلًا لديهم في المنزل؟
قال السيد ثاديوس:
-الفتاة فقط الآن، منذ رحل بات، ليباركه الرب.
-رحل إلى أين؟
ظنت ليب أنه أغلب الظن رحل إلى أميركا أو إنجلترا أو إحدى المستعمرات. يبدو أن أيرلندا، تلك الأم المتهورة تشحن نصف ذريتها المُعدَمين للخارج، وبدا لليب أن طفلين فقط في عائلة أودونيل هو رقم تافه تمامًا!
مروا بكوخٍ رديء الحال تعلوه مدخنة تنفث دخانًا، ثم انحرف الطريق باتجاه كوخًا آخر، فحصت ليب بعينيها هذا المستنقع لتبحث عن أية إشارة لمنزل عائلة أودونيل. تُرى هل كان مسموحًا أن تحصل ليب من الكاهن على معلومات أكثر من مجرد هذه الإجابات المقتضبة! لقد تم استئجار كلتا الممرضتين لتكوّن كلّ منهما تصورها الخاص، لكن ما فكرت به ليب هو أن هذه المسيرة القصيرة في الطريق، ربما تكون فرصتها الوحيد في الحديث إلى **(صديق العائلة المقرب)!**
-سيد ثاديوس، هل تسمح لي.. هل بإمكانك أن تشهد وتؤكد أمانة عائلة أودونيل؟
صمت الكاهن لبرهة ثم قال:

-بكل تأكيد، ليس لديّ أدنى شك في ذلك.

لم تتحدث ليب من قبل مع كاهن كاثوليكي، لذا لم تستطع فهم إجابته الدبلوماسية. أما الراهبة، فقد ثبّتت عينيها نحو الخُضار على مرمى البصر. أكمل السيد ثاديوس حديثه:

-ملاخي رجل قليل الكلام، ممتنع عن تناول المُسكِرات.

تفاجأت ليب بذلك! أردف الكاهن:

-لم يدخل فمه ولو قطرة خمر واحدة منذ قطع عهدًا بذلك، كان ذلك قبل أن يُنجب طفليه، أما زوجته فهي علامة مضيئة في الأبرشية(6) وتتخذ باجتهاد في أخوية السيدة العذراء(7).

لم تعنِ هذه التفاصيل ليب كثيرًا، فغيرت مسار الحديث وسألته:

-وماذا عن آنا أودونيل؟

-فتاة رائعة!

تُرى رائعة بأي معنى! فاضلة؟ أم استثنائية؟ يبدو أن هذه المُخادِعة سحرتهم جميعًا. نظرت ليب لجانب وجه الكاهن المليء بالمنحنيات وسألته:

-هل أشرت عليها من قبل بأن تمتنع عن الطعام؟ ربما كنوع من التدريبات الروحية!

لوّح بيده معترضًا:

-سيدة رايت، لا أظن أنك تنتمين لنفس عقيدتنا.

حاولت ليب انتقاء كلماتها، قالت:

-لقد تعمدتُ(8) في كنيسة إنجلترا.

بدت الراهبة وكأنها تراقب غرابًا مرّ من أمامهم، رغبةً منها في البقاء خارج هذا النقاش. قال السيد ثاديوس:

-حسنًا، دعيني أؤكد لك أننا في طائفة الكاثوليك نمتنع عن تناول الطعام فقط لعدد من الساعات، على سبيل المثال، منذ منتصف الليل وحتى التناول من القربان المقدس(9) في صبيحة اليوم التالي. كما نمتنع عن تناول اللحوم أيام الأربعاء وأيام الجمعة وفي أثناء الصوم الكبير. الصيام المعتدل يكبح شهوات الجسد. هل تفهمين ذلك؟

لقد تحدث بسلاسة كما لو كان يتحدث عن الطقس!

-هل تقصد الشهوة للطعام؟

-هذه واحدة من ضمن شهوات أخرى.

حوّلت ليب عينيها نحو الأرض الموحلة أمام حذائها. أكمل الكاهن حديثه:

-كما أننا بالصيام، نُعبر عن حزننا لآلام ربنا (المسيح) ونتشارك معه فيها ولو بجزءٍ ضئيل. ثم أردف:

-قد يكون الصيام نافعًا للتكفير عن الذنب.

سألت ليب:

-هل يعني هذا، إن عاقب الإنسان نفسه، تُغفر خطاياه؟

قالت الراهبة بصوتٍ خافت:

-بل وحتى ذويه.

أجاب الكاهن:

-تمامًا كما تقول الأخت الراهبة، وأضاف:

-إذا قبلنا الآلام بروحٍ راضية للتكفير عن ذنوب شخصٍ آخر.

تخيلت ليب سجلًا ضخمًا مليئًا بالديون والصكوك الممهورة بالحبر. أردف الرجل:

-لكن القضية هنا، ليس التطرف في الصوم لتلك الدرجة التي تؤذي الصحة.

صعب اصطياد رجل مراوغ. سألت ليب:

-إذنْ لماذا برأيك ذهبت آنا أودونيل إلى أبعد مما هو مُتبّع من قوانين في كنيستها؟

هز أكتافه العريضة وقال:

-كم كثيرة هي المرات التي تحاججت فيها معها طوال الشهور الماضية! ألحيّث عليها لتأخذ ولو قضمة من أي شيء، لكنها تصمُّ آذانها تمامًا.

تُرى ما الذي جعل هذه الآنسة المدلّلة تتمكن من جعل جميع البالغين من حولها يشاركون في هذا الخداع؟

تمتمت الأخت مايكل وهي تشير نحو نهاية الطريق المترامي:

-ها قد وصلنا!

بكل تأكيد هذه ليست الوِجهة المقصودة! هذا الكوخ يبدو بحاجة إلى طلاءٍ جديد لتبيضه، وتثبيت العارضة الخشبية التي تعلو النوافذ الزجاجية المربعة. على نهاية هذا السقف تقف بقرة منحنية لأسفل. في هذه اللحظة رأت ليب حماقة افتراضاتها أمام هذا المشهد، فطالما أن اللجنة هي التي استأجرت الممرضات، فهذا لا يعني بالضرورة أن ملاخي أودونيل ثريًا. يبدو أن كل ما يُميز هذه الأسرة عن باقي الفلاحين الذين يكدّون من أجل لُقمة العيش هو، ادعائهم بأن ابنتهم الصغيرة يمكن أن تعيش على الهواء.

نظرت ليب إلى سقف المنزل الهابط لأسفل وفكرت، إذا لم يتسرع دكتور ماكبرارتي في مراسلة صحيفة **التايمز الأيرلندية**، لم يكن لهذا الخبر

لينتشر خارج هذه الحقول الرطبة مطلقًا!

ثرى كم عدد **أصدقائه المهمين** الذين كانوا سيستثمرون أموالهم وكذلك أسمائهم في هذا المشروع الغريب؟ هل كانوا يراهنون أنه بعد أسبوعين، ستقسم الممرضتان بكل طاعة بحقيقة المعجزة، وجعل هذه القرية الصغيرة أعجوبة للعالم المسيحي؟ هل كانوا سيفكرون بالفعل في شراء التأييد والسمعة المصدّق عليها من قبل راهبة دير الرحمة وممرضة الآنسة نايتنجيل؟

مضى ثلاثتهم بمحاذة الطريق، جزعت ليب باشمئزاز من كومة الرّوث التي مروا بها أمامهم مباشرةً. جدران المنزل السميكة مائلة إلى الخارج، والجزء المكسور في النافذة مُغطى بقطعة قماش بالية. كان هناك نصف باب، فارغ من الجزء العلوي مثل كُشك الخيل. دفع السيد ثاديوس أسفل الباب مع نقرة خفيفة وأشار إلى ليب لتدخل أولًا.

ما أن دلفت ليب في الظلام، حتى هتفت بهم امرأة بلُغة لم تفهمها، تلفتت حولها لتستوعب الأمر؛ شعرت بأرض طينية أسفل حذائها، رأت امرأتان تضعان على رأسيهما القبعات الأيرلندية المزركشة، التي تبدو وكأنها تحجب الحرارة الخارجة من المدفأة. كوّمت المرأة الكبيرة الملابس في الحال ووضعتها بين ذراعي المرأة الأصغر، وأسرعت لتصافح الكاهن.

حادثها بنفس اللُغة - إنها الأيرلندية، لا بد أن تكون كذلك - ثم تحوّل إلى الحديث بالإنجليزية:

-روزالين أودونيل، أعلم أنك تقابلت بالأخت مايكل بالأمس.

رحبت المرأة بالراهبة بحرارة، وقالت:

-عمت صباحًا يا أختاه!

-وهذه السيدة رايت، إحدى ممرضات القرم الشهيرات.

هتفت باندهاش:

-يا إلهي!

كان للسيدة أودونيل أكتاف عريضة ونحيلة، عيناها كحجرين رماديين، وابتسامتها باردة كأنها محفورة في الظلام.

-لتباركك السماء على قدومك كل هذه المسافة يا سيدتي!

هل من المعقول أن تكون هذه المرأة جاهلة بما يكفي لتعتقد أن الحرب ما زالت مستمرة؟ هل تظن أن الحرب محتدمة في شبه جزيرة القِرم تلك، وأن ليب وصلت للتو، ملطخة بالدماء من جبهة القتال!

أومأت أودونيل برأسها نحو الباب الموجود على يمين المدفأة وقالت:

-كنت أود استقبالكِ في الغرفة الجيدة.. ما لم تكن للزائرين!

الآن بدأت ليب تسمع شيئًا، لقد استطاعت تمييز الصوت الخافت للترانيم. قال السيد ثاديوس مؤكدًا لها:

-نحن عظيمون هنا.

طلبت السيدة أودونيل بإلحاح:

-فلتجلسوا حتى نتناول كوبًا من الشاي على الأقل.

ثم أردفت:

-الكراسي جميعها في الداخل، ليس لدينا سوى هذه المقاعد الخشبية الصغيرة.. زوجي في الخارج يقوم بحفر التربة في أرض سيموس أولالور.

كانت السيدة أودونيل تُقرّب المقاعد الخشبية نحو النار لأجل استدفاء الضيوف. لكن ليب اختارت

مقعدًا وابتعدت به قليلًا عن المدفأة، وهذا ما جعل الأم تشعر بالاستياء؛ من الواضح أن المكان القريب من المدفأة يُقدّم لتكريم الضيوف! جلست ليب ووضعت حقيبتها في مكان بعيد نسبيًا عن المدفأة؛ حتى لا تذوب المستحضرات الطبية التي بحوزتها وتتحول لبركة من السوائل الذائبة.

رسمت روزالين أودونيل علامة الصليب وهي تجلس، وبالمثل فعل أيضًا الكاهن والراهبة. فكرت ليب أن تحذو حذوهم، ولكن لا، ستكون هذه بداية سخيفة إذا بدأت بتقليد السكان المحليين. بدأ صوت الترنيم الصادر من الغرفة المسماة «الغرفة الجيدة» يعلو، وأدركت ليب أن المدفأة تنفتح على كلتا جزئي المنزل، لذلك يتسلل الصوت من خلالها.

بينما كانت الخادمة ترفع غلاية المياه من على النار، كانت السيدة أودونيل والكاهن يتبادلان الحديث عن هطول المطر بالأمس، بالرغم من حرارة الصيف طوال العام بشكل غير معتاد! أما الراهبة تستمع للحديث فقط وتتجاوب ببعض الهمسات لتبدي الموافقة. في كل هذا، لم تُذكر كلمة عن الابنة.

كان زي التمريض مُحكمًا حول جسد ليب، وكممرضة أتت بغرض الملاحظة، ذكّرت ليب نفسها بأنه من غير المسموح إهدار الوقت. نظرت حولها، لاحظت وجود طاولة بسيطة أمام الجدار الخلفي الخالي من النوافذ، وخزانة عليها طلاء، جزءها السفلي به قضبان أشبه بقفص. كان هناك أيضًا بعض الأبواب الصغيرة داخل الجدار، تُرى هل هي خزانة مُدمجة في الحائط؟

وهنا ستار مسفر على الحائط مصنوع من أكياس الطحين القديم. تبدو بدائية نوعًا ما، لكنها نظيفة

على الأقل، ليست سيئة للغاية. أما غطاء المدخنة الأسود فكان قطعة من نسيج اللبّاد، وعلى جانبي المدفأة يوجد تجويفان على شكل مربع، خمّنت ليب أنه ربما لوضع صندوق الملح عاليًا. وأعلى المدفأة يوجد رف يحمل زوجًا من الشمعدانات النحاسية، وصليبًا عليه المسيح المصلوب(10)، وصورة صغيرة داخل إطار أسود خلف الزجاج.

-وكيف حال آنا اليوم؟

أخيرًا قالها السيد ثاديوس بينما يحتسون الشاي معًا، وبينهم الخادمة أيضًا!

قالت السيدة أودونيل وهي تنظر بقلق نحو **(الغرفة الجيدة)**:

-بخير، حمدًا لله.

تُرى هل كانت الفتاة تُشارك الزائرين في التراتيل؟

اقترح السيد ثاديوس قائلًا:

-ربما من الجيد أن تخبري الممرضات عن تاريخ الفتاة.

قالت المرأة بنظرة جامدة:

-بالتأكيد، وأيُّ تاريخ لطفلة كهذه!

التقت عينا ليب والأخت مايكل، ثم أخذت ليب المبادرة بالسؤال:

-إذنْ، كيف تصفين لنا صحة ابنتكِ حتى هذا العام سيدة أودونيل؟

-هي دائمًا كالزهرة الرقيقة، ليست متذمرة أو غضوبة. وإذا أُصيبت في أي وقت بدمامل أو قروح، تراها كلا شيء في سبيل إرضاء الله.

-وماذا عن شهيتها للطعام؟

-أوه، لم تكن شرهة للطعام أو تطلب الحلوى

مُطلقًا. هي كجوهرة ثمينة.
سألت الراهبة:
-وماذا عن حالتها الروحية؟
-ليس هناك مجال للشكوى من ذلك.
لم تُرض ليب هذه الإجابة الغامضة. سألت:
-هل تذهب أنا إلى المدرسة؟
-أوه، السيد أوفلاهرتي فقط لديه شغف بتعليمها!

أشارت الخادمة فجأة إلى رف المدفأة، حتى طرطش الشاي من فنجانها وهي تقول: «لقد فازت بميدالية، أليس كذلك»!

أومأت السيدة أودونيل كما لو كانت تحاول تجاهل كلامها: «نعم، هذا صحيح يا كيتي»!

بحثت ليب بعينيها عن الميدالية حتى وجدتها، كانت عبارة عن قرص برونزي صغير داخل غلبة، بجوار الصورة.

أردفت السيدة أودونيل:

-لكن بعد أن أُصيبَت بالشعال الديكي عندما ظهر في المدرسة العام الماضي، فكرنا في أن نحافظ على فتاتنا (Colleen) في المنزل، حتى نحميها من الأوساخ المنتشرة هناك والنوافذ المكسورة التي تسمح بدخول الأتربة.

كولين! يبدو أنه لقب يدعوا به الأيرلنديين كل أنثى صغيرة. أضافت الأم:

-هي تدرس بنفس الجدية في المنزل كما لو كانت في المدرسة، طالما أن الكتب حولها، فكما يقولون: «حيث يكون قلبك هناك بيتك»!

لم تفهم ليب المقصود من هذا المثل تمامًا، لكنها تعمقت أكثر في الأسئلة؛ بسبب شعورها أن كذبة أنا التي تتنافى مع العقل، ربما تكون مبنية على سبب

حقيقي ما:

-إذن، منذ مرضها، هل تعاني من أية اضطرابات في المعدة؟

كانت تُفكر في احتمالية أن السُعال الشديد ربما تسبّب في تمزق الأغشية الداخلية للطفلة. لكن السيدة أودونيل هزت رأسها بابتسامة باردة وأجابت بالنفي.

-هل هناك قيء؟ إمساك؟ إسهال؟

-ليس أكثر من مرة في الأوقات العادية.

-هل كان هذا حتى بلغت الحادية عشرة؟ لقد وصفتِها بأنها رقيقة، لا شيء أكثر من ذلك.

ضغطت المرأة شفتيها المُشققة معًا وقالت:

-منذ السابع من إبريل، أي قبل أربعة أشهر من الأمس. بين عشية وضحاها، قررت آنا أنها لن تتناول ولو قضمة ولن تشرب أي شيء سوى مياه الخالق!

اعترى ليب شعور شديد بالاستياء؛ إذا كان هذا حقيقي بالفعل، فأي نوع من الأمهات تكون هذه المرأة، حتى تتحدث عن ذلك بحماسة مثل هذه؟! لكنها ذكّرت نفسها، بالطبع هذا ليس حقيقيًا. إما أن روزالين أودونيل قد شاركت في هذه الخدعة، وإما أن الفتاة تمكّنت من خداع أُمّها، ولكن على أية حال، سواء كانت ساذجة أو مُشاركة في الأمر، ليس لدى المرأة سبب للشعور بالخوف على طفلتها.

-قبل عيد ميلادها، هل اختنقت في أثناء الطعام؟ أو أكلت أي طعام فاسد؟

اضطربت السيدة أودونيل وقالت:

-لا يوجد شيء فاسد في هذا المطبخ!

-هل ألحّيت عليها أن تأكل؟

-يا ليتها استجابت، كنت استرحت!

-ولم تذكر انا سببًا لرفضها الطعام؟

مالت المرأة واقتربت قليلًا، كما لو كانت ستخبرها سرًا:

-ليس هناك حاجة إلى ذلك!

سألت ليب:

-لم تكن بحاجة إلى توضيح السبب؟

قالت روزالين أودونيل وقد كشفت ابتسامتها عن أسنانها المفقودة:

-هي لا تحتاج إلى شيء.

سألت الراهبة، بصوتٍ مسموع بالكاد:

-تقصدين الطعام؟

قالت الأم:

-لا تحتاج ولا حتى إلى الفُتات، إنها معجزة حية!

يبدو أنها تدربت جيدًا على هذا التمثيل! إلا أن البريق الذي في عيني المرأة بدا بشكل كبير كدليل إدانة بالنسبة لليب. قالت:

-وأنتِ تدّعين أنه في خلال الأشهر الأربعة الماضية، استمرت ابنتك في صحة جيدة!

اعتدلت روزالين أودونيل في جلستها وثبتت عينيها نحو ليب وهي تقول:

-لم يعثر أحد على ادعاءات كاذبة ولا افتراضات وهمية في هذا المنزل يا سيدة رايت. صحيح هو منزل متواضع، لكن المذود(11) كان كذلك أيضًا.

ارتبكت ليب وهي تفكر، ماذا تقصد المرأة بالمذود! حتى أدركت أنها تعني: بيت لحم.

قالت روزالين:

-نحن أناس بسيطون، أنا وزوجي لا يمكننا تفسير ذلك، لكن ابنتنا الصغيرة تنمو بعناية خاصة من الله

القدير.

ثم أردفت وكأنها تناشد الراهبة، هل يستحيل على الله شيء؟

أومأت الأخت مايكل برأسها. وقالت بصوتٍ خافت:

-هو له طُرقُهُ العجيبة!

الآن أصبحت ليب شبه متأكدة، أنه لهذا السبب طالبت عائلة أودونيل بوجود راهبة، ولماذا أيدهم الطبيب في ذلك؛ كانوا جميعا يفترضون أن الراهبة العانس المكرّسة لخدمة المسيح، ستكون أكثر إيمانًا بالمعجزات من معظم الناس، - أكثر عمًى بالخرافات-، كما تُسميها ليب.

كان السيد ثاديوس يراقب الحديث بعينيه، قال:

-لكنكِ أنتِ وملاخي على استعداد للسماح لهؤلاء الممرضات الصالحات بالجلوس مع آنا لمدة أسبوعين كاملين، أليس كذلك يا روزالين، حتى تتمكنان من الإدلاء بشهادتهما أمام اللجنة؟

مدت السيدة أودونيل ذراعيها النحيلتين على وسعهما، وشالها المنقوش يكاد يسقط من على كتفها:

-نحن مستعدين وأكثر من مستعدين، حتى يتبرهن للجميع أننا أُناس صالحون مثل الآخرين، من كورك حتى بلفاست.

على الأغلب ضحكت ليب عند سماعها ذلك، أن تراهم مهتمون بسمعتهم في هذا الكوخ المتواضع كما لو كانوا من ساكني القصور! واصلت المرأة حديثها، «ماذا لدينا لنخفيه، ألم نفتح أبوابنا لكل المهنئين من كل أصقاع الأرض؟!

أثار كلامها الرنان تحفُّظ ليب.

بدأ القس بالقول:

على ذكر ما تقولين.. توقف ثم أردف «أظن أن ضيوفك يغادرون».

توقف الترتيل دون أن تُلاحظ ليب، كان الباب الداخلي مُعلقًا وبه شرخ يكشف مكان الفتاة، تقدمت ونظرت إلى الداخل من خلال فتحة الباب. ما يُميز **(الغرفة الجيدة)** عن المطبخ هو على الأرجح خلُوها من أي شيء؛ بصرف النظر عن نملية بها عدد قليل من الأطباق والأباريق خلف الزجاج، ومجموعة من الكراسي المصنوعة من الحبال، لم يكن فيها شيء آخر. توجّه حوالي ستة أشخاص نحو زاوية الغرفة التي لم تتمكن ليب من رؤيتها، أعينهم جاحظة، ولامعة كما لو كانوا يشاهدون عرضًا مبهرًا! حاولت جاهدة أن تلتقط بعض الكلمات من همهماتهم، سَمِعتهم يتهامسون:

-شكرًا لكِ يا آنِسة!

-هاتان بطاقتان لتضيفهما لمجموعة البطاقات المقدسة التي بحوزتك.

-اسمحي لي أن أترك لكِ قارورة الزيت هذه، لقد باركها ابن عمي من قداسته في روما.

-هذه باقة زهور، هي كل ما أملك! قطفتها اليوم من حديقة المنزل.

-هل قبّلت الطفلة قبل أن نُغادر؟

هرولت هذه السيدة الأخيرة نحو ركن الغرفة وفي يدها باقة الزهور.

-يا لها من خسارة كبيرة إن لم تُلقي نظرة على هذه (المعجزة غير العادية)! ألم يُسميها هكذا فلاحي المزرعة في دكّان المشروبات الروحية بالأمس! نعم، لا بد أن هذا هو الشيء الذي كانوا يهذون به، ليست بقرة برأسين، بل أنا أودونيل (المعجزة الحية). من

الواضح أنهم يسمحون لهذه الحشود بالدخول كل يوم، والسجود عند قدميَ هذه الطفلة. يا له من ابتذال!

واحد من بين هؤلاء المزارعين قال شيئًا خبيثًا عن **(الفريق الآخر)**، كيف **(ينتظرون عند قدميها)**. لا بد أنه يقصد هؤلاء الزائرين المتحمسين للمس الطفلة. ترى في ظنهم ماذا كانوا فاعلين، رفع فتاة صغيرة لمصاف القديسين، لتصورهم أنها تسمو فوق الاحتياجات الطبيعية للبشر؟ لقد ذكّروا ليب بالمسيرات التي كانت تُقام في بلدها، حيث يلبسون التماثيل ملابس فاخرة ويتجولون بها في الأزقة التي تفوح منها رائحة كريهة.

جميع الزائرين يتحدثون باللغة الأيرلندية، يبدو أن السيدة أودونيل كانت تبالغ فيما يتعلق بأن الناس تأتي من **(جميع أصقاع الأرض)**! انفتح الباب على مِصراعيه الآن، لذا تراجعت ليب إلى الخلف.

اختلط الزائرين بعضهم بعضًا. تقدم رجل يرتدي قبعة مستديرة، وقدّم عملة معدنية لروزالين أودونيل وهو يقول:

-سيدتي، نحن نسبب لكم الإزعاج!

-آها.. المال أصل كل الشرور!

كان المشهد يشبه هؤلاء السياح الأثرياء، الذين يدفعون لرجل فلاح لكي يقف حاملًا كمانًا نصف معلق عند باب منزله الطيني المتواضع. لا بد وأن تكون عائلة أودونيل طرفًا في هذا الاحتيال، والدافع الأكثر احتمالًا هو المال. هكذا قررت ليب.

لكن الأم وضعت يديها خلف ظهرها وقالت:

-بكل تأكيد ليس هناك أية مشكلة في ضيافتكم.

قال الزائر:

-إذن لأجل الفتاة الجميلة.
ظلت روزالين أودونيل تهز رأسها. قال الرجل:
-أنا مُصرّ.
أومأت برأسها إلى خزنة حديدية موضوعة على كرسي بجانب الباب، وقالت:
-ضعه في صندوق الفقراء يا سيدي، إذا كان عليك أن تتركه.
وبّخت ليب نفسها لعدم اكتشاف ذلك في وقت سابق! قام جميع الزائرين بوضع العملات في فتحة الخزنة وهم في طريقهم للخروج. شعرت ليب أن بعض تلك العملات المعدنية كانت ثقيلة، مما يعني ارتفاع قيمتها. من الواضح أن الجميع ينجذبون لهذه الفتاة الرعناء مثلما ينجذبون إلى أي صليب أو تمثال لأحد القديسين. شكّت ليب بشدة في أن تمِنّ عائلة أودونيل ولو بقرش واحد لأولئك الأقل حظًا منهم.
بينما تنتظر ليب حتى ينتهي هذا الجمع من الخروج، وجدت نفسها قريبة بما يكفي من الرف الذي يعلو المدفأة، وكانت هذه فرصة سانحة لدراسة تلك الصورة الفوتوغرافية القديمة. صورة غامضة، ويبدو أنها أُخذت قبل أن يهاجر الابن. تظهر روزالين أودونيل مثل بعض الأشباح، والصبي المراهق النحيل يتكيء بشكل غير متناسب في حضنها، الفتاة الصغيرة تجلس منتصبة على حجر والدها. حدّقت ليب من خلال الزجاج اللأمع. كان لدى آنا أودونيل شعر داكن مثل شعر ليب تقريبًا، يصل حتى الكتفين. لكن ليس هناك شيء مختلف يميزها عن أي طفل آخر.
قالت روزالين أودونيل للأخت مايكل:

-اذهبي إلى غرفتها الآن حتى أحضرها.

تيبّست ليب من الصدمة. كيف تخطط المرأة لتجهيز ابنتها قبل عرضها على الفحص! فجأةً، لم تعد قادرة على تحمل الدخان المتصاعد من العشب. تمتمت بشيءٍ ما عن حاجتها إلى استنشاق الهواء وخرجت إلى ساحة المزرعة. أسندت كتفيها إلى الخلف، واستنشقت الهواء، فإذا بها تشمُّ رائحة الروث! إذا بقيت، فسيكون ذلك فقط قبولاً للتحدي؛ للكشف عن محاولة الاحتيال المثيرة للشفقة هذه. لا يمكن أن يحتوي هذا الكوخ على أكثر من أربع غرف، لذا، قدّرت في ظنها أن الأمر لن يستغرق أكثر من ليلة واحدة لتكشف الأمر. لا بد وأن هذه الفتاة تسرق الطعام، سواء كانت تفعل ذلك بمفردها أو معها من يساعد. كالسيدة أودونيل، أو «زوجها» مثلًا، وربما تكون الخادمة التي يبدو أنها خادمتهم الوحيد، أو جميعهم بالطبع!

هذا يعني أن ليب ستجني من الرحلة بأكملها أجر يوم واحد فقط. لكن لو ممرضة أخرى أقل أمانة، فبالطبع لن تتحدث حتى انتهاء مدة الأسبوعين كاملين، حتى تضمن الحصول على أجر الأيام الأربعة عشر كاملة. في حين أن مكافأة ليب ستكون في رؤية المنطق يسود على الهراء!

كان الكاهن ذو الخدود الوردية يقف خلفها، قال:

-من الجيد أن أطمئن بالسؤال على بعض الآخرين من رعيتي.. لقد طلبت الأخت مايكل أن تأخذ فترة المراقبة الأولى، إذ لا بد وأنك تشعرين بالإجهاد من آثار رحلتك الطويلة؟

قالت ليب:

-لا، أنا على أتمّ الاستعداد للبدء الآن!

كانت ليب في الحقيقة تتوق إلى رؤية الفتاة وجهًا

لوجه. قالت الراهبة وهي تهمس بصوتها الخافت:

-كما تفضلين يا سيدة رايت.

سأل السيد ثاديوس:

-إذن سوف تعودين بعد ثماني ساعات، يا أخت مايكل؟

-راجعته ليب قائلة:

-اثنتا عشرة ساعة.

-أعتقد أن ماكبرارتي اقترح مناوبات عمل مدتها ثماني ساعات، على اعتبار أنها أقل إرهاقًا!

-إذا فعلنا ذلك، سنكون أنا والأخت مايكل في مناوبات مرهقة بشكل غير منتظم، من خلال تجربتي في جناح التمريض، التبديل بين مناوبتين أكثر ملاءمة للنوم من ثلاثة.

قال السيد ثاديوس:

-لكن للوفاء بشروط المراقبة، سوف تضطرين إلى البقاء إلى جانب أنا في كل ثانية من الوقت، وثماني ساعات تبدو طويلة جدًا.

عندها فقط فكرت ليب في شيء آخر، إذا كانت مدة المناوبة اثنتي عشرة ساعة، وبدأت هي بالمناوبة الأولى، هذا يعني أن الأخت مايكل ستقوم بمراقبة الفتاة في أثناء الليل، وربما تُتاح للفتاة فرصة أكبر لسرقة الطعام. كيف يمكن لليب أن تعتمد على راهبة أفنت معظم حياتها في بعض الأديرة في بلدتها، لتكون منتبهة تمامًا مثلها؟ حسبت الأمر برأسها وقالت:

-حسنًا، ثماني ساعات إذن. ونقوم بالتبديل في الساعة التاسعة مساءً، والخامسة صباحًا، والساعة الواحدة على سبيل المثال بعد الظهر.. أليس كذلك يا أخت مايكل؟ ربما تكون هذه الأوقات أقل إزعاجًا

للأسرة.

سألت الراهبة:

-حتى الساعة الواحدة إذن؟

قالت ليب:

-أوه، بما أننا بدأنا للتو، في منتصف الصباح، يُسعدني أن أبقى مع الفتاة حتى التاسعة مساءً.

كان ذلك لتبدأ ليب بأول مناوبة في يوم طويل، حتى يتسنى لها تجهيز الغرفة وتحديد عملية المراقبة بحسب رغبتها. أومأت الأخت مايكل برأسها وانسلّت لتتوارى بعيدًا في طريق العودة نحو القرية. تساءلت ليب كيف تتعلم الراهبات تلك المشية الغريبة؟ ربما يكون الأمر مجرد خداع بصري بسبب الجلباب الأسود الذي يمسح العشب في أثناء سيرهن!

قال السيد ثاديوس وهو يرفع قبعته:

-حظًا موفقًا يا سيدة رايت!

حظا كما لو كانت خارجة من سباق. استجمعت ليب قوتها ودخلت المنزل، وإذ بالسيدة أودونيل والخادمة ترفعان ما يشبه عفريت رمادي ضخم على خطاف! تفحصته ليب بعينيها، وتبيّنت أنها جرةً حديدية. أدارت الأم الوعاء فوق النار ومالت برأسها نحو باب نصف مفتوح على يسار ليب وقالت، «لقد أخبرت آنا بكل شيء عنكِ».

أخبرتها بماذا، أن السيدة رايت آتية عبر البحار لتتجسس عليها! هل تدربت هذه المرأة البائسة على أفضل الطرق لخداع المرأة الإنجليزية كما فعلت مع العديد من البالغين الآخرين؟

كانت غرفة النوم عبارة عن حجرة مربعة خالية من أية زخارف. تجلس فتاة صغيرة ترتدي ثيابًا

رمادية، على كرسي مستقيم الظهر، بين النافذة والسرير، تبدو وكأنها تستمع لبعض الموسيقى الخاصة. شعرها أحمر داكن، لم يظهر بنفس اللون في الصورة. عند سماعها صرير الباب نظرت إلى أعلى وارتسمت ابتسامة جامدة على وجهها.

ذكّرت ليب نفسها بأنها فتاة خبيثة. وقفت الفتاة ومدت يدها، صافحتها ليب، وشعرت ببرودة أصابعها الممتلئة عندما لمستها:

-كيف حالك اليوم يا أنا؟

قالت الفتاة بصوت خفيض وواضح:

-حسنًا جدًا يا آنسة.

صحّحت لها ليب قائلة:

-الممرضة، أو السيدة رايت، أو سيدتي، إذا كنت تفضلين.

لم تستطع التفكير في شيء آخر لتقوله، وصلت إلى حقيبتها، أخذت دفتر اليوميات الصغير وشريط القياس، بدأت في تدوين الملاحظات، لتفرض شيئًا من المنهجية في هذا الوضع غير المتناسق:

= الإثنين/ 8 أغسطس 1859/ الساعة 10:07 صباحًا

*** طول الجسم: 46 بوصة.**

*** اتساع الذراعين: 47 بوصة.**

*** مقاس الجمجمة من أعلى الحاجبين: 22 بوصة.**

*** الرأس من الجبهة إلى الذقن: 8 بوصات.**

تصرفت أنا أودونيل بالتزام تام؛ وقفت بشكل مستقيم للغاية في ثوبها البسيط وحذائها الكبير المثير للفضول، تفاعلت مع كل وضع كما لو كانت تتعلم خطوات رقصة جديدة؛ حتى تتمكن ليب من أخذ كل قياساتها. من الممكن وصف وجهها تقريبًا

بأنه ممتلئ، وهو ما يلفت الانتباه لقصة الصيام على الفور. عيون عسلية كبيرة وجاحظة قليلًا أسفل الجفون المنتفخة، بياض العين لامع كالخزف، حدقة العين متسعة، قد يُعزى ذلك إلى ضعف الضوء في الغرفة، لا بد من وجود نافذة صغيرة مفتوحة على الأقل، لتسمح بمرور الهواء في فصل الصيف. (في المشفى، بغض النظر عما تراه ليب، تتشبث رئيسة الممرضات بفكرة قديمة مفادها، أنه يجب أن تظل النوافذ مغلقة منعًا لدخول ملوثات الهواء الضارة).

تبدو الفتاة شاحبة جدًا، ولكنها بشرة الأيرلنديين بوجه عام، خاصة ذوي الشعر الأحمر، الذي يجعله الطقس خشنًا مع الوقت. الآن، يوجد شيء غريب، دقيق جدًا، عديم اللون له أثر على الخدين. بالأخير. كذب الفتاة بشأن عدم تناول الطعام لم يمنع وجود بعض المشاكل الصحية الحقيقية. سجلّت ليب كل شيء.

تعتمد بعض ممرضات الآنسة «ن» بشكل كبير على تدوين الملاحظات، مما يضعف قدراتهن على الاستذكار. ومع ذلك، لم تصل ليب لدرجة الاستغناء عن استخدام دفتر الملاحظات تمامًا. ورغم أنها لا تشك في قوة ذاكرتها الخاصة، لكن مع هذه الحالة، قد يساعدها استخدام دفتر الملاحظات بشكل كبير كمراقبة، إذ يتطلب ذلك وجود ملاحظات لا تشوبها شائبة.

شيءٌ آخر هو ظهر على آنا، أن طرف أُذنيَها وشفتيها يبدو عليهم الازرقاق، وكذلك أظفار أصابعها، تشعر ببرود عند لمسهم، كما لو أنها عادت للتو من السير في قلب عاصفة ثلجية. سألتها ليب:

-هل تشعرين بالبرد؟

فأجابت انا:

-ليس تمامًا.

واصلت ليب تدوين الملاحظات:

*** عرض الصدر عند مستوى الثدي: 10 بوصات.**

*** طول الأضلع 24 بوصة.**

قالت الفتاة وهي تتابعها بعينيها:

-ما اسمُك؟

قالت الآنسة رايت:

-كما ذكرت من قبل، اسمي السيدة رايت، ولكن يمكنك أن تناديني بالممرضة.

-أقصد اسمكِ بعد المعمودية.

تجاهلت ليب هذا السؤال واستمرت في الكتابة.

*** محيط الفخذين: 25 بوصة.**

*** محيط الخَصر: 21 بوصة.**

*** محيط منتصف الذراع: 5 بوصات.**

لِم هذه الأرقام؟

قالت ليب:

-هي لأجل... حتى نتأكد من أنكِ بصحة جيدة!

إجابة سخيفة، لكن السؤال أربكها. كما أنه بالتأكيد خرق للبروتوكول أن تناقش تفاصيل الملاحظات مع الحالة موضع الفحص. حتى الآن، تشير البيانات في دفتر الملاحظات إلى صدق توقعات ليب، بأن آنا أودونيل فتاة كاذبة ومُخادعة. نعم، تبدو هزيلة في بعض الأماكن من جسدها؛ فعظام الكتف على سبيل المثال نحيفة جدًا. لكنها ليست بالطبع كما الحال مع طفل بعد شهر من الصيام وليس أربعة أشهر! ليب تعرف مظاهر الجوع جيدًا؛ في سكوتاري، كان اللاجئون هزيلين وتظهر على أجسامهم علامات الجوع بوضوح، إذ يمكن رؤية العظام تحت الجلد.

لا، هذه الفتاة ليست كذلك، فبطنها منتفخًا، في هذه الأيام، تشُد السيدات الأنيقات خصرهن على أمل أن يكون لديهن خصر بمحيط ستة عشر بوصة، ولكن آنا لديها بطن منتفخ أكثر من ذلك بخمس بوصات!

ما تود ليب معرفته حقًا هو وزن الطفلة، لأنه في حال زيادة وزنها حتى ولو أونصة واحدة في خلال فترة الأسبوعين، فسيكون ذلك دليلًا على أنها تأكل في الخفاء. خطت ليب خطوتين نحو المطبخ لتجلب الميزان، ثم تذكرت أنها مُلزمة بأن تُبقى هذه الطفلة في مرأى العين طوال الوقت، حتى الساعة التاسعة مساءَ هذه الليلة.

شعور غريب بالقيد انتاب ليب. فكرت في مناداة السيدة أودونيل من داخل غرفة النوم، لكنها لم ترغب في ذلك حتى لا تبدو متغطرسة، خاصةً وهي ما زالت في بداية مناوبتها الأولى.

تمتمت آنا:

-احذر التقليد الزائف!

قالت ليب:

-أستميحكِ عذرا؟

كانت الفتاة تضع طرف أحد أصابعها المستديرة فوق الكلمات المطبوعة على الغلاف الجلدي المُضلع لكتاب المذكرات. نظرت لها نظرة قاسية وقالت: «تقليد زائف بالفعل»!

قالت الفتاة:

-يدعي المصنعون أن ورقهم المخملي مختلف عن أي ورق آخر.

-لكن ما هو الورق المخملي؟

-إنه ورق مُغطى بطبقة من الطلاء ليظهر بلون الرصاص المعدني.

طرقت الفتاة على الصفحة الصغيرة، قالت ليب:

-أي شيء مكتوب عليه لن يمحى، مثل الحبر. ثم سألتها: «هل تعرفين ما معنى لا يُمحى؟

-وصمة لن تزول!

-نعم، هذا صحيح.

استعادت ليب دفتر الملاحظات وحاولت التفكير في أية معلومات أخرى قد تحتاج إلى الحصول عليها من الفتاة. سألتها:

-هل تشعرين بعدم الارتياح من أي ألم يا آنا؟

-لا.

-شعور بالدوار؟

اعترفت آنا:

-ربما في بعض الأوقات.

-هل تشعرين بتوقف نبضك أحيانًا أو سرعته عن المعتاد؟

-في بعض الأيام قد أشعر بالخفقان قليلًا.

-هل أنتِ متوترة؟

-متوترة من ماذا؟

-أن يتم اكتشافكِ أيتها المحتالة! لكن ما قالته ليب هو: «ربما لأنني أنا والأخت مايكل غرباء في منزلك».

هزت آنا رأسها وهي تقول:

-يبدو لي أنك إنسانة لطيفة. لا أعتقد أنك ستفعلين بي أي سوء!

-هذا صحيح تمامًا!

لكن ليب شعرت بعدم الارتياح، كما لو أنها وعدت الطفلة بأكثر مما ينبغي؛ فهي لم تأت إلى هنا لتكون لطيفة. الآن، أغمضت الطفلة عينيها وبدأت تتمتم.

بعد لحظات فهمت ليب أنها لا بد أن تكون صلاة؛ كنوع من إظهار التقوى، لتجعل هذا الهراء أكثر منطقية! انتهت الفتاة ونظرت إلى الأعلى، وتعبيرات وجهها هادئة كما هي دائمًا. قالت ليب:

-افتحي فمك من فضلك.

وجدت أسنانها لبنية على الأغلب. فقط واحد أو اثنان من أسنان البالغين، وعدة فجوات حيث لم يتم التبديل بعد. فمها مثل فم طفل أصغر سنًا بكثير. راحت تدون:

*** عدة أسنان بها تسوس! النفس رائحته حامضية قليلًا.**

*** اللسان نظيف، لكنه محمر إلى حدٍّ ما وناعم.**

*** اللوزتان متضخمتان قليلًا.**

لا توجد قُبّعة تغطي شعر آنا البني الداكن، لكن يوجد فرق من منتصف الرأس والشعر كله مسحوب للخلف ومربوط على شكل كعكة صغيرة. حلّت ليب شعر الفتاة وتحسسته بأصابعها، فبدا عند لمسه كخيوط جافة ومجعدة. بحثت عن شيء مخفي في فروة الرأس، ولم تجد إلا دبوس شعر خلف إحدى الأذنين. قالت ليب بعدما انتهت:

-يمكنك ربط شعرك مرة أخرى.

تحسست آنا بأصابعها مكان دبابيس الشعر. شرعت ليب في مساعدتها، ثم تراجعت؛ فهي لم تأت إلى هنا لرعاية فتاة أو لتكون خادمة لها. هم يدفعون لها أجرًا فقط من أجل المراقبة. أخذت تكمل تدوين ملاحظاتها:

*** غير مستقرة قليلًا.**

*** الانفعالات العصبية طبيعية، ولكنها بطيئة قليلًا.**

*** أظفار الأصابع متعرّجة إلى حدٍّ ما وبها بُقع بيضاء.**

*** كما أن راحتيْ اليدين والأصابع منتفختين بشكل واضح.**

ثم قالت:

-اخلعي حذاءك من فضلك.

قالت آنا وهي تطيع الأمر:

-هذا الحذاء كان لأخي.

سجلَت ليب أن **(القدمين والكاحلين والساقين السفليتان منتفخين للغاية)**. فلا عجب أن تلجأ آنا إلى استخدام حذاء أخيها المهاجر المهمل. ربما يكون تفسير ذلك هو الاستسقاء، وتجمُّع المياه في الأنسجة! سألت الفتاة:

-منذ متى وقدميكِ على هذا الحال؟

هزت الفتاة كتفيها.

حيث مكان ربط الجوارب أسفل الركبتين، توجد علامات غائرة. الشيء نفسه مع ظهر الكعب. لقد رأت ليب هذا النوع من التورم لدى النساء الحوامل، وفي بعض الأحيان في الجنود المسنين. غرزت إصبعها في ساق الفتاة، فشعرت كأنها نحّات يشكل جسدَ طفل من الطين. رفعت إصبعها وبقيت المكان مجوفًا للداخل، سألتها: «هل يؤلمك هذا؟

هزت آنا رأسها.

حدّقت ليب إلى الساق المتورمة، ربما ليس شيئًا خطيرًا، ولكن بالتأكيد يوجد شيءٌ ما خطأ في هذه الطفلة. خلعت ملابس الفتاة قطعة تلو الأخرى؛ حتى لو على افتراض أنها محتالة، فليس هناك داعٍ لإذلالها! ارتعشت الفتاة، وعلى ما يبدو ليس بسبب الإحراج، بل لشعورها بالبرودة كما لو كانت في شهر يناير وليس أغسطس.

رصدت ليب **(بعض علامات البلوغ على الفتاة)**:

تبدو أنا مثل طفلة تبلغ من العمر ثمانية أو تسعة أعوام وليس أحد عشر عامًا. **(ختم تطعيم الجدري يوجد أعلى الذراع)**، بشرتها بيضاء مثل الحليب لكنها جافة الملمس، وبنية وخشنة في بعض المناطق. كما يوجد كدمات على ركبتيها، وهذا شائع في الأطفال. لكن تلك البقع الصغيرة على ساقي الفتاة، زرقاء.. أو حمراء! لم تر ليب مثلها من قبل. لاحظت أيضًا وجود شعر دقيق على ساعدي الفتاة، وظهرها، وبطنها، وساقيها؛ تشبه صغار القردة. هل هذا الشعر شائع بين الأيرلنديين، أم هي مجرد صدفة؟ تذكّرت ليب رسوم الكاريكاتير في الصحافة الشعبية التي تصوّرهم كصغار القردة.

ثم تذكرت أن تفحص عضلة الساق الخلفية مرة أخرى، العضلة اليسرى كانت مسطحة مثل الأخرى. الآن، بعد أن ألقت ليب نظرة على ملاحظاتها، وجدت بضعة تناقضات. نعم هي مُقلِقة، ولكن لا تدعم مزاعم عائلة أودونيل المبالغ فيها بشأن صوم ابنتهم الذي دام لأربعة أشهر.

والآن، أين يمكن لهذه الطفلة أن تخفي طعامها؟ ضغطت ليب على كل طبقات ثياب آنا وتنورتها الداخلية، وتحسست الجيوب، كانت ملابس الفتاة مرتُقة في كثير من الأجزاء ولكن بشكل غير قبيح؛ إنه نوع مُحتشم من الفقر. لقد فحصت كل جزء من جسد الفتاة يُحتمل أن يكون ولو مخزن صغير لتخزين الطعام، من تحت الإبطين إلى فتحات جسدها، حتى بين أصابع القدم المتورمة. ليس هناك أثر لفُتاتة واحدة!

لم تحتج أنا أو تعترض على شيء. فقط بدأت تهمس سرًا مرة أخرى الان، بعد أن أغمضت عينيها وكأن رموشها مستندة على خديها. حاولت ليب

أن تتبيَّن أي كلمة من تمتمة آنا، لكنها لم تتمكن سوى من سماع كلمة واحدة تكررت كثيرًا، تقريبًا... دوروثي، هل يمكن أن تكون هي؟ يتضرع الكاثوليك دائمًا إلى العديد من القديسين؛ ليتشفَّعوا لأجلهم أمام الله بخصوص أمورهم البسيطة. عندما شعرت أن الفتاة انتهت من صلاتها، سألتها ليب:

-هل هناك قديسة تُدعى دوروثي، هذه التي كنت تكررين اسمها؟

هزت الفتاة رأسها لتقول نعم. قالت ليب

-هيا الآن يا آنا، أليس المفترض بنا أن نصبح أصدقاء؟

شعرت ليب بالندم في الحال بعد أن قالت ذلك، إذ رأت وجه الفتاة المستدير يتوهج فرحًا وقالت:

-أتمنى ذلك!

-إذن أخبريني عن تلك الصلاة التي أسمعك تتمتمين بها مرارًا وتكرارًا.

-هذه الصلاة... لا يمكنني الحديث عنها!

-أتقصدين أنها صلاة سرية؟

راجعتها آنا وقالت:

-صلاة خاصة.

الفتيات الصغيرات -حتى البريئات- يحببن الاحتفاظ بأسرارهن. تذكرت ليب أختها التي كانت تحتفظ بمذكراتها مخبأة تحت الفراش، (لكن بالطبع لا يعني ذلك أن ليب امتنعت عن قراءة كل كلمة -حتى الكلام العادي- منها). ربطت ليب أجزاء سماعة الطبيب معًا، ضغطت على الجانب الأيسر من صدر الطفلة المسطح، ما بين الضلع الخامس والسادس، ووضعت الطرف الاخر على أذنها اليمنى، سمعت.. بوم.. بوم.. بوم.. بوم..

لقد استمعت إلى أصغر اختلاف في صوت نبضات القلب لمدة دقيقة كاملة، أحصتها جميعًا بواسطة الساعة المعلقة عند خصرها، ثم سجلت:

*** النبض جيد، 89 نبضة في الدقيقة. وذلك ضمن المستوى الطبيعي.**

نقلت ليب السماعة إلى مناطق مختلفة على ظهر الفتاة. ثم سجلت:

*** رئتان بصحة جيدة، 17 نفسًا في الدقيقة. لا يوجد خشخشة أو صفير.**

على الرغم من أعراضها المرضية الغريبة، بدت آنا أكثر صحة من نصف مواطنيها!

الجلوس على الكرسي فقط - هذا ما تدرّب الآنسة «ن» ممرضاتها عليه دائمًا، وذلك لكسر عادة الجلوس على سرير المريض. وضعت ليب الجهاز على بطن الفتاة، حاولت الاستماع لأقل قرقرة قد تُظهر وجود الطعام. حاولت في مكان آخر ولا شيء سوى السكون. كتبت:

*** التجويف البطني قاسٍ، يشبه الطبل.**

طرقت على بطن الفتاة بخفة، سألتها:

-بماذا تشعرين؟

قالت آنا:

-بالامتلاء.

حدقت ليب إليها. ممتلئة، والبطن يبدو فارغًا تمامًا؟! هل هذا مجرد تحمُّل؟

-ممتلئة بشكل غير مريح؟

-لا!

-يمكنك ارتداء ملابسك الآن.

ارتدت آنا ملابسها ببطء وهي تشعر بالحرج قليلًا.

أضافت ليب في التقرير:

*** النوم جيد في الليل، لمدة سبع إلى تسع ساعات.**

*** تبدو القدرات الذهنية سليمة.**

-هل تفتقدين الذهاب إلى المدرسة يا فتاة؟

لم تحصل ليب سوى على هزة بالرأس. ولاحظت أن قطة عائلة أودونيل المدللة لم تتوقع أن يُطلب منها المساعدة في أعمال المنزل.

-ربما تفضلين الجلوس بلا عمل!

أجابت الفتاة دون انفعال أو دفاع:

-أنا أقرأ، وأقوم بتطريز الثياب، وأُرتّل وأصلي.

توصي الآنسة نايتنجيل دائمًا بعدم مصارحة المريض، لكي لا يؤثر ذلك على صحته. ولم يكن من اختصاص ليب أن تواجه الفتاة بحقيقة الموقف، ولكنها قررت أنه بإمكانها على الأقل أن تحدثها بصراحة، أرادت أن تفعل شيئًا حقيقيًا لهذه الفتاة الصغيرة، لتكون بمثابة مصباح يُضيء لها طريقًا للخروج من هذه البرية التي ضلّت فيها. أغلقت دفتر الملاحظات، وسألت:

-هل تعرفين لماذا أنا هنا؟

-لتتأكدي من أنني لا آكل!

حاولت بجميع الطرق أن تعبر بصراحة غير جارحة، قالت: «لا على الإطلاق يا آنا! مهمتي.. قالت في نفسها **(كشف حقيقة إذا كنتِ لا تتناولين الطعام)**. بدلاً من ذلك، قالت: ولكنني سأشعر بارتياح أكثر إذا تناولت طعامك كما يفعل الأطفال الاخرون، وكل الأشخاص الاخرين».

فقط أومأت برأسها.

-هل هناك أي شيء تفضلينه؟ مرقة، حلوى الساجو، أي شيء حلو؟

كانت ليب تطرح سؤالًا محايدًا للطفلة، وأقنعت نفسها بأنها لا تحاول إجبارها على تناول الطعام بطريقة تؤثر على نتيجة الملاحظة.

-لا، شكرًا لكِ.

-لم؟

ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه الفتاة وقالت:

-لا أستطيع أن أقول يا آنسة.. ثم راجعت نفسها وقالت «يا سيدتي».

-لماذا؟ هل هذا أيضًا خاص بكِ؟

نظرت الفتاة إليها بلطف. فهِمت ليب أن الأمر واضح كالشمس، إذا قالت أي شيء سيضعها ذلك في مأزق؛ فإذا ادّعت أن خالقها أمرها بعدم تناول الطعام، فستقارن نفسها بالقديسين. وإذا تفاخرت بأنها تعيش بدون أي وسائل طبيعية معينة، ستكون مضطرة لإثبات ذلك بطريقة يقبلها العلم. **(سأكشف أمركِ يا صغيرة)!**

نظرت ليب حولها، فكرت أنه حتى اليوم لا بد أن الأمر كان مجرد لُعبة من طفلة، تقوم آنا بتمرير الطعام إليها من المطبخ المجاور في أثناء الليل، أو يقوم أحد الكِبار في الأسرة بإحضاره دون أن يسمع الآخرون شيئًا. قالت: «ماذا عن خادمتك..»!

قالت آنا بينما تأخذ شالًا مزركشًا من الخزانة، أضفى لوناه الأحمر والبني الزاهيان قليلًا من الوهج على وجهها، كيتي؟ إنها ابنة عمي»!

علاقة الخادمة بآنا ليست قوية، لكن من الصعب لمثل هذه التابعة أن ترفض المشاركة في المؤامرة. سألت: «تُرى أين تنام؟

أومأت آنا برأسها نحو المطبخ، وأشارت إلى أريكة خشبية.

هذا هو المتوقع! غالبًا ما يكون عدد أفراد الأسرة في الطبقات الدنيا من المجتمع، أكبر ممّا لديهم من أسّرة، ولذلك يضطرون لتسوية الأمر بأي شكل.

-وأين ينام والديك؟

-ينامون في الخارج.

لم تفهم ليب، فقامت الطفلة بالتوضيح:

-سرير موجود خارج الكوخ، خلف ستار.

لقد لاحظت ليب وجود ستائر مصنوعة من أكياس الدقيق في المطبخ، لكنها افترضت استخدامها كغطاء لمخزن طعام أو ما شابه. كم هو مثير للسخرية أن تترك عائلة أودونيل **(الغرفة الجيدة)** فارغة ليناموا في غرفة جانبية كهذه! لكنها افترضت أن لديهم ما يكفي من الاحترام ليطمحوا إلى المزيد!

هم يستخدمون غرفة النوم الضيقة هذه، كأداة لاستبعاد فكرة وجود تحايل في الأمر. لمست بيدها الحائط، فتقشرت على أصابعها طبقة الطلاء البيضاء، غالبًا من الجص، ليس من الطوب، أو الحجر، أو الخشب، كالأكواخ الإنجليزية. حسنًا، على الأقل سيكون معنى ذلك أنه من السهل اكتشاف أي تجويف يمكن تخزين الطعام به. وكان عليها أيضًا التأكد من عدم وجود مكان تستطيع الطفلة أن تختبئ به من أنظارها؛ لذلك يجب أن يختفي هذا الفاصل الخشبي القديم المتهالك، وكبداية، قامت بطي أجزاءه الثلاثة معًا وحملته إلى الباب.

نظرت إلى الخارج دون أن تترك غرفة النوم؛ رأت السيدة أودونيل تقوم بتقليب ما بداخل وعاء ذي ثلاث أرجل فوق النار، أما الخادمة فكانت تهرس شيئًا ما على الطاولة الطويلة. وضعت ليب الفاصل الخشبي بجوار المطبخ وقالت:

-لن نحتاج إلى هذا. كما أريد أيضًا وعاء به ماء ساخن وقطعة قماش، من فضلك.

قالت السيدة أودونيل للخادمة وهي تومئ برأسها:

-كيتي!

نظرت ليب إلى الطفلة وجدتها بدأت في تلاوة صلواتها مرة أخرى.

عادت إلى السرير الصغير الملاصق للحائط وبدأت في تجريده؛ وجدت ألواح السرير خشبية، والفرش مصنوع من القش ومغطّى بقماش ملطخ. حسنًا، على الأقل الفراش ليس مصنوعًا من الريش؛ ثمقت الآنسة نايتنجيل استخدام الريش! كان من الأفضل شراء مرتبة جديدة مصنوعة من شعر الخيل للفائدة الصحية، ولكن ليب لا يمكنها مطالبة عائلة أودونيل بتبديد المال من أجل شراء واحدة. **(تذكرت ذلك الصندوق المملوء بالعملات، التي من المفترض في النهاية أن تذهب إلى الفقراء)!** علاوةً على ذلك، ذكّرت نفسها أنها ليست هنا لتحسين صحة الفتاة، بل فقط لدراسة حالتها. مررت يدها على الفراش بحثًا عن أي شيء بارز أو فجوات في الخياطة يمكن أن تكشف عن أماكن لإخفاء الأشياء.

سمعت صوتًا غريبًا في المطبخ. هل هو جرس؟ رن الصوت مرة.. ثم مرة ثانية.. ومرة ثالثة. ربما يكون طريقة لاستدعاء العائلة إلى الطاولة لتناول وجبة الغداء. ولكن بالطبع، سيتعين عليها الانتظار حتى يقدمون الطعام لها في تلك الغرفة الضيقة.

وقفت آنا أودونيل وراحت تحوم حولها. سألتها:

-هل يمكنني أن أذهب لتلاوة صلاة الملائكة؟

ذكّرتها ليب، وهي تتحسس الوسادة المحشوة بالقطن بأصابعها:

-يجب أن تكوني في مكان أستطيع أن أراك فيه.
على صوتٌ في المطبخ، هل هو صوت الأم؟
نزلت الطفلة على ركبتيها، وهي تُصغي السّمع، ثم ردت:
-وحبلت به من الروح القدس..
ثم سمعت ليب صوتٌ يقول:
«سَلاَمٌ لَكِ أَيَّتُهَا الْمُنْعَمُ عَلَيْهَا! اَلرَّبُّ مَعَكِ. مُبَارَكَةٌ أَنْتِ فِي النِّسَاءِ».
تعرّفت ليب على هذه الصلاة، من الواضح أنها ليست صلاة فردية خاصة؛ لأن آنا تتلو الصلاة بترتيل يُسمع صداه في الغرفة المجاورة، وخلف الجدار، كانت أصوات النساء المكتومة تردد مع صوت الفتاة. ثم وقفة صمت. ثم صوت روزالين أودونيل وحده مرة أخرى.
«هُوَذَا أَنَا أَمَةُ الرَّبِّ»
وردّت آنا ورائها:
«لِيَكُنْ لِي كَقَوْلِكَ»
قامت ليب بسحب السرير بعيدًا عن الحائط، الآن ستكون قادرة على الاقتراب منه من ثلاث جهات. وضعت الغطاء على طرف السرير لتهويته، وفعلت نفس الشيء مع المسند. كانت طقوس الصلاة لا تزال مستمرة، بتراتيلها، وأناشيدها، وجوقاتها، ورنة الأجراس من حين لاخر.
ردّدت الفتاة:
«وَحَلَّ بَيْنَنَا»
انحنت ليب لتفتش في كل ركن من أركان السرير على التوالي، سللت يدها أسفل كل قطعة خشب، تحسست كل مقبض وزاوية لعلّها تجد ولو قُصاصة واحدة. نبشت أرضية الغرفة الطينية بحثًا أي جزء

من الأرض يمكن نزعه لدفن أي شيء. أخيرًا، يبدو أن الصلاة قد انتهت، وقفت آنا على قدميها، سألت وهي تلهث قليلًا:

-ألا تُصلين صلاة بشارة الملاك يا سيدة رايت؟

سألت ليب بدلًا من أن تجاوب:

-هل هذا هو اسم ما فعلته للتو؟

صدر من الفتاة إيماءة، كما لو أن الجميع يعرف هذه الصلاة.

نفضت ليب الغُبار عن تنورتها ومسحت يديها على مِئزرها. أين الماء الساخن؟ هل كيتي هذه مجرد فتاة كسولة، أم فقط تتحدى الممرضة الإنجليزية؟!

أخرجت آنا شيئًا كبيرًا لونه أبيض من حقيبة عملها وبدأت في تطريزه، وهي واقفة في الركن بجانب النافذة.

قالت لها ليب وهي تُشير لها نحو الكرسي:

-اجلسي أيتها الفتاة.

-أنا بخير هنا يا سيدتي.

يا لها من مفارقة، آنا أودونيل في أعماقها ما هي إلا مجرد مُحتالة.. ولكن في ثياب الأخلاق الحميدة! لذلك وجدت ليب نفسها مكبّلة عن معاملتها بالقسوة التي تستحقها. صاحت قائلة:

-كيتي، هل تستطيعين ذلك؟ أن تُحضري لي كرسيًا آخر بالإضافة إلى الماء الساخن؟

لم تسمع رد من المطبخ.

حثّت الفتاة لتُسرع:

-خذي هذه الآن.. لا أريد ذلك.

رسمت آنا علامة الصليب، وجلست على الكرسي، وراحت تواصل التطريز.

قامت ليب بإبعاد خزانة الملابس عن الحائط قليلًا؛ للتأكد من عدم وجود تجاويف خلفها، يمكن إخفاء أي شيء بها. سحبت كل الأدراج بصعوبة؛ بسبب انبعاج الخشب من الرطوبة، مررت يدها في خزانة الملابس الخاصة بالفتاة، وتحسست كل كبيرة وصغيرة.

فوق الخزانة يوجد مزهرية بها زهرة هندباء متدلية. لقد استحسنت الآنسة «ن» هذه الزهور ووافقت على وضعها في غرف المرضى، مستهزئة بحكاية الزوجات العجائز اللاتي يقُلن بأنها تسمم الهواء؛ كان في رأيها أن تألق الألوان وتنوع الأشكال بهذه الزهرة، لا تُحسن من حالة العقل فقط بل الجسد أيضًا. **(هذا ما حاولت ليب في الأسبوع الأول لها في المشفى، أن تشرحه لكبيرة الممرضات، التي تسمي الزهرة: لا- دي- دا).**

خطر لها أن هذه الزهور ربما تكون مصدرًا لتخبئة الغذاء عن عيون الجميع. ماذا عن السائل، هل موجودًا بالفعل؟ ماء؟ أو أي نوع من المرق أو الشراب الشفاف؟ استنشقت المزهرية، كل ما شعرت به في أنفها هي رائحة الهندباء المألوفة. غمست إصبعها في السائل ثم وضعته على شفتيها؛ لا طعم له أو لون. هل يمكن أن يكون هناك نوع ما من العناصر الغذائية التي تتمتع بهذه الزهور؟

استطاعت أن تعرف دون أن تتلفت حولها، أن الفتاة كانت تراقبها. أوه، هيا الآن، هل وقعت ليب في فخ التوهم مثل الأطباء العجائز! ما هذه إلا مجرد مياه. مسحت يدها على مئزرها. بجوار المزهرية لا يوجد سوى صندوق خشبي صغير، لا يوجد حتى مرآة، صعقتها هذه الفكرة الآن؛ ألم ترغب أنا قط، في النظر إلى نفسها في المرآة؟

فتحت الصندوق.

قالت الفتاة وهي تقفز نحوها:

-هذه كنوزي الخاصة!

كانت يد ليب تفتش بالفعل داخل الصندوق وهي تقول:

-حبيبتي.. هل يمكنني أن أرى ما به؟

هذا حتى لا تسمح لانا بالادعاء أن هذه الأشياء خاصة أيضًا.

ها هنا مجموعة من حبات المِسبحة مصنوعة من البذور، هل يمكن أن تكون طعامًا؟ يوجد أيضًا صليب عادي في نهايتها، وشمعدان مطلي على شكل العذراء والطفل (يسوع). وصلت آنا إلى الشمعدان قبلها وقالت:

-أليس جميلًا! لقد أعطاني إياه أمي وأبي يوم إعلان تأكيد الإيمان(12).

تمتمت «ليب:

-يوم مهم حقًا!

رأت أن التمثال الصغير جميل الشكل جدًا. مررت يديها على كل جزء به للتأكد من أنه حقًا مجرد خزف، وليس شيئًا صالحًا للأكل. عندها فقط سمحت للفتاة أن تأخذه. ضمته آنا إلى صدرها. وقالت:

-يوم تأكيد الإيمان هو أهم يوم بالنسبة لي!

-لماذا؟

-لأنه نهاية كوني طفلة.

في نظر ليب كان ذلك مجرد كوميديا سوداء، هذه الطفلة تفكرّ في نفسها أنها أصبحت امرأة ناضجة! بعد ذلك نظرت إلى الكتابة الموجودة على شيء

صغير فضي وبيضاوي الشكل، لا يزيد حجمه عن طرف إصبعها.

قالت آنا وهي تنزعها من يدها:

-هذا وسامي المعجزي!

-وما هي المعجزات التي صنعها؟

قالتها ليب بامتعاض شديد، لكن الفتاة لم تشعر بالإهانة، بل أكدت لها وهي تفزكها:

-كثير جدًا.. ليس هذه فقط، أعني، كل الأوسمة المعجزية في العالم المسيحي معًا.

لم تعلق ليب. وفي الجزء السفلي من الصندوق، وجدت قرصًا صغيرًا داخل غلبة زجاجية، ليس معدنيًا بل لونه أبيض، مختوم بشكل خروف يحمل العلم وشارة القوة والسلطان. لا يمكن أن يكون هذا الخبز من المناولة المقدسة، هل يمكن ذلك؟ لا شك أن الاحتفاظ به داخل صندوق ألعاب سيكون تدنيسًا للمقدسات! سألت:

-ما هذا يا آنا؟

-أغنوس داي.

عرفت ليب أنها كلمة من اللغة اللاتينية تعني حمَل الله. قلبت غطاء الغلبة وقشرت القرص بظُفرها.

-لا تكسِريه!

-لن أفعل!

لقد أدركت أنه لم يكن خبزًا، بل شمعًا. وضعت الغلبة في يد آنا المقبضة.

أكدت لها الطفلة:

-هو يبارك الجميع بقداسته. ضغطت على الغطاء وأغلقته ثم أردفت. «أغنوس دي يحمي من الفيضانات ويخمد نيران الحرائق».

احتارت ليب ما عسى أن يكون أصل هذه الأسطورة. من يتخيل أن الشمع الذي يذوب بسرعة، له أي فائدة في مقاومة النار؟ لم يبق في الصندوق سوى بضعة كتب. تفحّصت العناوين، كلها تعبُدية؛ كتاب **قُدّاس لاستخدام العلمانيين**، كتاب **تقليد المسيح**، ثم التقطت بطاقة مستطيلة مزخرفة بحجم ورقة اللُعب تقريبًا من كتاب المزامير الأسود. قالت آنا بغضب:

-أعيديه إلى مكانه!

فكرت ليب آه، هل يمكن أن يكون هناك طعام مخبأ في الكتاب؟ قالت: «لحظة واحدة»، ثم قامت بتقليب الصفحات. لا شيء سوى المزيد من الأوراق المستطيلة الصغيرة. قالت آنا:

-هذه بطاقاتي المقدسة. كل واحدة منها لها مكانها الخاص داخل الكتاب.

كانت الورقة التي أخذتها ليب عبارة عن صلاة مطبوعة على ورقة ذات إطار مزخرف، مثل الدانتيل، وبها ميداليات صغيرة جدًا أخرى مربوطة بها بشريط. على الظهر، صورة امرأة تحتضن حمل بألوان الباستل الشكرية، كُتب عليها في الأعلى **الراعي السماوي**؟ أو شيء سماوي؟ قالت آنا، وهي تنقر الصفحة دون الحاجة إلى التحقُّق ممّا بها:

-انظري، هذا يُطابق ما جاء بالمزمور المئة والتاسع عشر: «ضللْت، كشاةٍ ضالّةٍ»

فكّرت ليب وقالت:

-فهمت الآن!

فحصت ليب جميع الكتب الموجودة في الصندوق، وكانت محشوة بهذه البطاقات المستطيلة بين الصفحات. سألت:

-من أعطاك هذه البطاقات؟

-بعضها عبارة عن جوائز من المدرسة أو من خدمة الإرسالية. وبعضها هدايا من الزائرين.

-أين كانت هذه الخدمة؟

قالت آنا وهي تقبّل بطاقة الحمل قبل أن تضعها في مكانها وتُغلق الكتاب:

-لقد انتهت الآن. ترك لي أخي بعضًا من أجمل الأشياء.

يا لها من طفلة مثيرة للفضول! سألتها ليب:

-هل لديكِ قديس مفضل؟

هزت آنا رأسها وقالت:

-لديهم جميعًا أشياء مختلفة لنتعلّمها نحن منهم. بعضهم ولدوا صالحين، لكن بعضهم كانوا أشرارًا جدًا حتى طَهر الله قلوبهم.

-حقًا!

قالت آنا مؤكدة:

-الله يقدر أن يختار أي شخص ليطّهره.

عندما انفتح الباب، نهضت ليب.

جاءت كيتي، ومعها حوض الماء الساخن. قالت الشابة وهي تلهث:

-آسفة لإبقائك بعد.. من المفترض أن يُحضر ملاخي أودونيل وجبته لنفسه!

تساءلت ليب، هل يجزّ العشب لجيرانه، على سبيل الخدمة؟ أم هو عمل إضافي بجانب المبلغ الزهيد الذي يتقاضاه من العمل في المزرعة؟ لقد صُدمت عندما فكرت أن ربما الرجال فقط هنا، يحصلون على الطعام في منتصف النهار! سألتها الخادمة:

-ماذا سأنظف لك؟

قالت لها ليب وهي تأخذ الحوض:

-سأقوم أنا بذلك.

لم تسمح بوصول أي فرد من العائلة إلى هذه الغرفة؛ فربما يكون لدى كيتي طعام ولذلك ترتدي مئزرها الآن، (على حد علمها). لم تعرف إذا كان عبوس الخادمة يعني الارتباك أو الاستياء! قالت ليب:

-لا بد وأنكِ مشغولة.. أوه، هل يمكنني إزعاجك وطلب كرسي آخر، بالإضافة إلى فراش جديد؟

سألت كيتي:

-تقصدين ملاءة؟

صححت لها ليب:

-بل اثنتان، وبطانية نظيفة.

قالت الخادمة وهي تهز رأسها:

-ليس لدينا أي شيء.

التعبيرات البلهاء على هذا الوجه العريض جعل ليب تتساءل إذا كان كانت كيتي منتبهة من الأساس!

قالت آنا وهي تحاول وضع كيتي في الأجواء:

-ليس هناك ملاءة نظيفة بعد، الغسيل يوم الاثنين المقبل، ما لم يكن الجو رطبًا جدًا.

قالت ليب وهي تحاول إخفاء انزعاجها:

-مفهوم، حسنا، إذن فقط الكرسي يا كيتي.

أضافت الصودا من زجاجة في حقيبتها إلى حوض الماء ومسحت كل الأسطح. كانت الرائحة نفّاذة بشدة، لكنها تعطي شعورًا بالنظافة. رتبت سرير الطفلة مرة أخرى، بنفس الملاءة المتهالكة وبطانية رمادية. استقامت، وفكرت، ثرى في أي مكان آخر

يمكن تخبئة الطعام!

هذه الغرفة ليست مزدحمة بالأثاث مثل غرف المرضى من الطبقات الأعلى. وبصرف النظر عن السرير، وخزانة الملابس، والكرسي، لم يكن هناك سوى حصيرة على الأرضية، زخارفها على شكل خطوط داكنة. رفعتها ليب إلى أعلى، لا شيء أسفلها. قد تبدو الغرفة كئيبة جدًا إذا أخذت منها هذه الحصيرة، وكذلك ستكون أكثر برودة على الأقدام.

علاوةً على ذلك، المكان الأكثر احتمالًا لإخفاء طعام أو حتى تفاحة واحدة هو السرير، ومن المؤكد أن اللجنة لم تطلب من الفتاة أن تنام على ألواح الخشب العارية مثل السجناء! بالطبع لا، لكن يجب على ليب أن تتفقد الغرفة على فترات متباعدة ومتكررة وغير متوقعة؛ للتأكد من عدم وجود طعام تم تمريره إليها.

أخيرًا، أحضرت كيتي الكرسي، وطرحته أرضًا. قالت لها ليب:

-يمكنكِ أن تأخذي هذه الحصيرة وتنفضي عنها الغبار عندما يكون لديكِ وقت. ثم سألتها: «أخبريني، أين يمكنني أن أجد ميزانًا لوزن آنا؟».

هزت كيتي رأسها وقالت:

-ربما في القرية؟ نحن نستخدم ملء كف اليد!

عقدت ليب حاجبيها. مثّلت الخادمة بيدها في الهواء وهي تقول:

-حفنة من الدقيق، حفنة من الملح.

قالت لها ليب:

-لا أقصد الموازين المنزلية.. شيئا كبيرًا بما يكفي لوزن شخص أو حيوان. ربما تجدين واحد في

المزارع المجاورة؟

هزت كيتي كتفيها وقد بدا عليها التعب.

أما آنا، فكانت تتأمل نبات الهندباء المتموج، ولم تبدِ أي اهتمام بما تسمع، كما لو كانت ليب والخادمة تتحدثان عن وزن فتاة أخرى! تنهدت ليب وقالت:

-إبريق من الماء البارد من فضلك، وملعقة صغيرة.

سألت كيتي وهي في طريقها للخروج:

-هل تريدين القليل من أي شيء لتأكلي؟

أربكتها هذه العبارة..

-أم يمكنكِ الانتظار لتناول العشاء؟

-أستطيع الانتظار.

ندمت ليب على ما قالته لحظة رحيل الخادمة؛ لأنها كانت جائعة. ولكن أمام آنا لم تستطع أن تعلن أنها في حاجة ماسة إلى الطعام. (الطعام) الذي جعلها تُذكّر نفسها بأنها مجرد فتاة سخيفة، هي ليست سوى فتاة مُحتالة.

بدأت آنا تهمس بصلاة دوروثي مرة أخرى. لذلك فعلت ليب ما بوسعها لتتجاهلها. لقد اعتادت على تحمُّل عادات مزعجة أكثر بكثير من قبل؛ مثل ذلك الصبي الذي مرّضته من الحمى القرمزية وظل يتلوى على الأرض. وتلك السيدة العجوز المجنونة، التي كانت مقتنعة بأن دواءها سُم ودفعته بعيدًا، وسكب بالكامل على ليب.

كانت الفتاة ترتل بصوت خفيض الآن، ويداها مطويتان على المنديل الذي انتهت من تطريزه. لا يوجد شيء خفي في هذه الترنيمة؛ صلاة دوروثي هي السر الوحيد الذي يبدو أن آنا تحتفظ به. النغمات العالية شاذة قليلًا، لكنها حلوة.

أصغِ! إنها تسبحة السماء المُجلجلة..

جوقات الملائكة تترنم في العلى..
ملائكة الشاروبيم والسيرافيم..
في جوقة تسبيح دائمة..

أحضرت كيتي إبريق من الماء، سألت ليب وهي تقشر طبقة الطلاء البيضاء:

-هل يمكنني أن أسأل ما هذا؟

قالت كيتي:

-هذا جدار.

انفلتت ضحكة صغيرة من الطفلة.

سألت ليب:

-أعني مصنوع من أي مادة؟

مسحت الخادمة وجهها وقالت:

-من الطين.

-فقط الطين؟ حقًا!

-على أية حال، هذا مصنوع من حجر في القاعدة؛ لإبعاد الفئران.

عندما ذهبت كيتي، استخدمت ليب ملعقة عظمية صغيرة لتتذوق الماء في الإبريق.. لا يوجد دليل لوجود أي نكهة. سألت الطفلة:

-هل أنت ظمآنة يا فتاة؟

هزت آنا رأسها.

فكرت ليب في نفسها، «ألم يكن من الأفضل أن تأخذ رشفة؟ هي الآن تتجاوز دورها؛ هذا لأن عادات الممرضة بداخلها من الصعب أن تموت. لكنها ذكّرت نفسها بأنه لا يعنيها ما إذا كانت هذه المحتالة تشرب أم لا.

فتحت آنا فمها للملعقة وابتلعت المياه بدون صعوبة. وتمتمت: **«المغفرة، لعلّي أنتعش قليلًا!»**

بالطبع لم تكن تخاطب ليب بل الله.

-ملعقة أخرى؟

-لا، شكرًا لك سيدة رايت.

سجلت ليب:

*** الساعة 1:13 مساءً، تناولت ملعقة صغيرة من الماء.**

المهم بالنسبة لها هو تسجيل الأمر، وليس كمية المياه؛ لأنها تريد أن تكون قادرة على تقديم تقرير كامل، لأي شيء تناولته الطفلة في خلال مناوبتها في المراقبة.

الآن، لم يبقَ شيء لتقوم به ليب حقًّا. أخذت الكرسي الثاني، وجلست قريبًا جدًا من آنا لدرجة أن تنانيرهما كادت تتلامس، لكن لم يكن هناك مكان آخر لتضع فيه مقعدها. فكرت في الساعات الطويلة الباقية وكيف ستشعر بالحرج في خلال هذه الفترة. لقد أمضت شهورًا عديدة مع مرضى آخرين عند نهاية حياتهم، ولكن هذه المرة مختلفة؛ لأنها يجب أن تراقب هذه الطفلة بعين الصقور، وكانت آنا تعرف ذلك.

سمِعت طرقة خفيفة على الباب جعلتها تقفز. نقر الرجل الفلاح على صدريته الباهتة حيث مكان الأزرار، وقال:

-ملاخي أودونيل، سيدتي.

قالت ليب، وهي تضع يدها في يده المشعرة:

-السيد أودونيل!

كانت ستشكره على حسن ضيافته إلا أن وجودها كما لو كانت تتجسس على عائلته بأكملها، جعل الأمر لا يبدو مناسبًا. بدا الرجل قصيرًا ونحيفًا، نحيفًا مثل زوجته، ولكن بجسم أكثر نحافة بكثير. تشبه

أنا والدها بشكل كبير. ألا يوجد لحم زائد على أي من أفراد هذه العائلة، يا لها من فرقة من الدمى المتحركة! انحنى لتقبيل ابنته بالقرب من الأذن، وسألها:

-كيف حالكِ يا حبيبتي؟

قالت مبتسمة:

-جيدة جدًا يا بابا..

وقف ملاخي أودونيل يومئ برأسه.

أصيبت ليب بخيبة الأمل. لقد توقعت من الأب شيئًا أكثر من ذلك، فهو الممثل الأول خلف الكواليس - أو على الأقل شريك متواطئ-، ومريب مثل زوجته. لكنه يبدو مغفلًا..

-هل لديك ماشية يا سيد أودونيل؟

-حسنًا، القليل منها الآن.. لدي عقد إيجار لبضعة مزارع لأجل الرعي. أنا أبيع الماشية كما تعلمين، من أجل الأسمدة.. الماشية، الآن، في بعض الأحيان.. صمت قليلًا ثم أردف، «مع ضياع بعضهم وكسر سيقان البعض وتعثرهم عند خروجهم بطريقة خاطئة، كما ترين.. يمكن القول إن ضررهم أكثر من فائدتهم».

ماذا رأت ليب خارج المنزل؟ سألته:

-لديك دواجن أيضًا، أليس كذلك؟

-آه، هم ملكًا لروزالين الآن. السيدة أودونيل.

أومأ برأسه أخيرًا، كما لو أنه أنهى شيئًا كان عليه القيام به. مسّد على شعر ابنته وخرج.. ثم عاد مرة أخرى وقال:

-أو، لقد أتيت لأخبرك بأن هذا الرجل من الصحيفة هنا.

-معذرةً؟

أشار نحو النافذة. من خلال الزجاج الملطّخ، رأت ليب حافلة مغلقة. قال الرجل:

-لقد أتى ليصطحب آنا.

قاطعته:

-إلى أين؟!

ماذا يظن رجال اللجنة أنهم فاعلون، يقررون إجراء المراقبة في هذا الكوخ الضيق غير النظيف، ثم يغيرون رأيهم ويرسلون الطفلة إلى مكان آخر؟!

قال والدها:

-فقط وجهها.. رايلي وأولاده المصورين، في تلك الشاحنة على شكل الأنبوب، التي تقف على جانب الطريق. تمكنّت ليب من سماع صوت شخص غريب في المطبخ. أوه، هذا أكثر من اللازم! تحركت بضع خطوات قبل أن تتذكر أنه من غير المسموح لها ترك الطفلة بمفردها. عقدت ذراعيها ووقفت. تدخلت روزالين أودونيل وقالت:

-رايلي على استعداد لأخذ صورة لكِ يا آنا!

-هل هذا من الضروري حقا؟

-هذا ليتم طبعها ووضعها في الصحيفة.

نشر صورة للمحتالة الشابة، كما لو كانت ملكة. أو عجلًا برأسين! سألت ليب:

-كم يبعد هذا الاستوديو؟

نقرت السيدة أودونيل بإصبعها على النافذة:

-من المؤكد أنه سيفعل ذلك هناك في الشاحنة.

سمحت ليب للطفلة بالخروج أمامها، لكنها جذبتها بعيدًا عن دلو غير مغطى به مواد كيميائية لاذعة، ربما كحول، أو.. أثير أو كلوروفورم؟ تلك الفواكه المتخمّرة أعادت رائحتها الكريهة سكوتاري إلى ذاكرتها، حيث كان المرضى يأخذون المهدئات

المخدرة في أثناء عمليات البتر.

ما أن سلمتهم أنا على درجات الشاحنة القابلة للطي، حتى زكم أنفها تلك الرائحة الكريهة، كانت شيء مثل رائحة الخل أو الأظافر. سأل رجلٌ أشعث، ذو شعر مبعثر من الداخل:

-لقد ذهب الكاتب وذهب.. أليس كذلك؟

ضاقت عيني ليب، فقال:

-الصحفي الذي يكتب عن الفتاة.

-لا أعرف شيئًا عن أي صحفي يا سيد رايلي.

وقف ومعطفه ملطخًا بالأوساخ. قال:

-الآن قفي بجانب الزهور الجميلة، هل تفعلين ذلك من فضلك؟

لكن ليب سألته:

-هل من الممكن أن تجلس بدلًا من ذلك، طالما من الضروري أن تبقى على هذا الوضع لفترة طويلة؟

هي تعرف أن ذلك عمل مُرهق؛ ففي إحدى المناسبات، عندما طُلب منها التقاط صورة لها - كواحدة في صفوف ممرضات الآنسة «ن»، بعد الدقائق القليلة الأولى، تحركت إحدى الشابات الطائشات وتسببت في تشويش الصورة، لذلك كان عليهم البدء من جديد.

أطلق «رايلي» ضحكة مكتومة وحرك الكاميرا قليلًا، على مسافة بضع بوصات من فوق الحامل ثلاثي القوائم ذو العجلات. قال:

-الذي ترينه أمامك هذا خبير في عملية التصوير الحديثة. ثلاث ثواني فقط، هذا كل شيء. لن يستغرق الأمر أكثر من عشر دقائق من العدسة إلى طبع الصورة.

وقفت أنا حيث وضعها «رايلي»، بجوار طاولة

طويلة، مع وضع يدها اليمنى بجانب مزهرية من الورود المخملية. قام بإمالة مرآة على حامل حتى يُسلط الضوء وجهها، ثم اختفى برأسه تحت الغطاء الأسود الذي غطى كاميرته. نادى الفتاة:

-عيناكِ.. الآن يا فتاة. انظري إليّ.. إليّ..

جالت آنا بنظرها في جميع أنحاء الغرفة.

-انظري إلى جمهورك!

وهذا لم يكن يعني بالنسبة للطفلة شيئًا. تلاقت عيناها بعيني ليب وكادت أن تبتسم، رغم أن ليب لم تفعل.

وضع «رايلي» مستطيلًا خشبيًا في الماكينة وقال: «الآن، انتظري هنا، لا تتحركي كما لو كنتي حجرًا». أخرج الحلقة النحاسية من العدسة. بدأ في العد، «واحد، اثنان، ثلاثة...» ثم أغلقها بحركة سريعة ورفع شعره الدهني عن عينيه. ثم قال لهن: «اخرجن، يا سيدات». دفع الباب ونزل من الشاحنة، ثم صعد مرة أخرى بدلوه المليء بالمواد الكيميائية التي تنبعث منها رائحة كريهة. سألته ليب وهي تمسك بيد آنا:

-لماذا تحتفظ بهذا في الخارج؟

راح «رايلي» يسحب الحبال ليسمح للستائر بالسقوط فوق النوافذ واحدة تلو الأخرى، حتى يُظلم داخل الشاحنة. قال، «خشية خطر الانفجار».

سحبت آنا نحو الباب. خارج العربة، استنشقت الطفلة نفسًا عميقًا، وهي تنظر نحو الحقول الخضراء. في ضوء الشمس، بدت آنا أودونيل بوجه نضر تقريبًا، وظهر وريد أزرق على مقدمة جبينها.

بعد الظهر مضى الوقت ببطء في الغرفة. تمتمت الفتاة بصلواتها وقرأت كُتبها الدينية. أما ليب،

فانشغلت بمقال مثير للاهتمام عن الفطريات في مجلة بعنوان « All the Year Round». بعد مُضي بعض الوقت، قبلت آنا أن تتناول ملعقتين إضافيتين من الماء. جلست كلتاهما على بُعد أقل من بِضعة أقدام، وظلت ليب تلقي نظرة بين الحين والآخر على الفتاة من فوق طرف الصفحة التي تقرأها. من الغريب أن تشعر بأنك مقيد بشخص آخر بهذه الطريقة!

حتى أن ليب لم يكن لديها الحرية الكافية للخروج إلى المِرحاض؛ كان عليها أن تستخدم وعاء الغرفة. سألت:

-هل تحتاجين إليه، آنا؟

-لا، شكرًا لكِ، سيدتي.

تركت ليب الوعاء بجوار الباب وغطته بقطعة قماش. حاولت كتم التثاؤب. ثم قالت:

-هل ترغبين في الذهاب للتنزه؟

ابتهجت آنا وقالت:

-هل يمكننا ذلك حقًا؟

-طالما سأكون برفقتكِ.

لقد أرادت أن تختبر قدرة الفتاة على التحمل؛ هل سيعوقها التورم في أطراف قدمها عن الحركة؟ علاوةً على ذلك، لم تستطع ليب تحمل البقاء محبوسة في هذه الغرفة أكثر من ذلك!

في المطبخ، كانت روزالين أودونيل وكيتي واقفتان جنبًا إلى جنب، تُزيلان الكريمة من الأواني باستخدام مصافي مستديرة. بدت الخادمة في نصف حجم سيدة المنزل. سألت روزالين:

-هل تحتاجين إلى شيء، حبيبتي؟

-لا، شكرًا لك، أمي.

همست ليب في نفسها، «**العشاء هو ما يحتاج إليه كل طفل**.. أليس إطعام الطفل هو ما تُعرف به الأم من اليوم الأول؟ أسوأ ما يؤلم المرأة هو، ألا يكون لديها شيء لتعطيه لطفلها، أو أن ترى فمه الصغير يرفض ما تقدمه». قالت لها:

-نحن فقط سنخرج للتنزه.

ضربت روزالين أودونيل ذبابة زرقاء سمينة تحوم حولها وعادت إلى عملها.

فكرت ليب أن هناك تفسيرين مُحتملين لطمأنينة هذه المرأة الأيرلندية: إما أن روزالين مقتنعة تمامًا بالتدخل الإلهي بحيث أنه ليس لديها قلق على ابنتها. وإما على الأرجح، أن لديها سبب مقنع بأن الفتاة تحصل على الطعام سرًا بكميات كافية.

تمشّت آنا وهي تنتعل الحذاء البني الخاص بالأولاد، بحركة بالغة الصعوبة - لكن لا يكاد أحد أن يلاحظها- عندما تنقل وزن جسدها من ساق إلى أخرى. كانت تتمتم: «**تَمَسَّكَتْ خُطُوَاتِي بِآثَارِكَ فَمَا زَلَّتْ قَدَمَايَ**».

بينما تواصلان المشي بجوار الدجاج البني المُشاكس، سألتها ليب:

-هل تؤلمك ركبتاك؟

قالت آنا وهي ترفع وجهها إلى أعلى لتستقبل أشعة الشمس:

-ليس تمامًا!

-هل كل هذه الحقول لوالدك؟

-حسنًا، هو يستأجرها، ليس لدينا أي حقول خاصة.

لكن ليب لم تشاهد أي عُمال مستأجرين، سألتها:

هل يقوم بكل العمل بمفرده؟

قالت آنا وهي تُشير لحقل الشوفان:

-كان بات يساعده عندما كان معنا.

كانت فزاعة الحقل المتهالكة ترتدي سروالًا بنيًا وتميل قليلًا. استفسرت ليب:

-هل هذه ثياب ملاخي أودونيل القديمة؟

قالت آنا:

وهناك تبن، عادة ما تفسده الأمطار، ولكن لم يحدث ذلك هذا العام، لقد كانت الأمطار جيدة جدًا.

رأت ليب مربعًا واسعًا من الأرض الخضراء المنخفضة، ظنت أنها ربما تكون البطاطس المنتظرة! عندما وصلتا إلى الطريق، غيرا اتجاههما، إلى مكان بعيد عن القرية لم تذهب إليه بعد. رأت رجلًا صبغته الشمس باللون البني الأحمر، يصلّح جدارًا من الحجر بطريقة عشوائية.

حيته آنا:

-بارك الله في العمل!

أجاب الرجل:

-ليُباركِكِ أنتِ أيضًا.

همست بأذن ليب: «هذا جارنا السيد كوركوران، ثم انحنت وسحبت ساقًا بنية مغطاة بزهور صفراء متوهجة. ثم نبتة طويلة، بلون بنفسجي فاتح في الأعلى. سألتها ليب:

-أنتِ تحبين الزهور يا آنا؟

-أوه، كثيرًا.. خاصة الزنابق، بالطبع!

-لماذا بالطبع؟

-لأنها المفضلة للسيدة العذراء.

تتحدث آنا عن العائلة المقدسة كما لو كانوا أقاربها! سألت ليب:

-أين رأيت زنابق؟

-في أغلب الأحيان في الصور، أو زنابق الماء على البحيرة، على الرغم من أنها ليست نفس الشيء.

انحنت آنا ولمست زهرة بيضاء صغيرة.

-ما هذه؟

أخبرتها آنا:

-إنها الندية.. انظري!

نظرت ليب إلى الأوراق الدائرية على السيقان، كانت مغطاة بما يشبه الشعر الملتصق بالأوراق، مع بقعة سوداء غريبة. قالت آنا بصوتٍ خافت، كما لو كانت تخشى أن تزعج النبتة:

-إنها تُمسك الحشرات وتمتصها.

هل يمكن أن تكون على حق؟ لقد بدت الطفلة مثيرة للاهتمام بطريقة عجيبة؛ إذ لديها بعض المعرفة بالعلوم!

عندما شرعت آنا بالوقوف، ترنحت قليلًا واستنشقت نفسًا عميقًا. هل هذا دوار؟ هل هي غير معتادة على ممارسة التمارين الرياضية، أم أنه ضعف بسبب سوء التغذية؟ بغض النظر عن خدعة الصوم هذه، لا تحصل آنا على جميع العناصر المغذية، التي تحتاج إليها فتاة في عمرها. اقترحت ليب بلطف: «ربما يجب أن نعود؛ الوقت تأخر، وقد تكون والدتك قلِقة».

لم تعترض آنا، تُرى هل كانت مُتعبة أم مطيعة؟ عندما وصلنا إلى الكوخ، وجدنا كيتي في غرفة النوم. كانت ليب على وشك الشجار معها، ولكن الخادمة انحنت لتأخذ وعاء الغرفة - ربما لتجد لنفسها مبررًا لوجودها هناك-، قالت:

-هل ترغبين في طبقٍ من الحساء المكثّف الان يا سيدتي؟

-هذا حسنًا جدًا.

عندما عادت كيتي بالوعاء، فهمت ليب أن الحساء المكثّف يعني الشوفان المسلوق. أدركت أن هذا هو عشاءها على الأرجح. إنها الرابعة والربع - حسب توقيت البلد-. قالت كيتي:

-أتريدين بعض الملح؟

أومأت ليب بالرفض وهي تطرق الوعاء بملعقته الصغيرة. قالت كيتي:

-واصلي الطرق، هذا يُبعد الصِغار.

نظرت بتردد إلى الخادمة. سألت:

هل كانت تقصد الذباب؟

بمجرد أن غادرت كيتي الغرفة، همست آنا:

-إنها تقصد الكائنات الصغيرة.

لم تفهم ليب، فقامت آنا بتمثيل راقصين باستخدام يديها الممتلئتين. قالت ليب متعجبة:

-الجنيات؟!

عبّرت الطفلة بدهشة:

-هم لا يحبون أن يدعوهم أحد بهذا الاسم!

ولكن بعد ذلك ابتسمت مرة أخرى، كما لو أن كلتاهما تعرفان أنه لا توجد كائنات صغيرة تتدحرج في شوربة الشوفان.

لم يكن الشوفان سيئًا إلى حد كبير؛ فهو مطهو في الحليب بدلًا من الماء. وجدت ليب صعوبة في ابتلاعه أمام الطفلة؛ فقد شعرت وكأنها فلاحة غير مهذبة، تملأ بطنها في وجود سيدة راقية. لكنها ذكرت نفسها، بأن هذه الطفلة ليست سوى **ابنة فلاح صغيرة، ومخادعة أيضًا.**

شغلت آنا نفسها بإصلاح تنورة ممزقة، ولم تحملق

في عشاء ليب، ولم تحاول تجنب النظر وكأنها تصارع مع اشتهاء الطعام. فقط واصلت حياكة غرزها الصغيرة المرتبة. فكرت ليب في نفسها، حتى إذا تناولت الفتاة شيئًا الليلة الماضية، لا بد وأن تكون جائعة الآن بعد مراقبة دامت لسبع ساعات على الأقل، ولم تتناول في خلالها سوى ثلاث ملاعق صغيرة من الماء. كيف يمكنها أن تحتمل الجلوس في غرفة تفوح منها رائحة الشوفان الدافئ؟!

مسحت الوعاء عن آخره؛ لأنها لم ترغب في أن ترك البقايا بينها وبين الفتاة. كانت تشتاق إلى أكل الخبز بالفعل. بعد فترة قليلة، دخلت روزالين أودونيل لثريهما الصورة الجديدة. قالت:

-سيد رايلي من كرمه أهدانا هذه النسخة.

بدت الصورة حادة للغاية، على الرغم من أن الألوان ظهرت مختلفة تمامًا؛ حيث تلاشى لون الفستان الرمادي وتحول إلى اللون الأبيض، وبدا الشال المرقّط أسود قاتم. ظهرت الفتاة في الصورة تبتسم ابتسامة خفيفة وتنظر إلى الجانب، ناحية الممرضة غير الظاهرة في الصورة.

ألقت آنا نظرة سريعة على الصورة، كنوع من حسن الأدب لا أكثر. قالت السيدة أودونيل، وهي تمسح القصدير المنحوت:

-وهذه العُلبة الأنيقة أيضًا!

قالت ليب في نفسها: «يا لها من امرأة جاهلة! كيف يمكن لشخص يبتهج بهذا القدر من السذاجة بعُلبة رخيصة، أن يكون مسؤولًا عن مؤامرة مُحكمة؟ ثم نظرت من طرف عينيها نحو آنا، «ربما تكون هذه الطفلة الصغيرة المجتهدة هي الشخص الوحيد المذنب، إذ كان بإمكانها أن تأخذ كل الطعام الذي

تريده دون علم عائلتها. على الأقل، منذ بدء المراقبة هذا الصباح. أضافت روزالين أودونيل وهي تمسك الصورة بين ذراعيها بإعجاب:

-سأضعها على المزهرية بجوار صورة بات المسكين.

ثرى هل يعيش الصبي أودونيل في ظروف صعبة الآن في الخارج؟ أم ربما لا يعرف والديه أخباره؛ فبعض المهاجرين لا يسمع أحد أخبارهم مرة أخرى.

عندما عادت الأم إلى المطبخ، نظرت ليب إلى مكان العشب الذي داسته عجلات عربة «رايلي». ثم التفت، ووقع نظرها على الحذاء البشع الذي كانت ترتديه آنا. فكرت أن روزالين أودونيل ربما وصفت بات بالمسكين لأنه ذو قدرات محدودة أو بسيط العقل، وهذا قد يفسر وضعية الصبي الغريبة في الصورة. ولكن في هذه الحالة، كيف يمكن لعائلة أودونيل أن يرسلوا الشاب المسكين إلى الخارج؟ وبغض النظر عن ذلك، لا يجب أن يُطرح هذا الموضوع أمام أخته الصغيرة.

قضت آنا ساعات طويلة في فرز بطاقاتها المقدسة. هي في الحقيقة، كانت تلعب بها؛ فحركاتها الرقيقة واستغراقها في الأحلام وتمتمتها من آن لآخر، ذكّرت ليب بالفتيات الأخريات وهن يلعبن بالدمى.

لقد قرأت عن تأثير الرطوبة في الكتيّب الصغير الذي تحمله دائمًا في حقيبتها. **(ملاحظات حول التمريض)**، وكان هدية من لها من المؤلف.

في الساعة الثامنة والنصف، رأت أنه قد حان الوقت أن تستعد آنا للذهاب إلى الفراش. قامت الفتاة برسم علامة الصليب على نفسها، وغيرت ملابس النوم وهي تنظر إلى الأسفل بينما تُغلق

الأزرار الأمامية وأزرار الأكمام. ثم قامت بطي ملابسها ووضعها في الخزانة. لم تستخدم إناء التبول، لذلك لم يكن هناك شيء تستطيع ليب قياسه. إنها حقًا فتاة من الشمع وليس لحم ودم!

عندما فكت آنا شعرها ومشطته، خرجت كتلة ضخمة من الخصلات الداكنة على أسنان المشط. أقلق هذا ليب. أن تفقد طفلة شعرها مثل امرأة في سن متقدمة.. لكنها ذكّرت نفسها: **«إنها تتعمد أن تفعل ذلك، لأنه جزء من خدعة مُحكَمة تلعبها على العالم».**

قامت الفتاة برسم علامة الصليب مرة أخرى عندما آوت إلى الفراش. جلست مستندةً إلى وسادة الظهر، وقرأت في كتاب المزامير. ظلت ليب قرب النافذة، تراقب خطوط السحاب البرتقالية تظهر في أفق السماء الغربية. تُرى هل كان هناك أي كمية صغيرة من الفتات يمكن أن تكون قد فاتتها؟ هذه الليلة ستستغل الفتاة فرصتها؛ هذه الليلة حينما ستكون الراهبة هنا بدلًا من ليب. هل ستكون عين الراهبة مايكل العجوز ثاقبة بما فيه الكفاية؟ هل ستكون ذكية؟

أحضرت كيتي شمعة صغيرة في حامل نحاسي قصير. قالت ليب:

-ستحتاج الأخت مايكل إلى أكثر من ذلك.

-سأحضر واحدة أخرى.

-ستة شموع لن تكون كافية.

فغرت الخادمة فاها لبرهة.. حاولت ليب أن تحدثها بلهجة يمكن أن تستوعبها، فقالت:

-أعرف أن الأمر يسبب الكثير من المتاعب، ولكنني أتساءل إذا بإمكانك إحضار بعض الزيوت الأخرى؟

-الحصول على زيت الحوت يكلف ثمنًا مبالغ فيه!

-إذن أحضري أي نوع آخر من الزيوت.

قالت كيتي وهي مثقلة بالنوم:

-سأحاول أن أرى ما يمكنني العثور عليه غدًا..

عادت بعد بضع دقائق ومعها بعض الحليب وكعك الشوفان لعشاء ليب.

نقلت ليب عينيها نحو آنا فيما كانت تدهن كعك الشوفان بالزبدة، لا تزال غارقة في كتابها. إنجاز كبير أن يمضي الشخص طوال اليوم من دون تناول الطعام ويتظاهر بأنه لا يكترث للطعام، ولا يُبدي أي اهتمام به. مثل هذا التحكم بالنفس في سن مبكرة؛ إصرار وطموح. ترى لو تحولت هذه القدرات نحو هدف نبيل، إلى أين يمكن أن تصل بآنا أودونيل؟ تعرف ليب من خلال تعاملها مع العديد من النساء، أن السيطرة على النفس تعتبر أهم من أي موهبة أخرى تقريبًا.

أبقت ليب أذنها مفتوحة لأصوات الأطباق والهمس حول الطاولة على الجانب الآخر من الباب المفتوح قليلًا. حتى لو اتضح أن الأم ليس لها ذنب فيما يتعلق بتلك الخدعة، فإنها على الأقل تستمتع بالصخب المحيط بالأمر، كما أن هناك صندوق النقود بجوار الباب الأمامي.. ماذا يقول المثل القديم؟ **«الأطفال هم ثروة الفقراء»**. صحيح يقصد الثروة بمعنى مجازي - ولكن أحيانًا تكون ثروة حرفية أيضًا!

عادت آنا لصفحات الكتاب، وشفتاها تلفظ الكلمات في صمت. حدث ضجيج في المطبخ، أخرجت ليب رأسها ورأت الأخت مايكل تخلع عباءتها السوداء، فأومأت للراهبة بتحية مهذبة. سألت السيدة أودونيل:

-هل ستنضمين إلينا في الصلاة، يا أخت مايكل؟

تمتمت الراهبة بشيء ينم عن عدم رغبتها في إبقاء السيدة رايت في انتظارها.

شعرت ليب بأنه من الواجب عليها أن ترد، قالت: «لا بأس»، ثم عادت بانتباهها إلى آنا التي كانت تقف خلفها، في يدها المسبحة ذات البذور بنية اللون، وبدت كالشبح في ثياب النوم، حتى أنها قفزت خوفًا منها!

عبرت آنا من على يسار ليب وركعت بين والديها على الأرض. أما الراهبة والخادمة فكانتا قد ركعتا على ركبتيهما بالفعل، تمسكان بالصليب الصغير في طرف خرزات المسبحة. رددت الأصوات الخمسة هذه الكلمات: **«نؤمن بالله، الآب القادر على كل شيء، خالق السماء والأرض».**

لا يمكنها أن تُغادر الآن؛ لأن الأخت مايكل أعينها مُغمضة، ووجهها مغطى بالحجاب الذي يعوق الرؤية، وتضع رأسها بين يديها المتشابكتان. لا أحد يراقب آنا بانتباه. لذا، جلست ليب بجانب الحائط، حتى تتمكن من رؤية الفتاة بوضوح.

بدأوا الآن في تلاوة الصلاة الربانية(13)، التي تذكرتها في حداثتها، ما زالت تحتفظ بالقليل ممّا تعلّمته حينها. ربما لم يكن للإيمان مكانًا كبيرًا في قلبها؛ فقد تلاشى على مر السنين مع الأشياء الطفولية الأخرى.

«واغفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا»، هنا قاموا جميعًا بقرع صدورهم في آنٍ واحد، مما أدهشها!

«كَمَا نَغفِرُ نَحنُ أيضًا لِلمُذنِبِينَ إليْنَا».

ظنت عند هذه اللحظة أنهم ربما سيقفون ويقولون ليلة سعيدة الآن. لكن لم يحدث ذلك، فالمجموعة

كلها انغمست في ترتيل **«السلام لكِ يا مريم»**، ثم صلاة أخرى، وأخرى. يا له من أمر سخيف؛ هل ستعلق هنا طوال المساء؟! عصرت جفونها لترطيب عينيها المتعبتين، ولكنها لا تزال تركز على آنا وعلى والديها، حيث يحيطان بجسميهما جسد ابنتهما. تكفيهما لحظة واحدة قصيرة من التقاء الأيدي لتمرير شيء صغير فيما بينهم. حدقت ليب، لتتأكد من عدم وجود أي شيء على شفتي آنا الحمراوين.

نظرت إلى الوقت في الساعة المعلقة على خصرها، لقد مر ربع ساعة كاملة حتى الآن. لم تتحرك الطفلة، ولم تخور، طوال هذا الضجيج المرهق. تجولت بعينيها في الغرفة للحظة -فقط لتريحهما-، رأت كيس متدلي ومربوط بين كرسيين، ويقطر في وعاء. ماذا يمكن أن يكون هذا يا ترى؟

تغيرت كلمات الصلاة. وسمعتهم يتلون: **«نصرخ إليك، نحن أبناء حواء المنفيين...»**.

أخيرًا، بدا أن الاحتفال بأكمله قد انتهى. انتهى هؤلاء الكاثوليك من الوقوف، وهي الآن حرة لتغادر. قالت آنا:

-طابت ليلتك، يا أمي.

قالت روزالين:

فقط لحظات وأدخل لأقول لك تصبحين بخير.

التقطت ليب عباءتها وحقيبتها. لقد فاتها فرصة الحديث على انفراد مع الراهبة؛ لكنها لا تستطيع أن تقول لها بصوت عالٍ أمام الطفلة، **«لا ترفعي عينيك عنها لحظة واحدة»**. قالت: «سأراك في الصباح، يا آنا».

قالت آنا وهي تُصطحب الأخت مايكل إلى غرفة النوم:

-طابت ليلتك، يا سيدة رايت.

مخلوقة غريبة حقًا! لم تظهر أي علامة استياء من المراقبة التي فُرضت عليها. بالتأكيد لا يتوقف عقلها عن التفكير خلف هذا الهدوء والثقة.

انحرفت ليب يسارًا في الطريق عن الزقاق الذي به منزل أودونيل، متجهة إلى القرية. لم يكن الوقت مظلم تمامًا حتى الآن، ولون الشفق الأحمر لا يزال يلون الأفق خلفها. الهواء اللطيف يحمل رائحة الماشية ودخان الحطب المحترق. كانت أطرافها تؤلمها من الجلوس لفترة طويلة. ورغم أنها في حاجة إلى التحدث إلى الطبيب ماكبرارتي حول الظروف غير الصحية في هذا الكوخ، كان الوقت متأخرًا لتذهب لرؤيته الليلة. لكن ما الذي عرفته حتى الآن؟ القليل أو لا شيء.

ظهر أمامها هناك شكل ضبابي على الطريق، بندقية طويلة فوق كتف أحدهم. توترت ليب؛ فهي ليست معتادة على الخروج في الريف في مثل هذا الوقت! جاء الكلب أولًا، يشتم رائحة تنورتها، ثم مر صاحبه بدون تحية تقريبًا. وسمعت ديك يصيح بشكل مزعج. ورأت الأبقار تخرج من الحظيرة، والمزارع يلوح وراءهم. كانت تظن أنهم يتركون حيواناتهم في الهواء الطلق نهارًا ويدخلونهم (للحماية) ليلًا، وليس العكس. لم تفهم شيئًا عن هذا المكان!

(1)تعبير يعني قلب المدينة (المترجمة).

(2)الفكَرسة هي عذراء تعيش وسط مجموعة من العذارى، تقدم خدمات مختلفة للنساء والأطفال. هذا على خلاف الراهبة التي تنعزل وتعيش في دير خاص بالراهبات بعيدًا تمامًا عن التواصل مع المجتمع (المترجمة).

(3)سكوتاري هي، مدينة تقع في تركيا، وكانت موقعًا لثكنات عسكرية حوّلها الجيش البريطاني إلى مشفى، وتطوعت الممرضة البريطانية «فلورنس نايتنجيل»، ومعها فريق من الممرضات اللاتي قامت بتدريبهن لخدمة جرحى الحرب، الذين كانوا يقاتلون في حرب القرم (المترجمة).

(4)رسم علامة الصليب، يشير إلى عقيدة المسيحيين بالله الواحد الثالوث (الاب والابن والروح القدس)، وأيضًا إيمانهم بصلب عيسى المسيح (المترجمة).

(5)السيدة جامبس هي، إحدى الشخصيات في رواية تشارلز ديكنز «مارتن تشزلويت»، وتشتهر بعدم مهنيتها وحبها للكحول (المترجمة).

(6)الأبرشية أو الرعوية هي، منطقة جغرافية صغيرة يقوم برعايتها وخدمتها روحيًا أسقف أو قس (المترجمة).

(7)تُعرف أيضًا بأخوية مريم العذراء المباركة، وهي رابطة كاثوليكية تأسست في البداية لتلاميذ المدارس، ثم تأسست فيما بعد أخوية للجنود، وأخوية للنساء، وأخوية للعمال.. إلخ (المترجمة).

(8)المعمودية هي ممارسة مسيحية لإعلان الإنتماء للإيمان المسيحي (المترجمة).

(9)القربان المقدس هو خبز يرمز إلى جسد المسيح، يشترك المسيحيون في التناول منه في الكنيسة، تذكارًا لإيمانهم بصلبه وقيامته من الموت (المترجمة).

(10)يُستخدم هذا الصليب في الكنائس التقليدية كالأرثوذكسية والكاثوليكية، أما الكنائس البروتستانتية تستخدم الصليب فقط، ولا تستخدم أيقونات أو تماثيل للقديسين (المترجمة).

(11)المذود هو، مكان يوضع به علف الذواب، وبحسب رواية الإنجيل، عندما أتى وقت المخاض للسيدة مريم، لم يكن هناك مهدًا مُعدًا لاستقبال المسيح، فاضطرت لوضعه في مذود داخل أحد البيوت في بيت لحم (المترجمة).

(12)هي مناسبة يُعلن فيها الطفل تأكيد إيمانه بالوصايا التي تعهد بها والديه يوم تعميده وهو رضيع، وغالبًا تكون في عمر سبع سنوات (المترجمة).

(13) صلاة قصيرة علّمها المسيح للجموع الذين تبعوه، وتبدأ بالعبارة الشهيرة: **«أبانا الّذي في السماوات..» (المترجمة).**

الفصل الثاني

المراقبة

تُراقب: لترصُد لتحمي كحارس

لتبقى مستيقظة كدَيدَبان، طوال نوبة عمل ليلية.

رأت ليب في الخلم، مرضاها الرجال وهم يطلبون التبغ كالعادة، بالرغم مما يبدو عليهم من سوء التغذية، وعدم الاغتسال، وبرغم منظر شعر رؤوسهم الكثة، واستمرار تسرب الصديد والدماء، إلى الضمادات المثبتة في مكان البتر على أطرافهم، فهم لا يصرخون إلا لطلب شيء واحد، هو كيف يمكنهم أن يملؤوا غليون التبغ. تراهم يمدون أيديهم نحوها بينما تمر من أمام العنبر الخاص بهم، والثلوج في القِرم تتطاير عبر زجاج النوافذ المكسورة.. وعلى الباب طرق مستمر، طرق.. طرق..

-السيدة رايت!

أجابت ليب بصوت مبحوح:

-أنا هنا.

-لقد طلبتِ إيقاظكِ في الرابعة والربع.

توجد غرفة ليب أعلى دكّان المشروبات الروحية في نزل «رايان»، الذي يقع في قلب أيرلندا. وهذا الصوت الذي صدر من خلف الباب هو صوت «ماجي رايان».

حاولت ليب الرد بصوت واضح وقالت: «نعم».

ما أن انتهت من ارتداء ملابسها، أخرجت كتاب **«ملاحظات حول التمريض»**، تركته ينفتح على أي صفحة، ثم وضعت إصبعها على مقطع بطريقة عشوائية؛ (تمامًا كما كانت تفعل في أثناء لُعبة التنبؤ التي تعلبها مع شقيقتها، باستخدام الكتاب المقدس في أيام الاحاد المملة). قرأت: **«غالبًا ما تكون المرأة**

أكثر دقة وحذرًا من الجنس الأقوى، مما يسمح لها بتجنب الأخطاء البسيطة».

ولكن بالرغم من كل الحذر والحيطة التي اتخذتها في الأمس، إلا أنها لم تنجح في كشف طريقة الاحتيال بعد، أليس كذلك! لقد قضت الأخت مايكل طوال الليل هناك، فهل حلّت اللُغز؟ تشك ليب في ذلك! ربما جلست الراهبة بعيون نصف مفتوحة، تحرك خرز المسبحة ولا شيء اخر.

حسنًا، ترفض ليب أن تسمح لطفلة تبلغ من العمر أحد عشر عامًا أن تخدعها. اليوم، عليها أن تكون أكثر دقة وحذرًا، لتثبت لنفسها أنها جديرة بكلمة الثناء الجميلة، التي دونتها الآنسة «ن»، كإهداء لها على الكتاب، أعادت قراءتها: **«إلى السيدة رايت، التي تمتلك دعوة حقيقية للتمريض».**

كانت ليب تشعر بمهابة الآنسة «ن»، ولم يكن ذلك في المرة الأولى فقط، بل إن كل كلمة تفوهت بها، ما زالت تدَوي في أذنها كأنها تقولها من فوق منبر!

تتذكرها وهي تقول لطابور الممرضات: **«ليس هناك مكان للأعذار، العمل يجب أن يكون باجتهاد، لا مجال لرفض ما يطلب الله منا القيام به، قمن بواجبكن في وسط ضجيج العالم، لا تشتكين، لا تيأسن. الغرق في الأمواج، أفضل من الوقوف مكتوف الأيدي على الشاطئ».**

في المقابلة الخاصة مع الآنسة «ن» قالت لها ملاحظة غريبة: **«أنتِ تمتلكين امتياز عظيم، أفضل من جميع زميلاتك. أنكِ حرة، ومجردة من أي قيود».** نظرت ليب ليدها وكانت فارغة، نعم هي غير مرتبطة بأي قيود. ثم أردفت: **«والآن أخبريني، هل أنتِ مستعدة لهذه المعركة العظيمة؟ هل تستطيعين أن تُلقي بكل كيانك في ميدان المعركة؟** أجابت

ليب: نعم أستطيع!

خرجت ليب والظلام باقٍ، لا تزال ثلاثة أرباع القمر هناك لتضيء لها على امتداد شارع القرية الوحيد، ثم انعطفت يمينًا لتنحدر إلى طريق فرعي، مروزًا بشواهد القبور المائلة ذات اللون الأخضر. ولولا أنها لا تؤمن بالخرافات، لارتعد جسدها خوفًا. وبدون ضوء القمر لم تكن لتتبيّن الطريق الصحيح المؤدي إلى مزرعة أودونيل، حيث بدت هذه الأكواخ وكأنها متطابقة الشكل. الساعة الآن الرابعة وخمسة وأربعون دقيقة، عندما قرعت على الباب. لكن ليس من ردا!

لم ترغب في إثارة الضجيج بالنقر أقوى من ذلك، حتى لا تسبب الإزعاج للأسرة. لكن الضوء يأتي من باب الحظيرة، على يمينها. أوه، لا بد وأن النساء يحلبن البقر. كانت إحداهن تجرب صوتها في الغناء للأبقار؟ لكنها ليست ترنيمة هذه المرة، بل نوع من الأغاني الحزينة التي لا تعجب ليب مطلقًا:

أشرق نورٌ من السماء في عينيها..

كانت تُحسِن كثيرًا إليّ..

واختارها ملاكٌ لتكون له..

وأخذها من لوف ري!

دفعت ليب الباب الأمامي للكوخ، فانفتح من نصفه الأعلى، وجدت المطبخ الفارغ مضاء بنيران الموقد الدافئة. في ركنٍ ما، كانت هناك حركة خفيفة، هل هذا فأر؟ لقد جعلتها تجاربها القاسية في عنابر سكوتاري القذرة، أكثر شجاعة واحتمالًا لمثل هذه الحشرات والكائنات. سحبت المزلاج لتفتح الجزء السفلي من الباب، وبعد أن دخلت المطبخ، انحنت وانسلّت داخل قاعدة النملية، التي تُشبه قاعدتها قفص له قضبان خشبية.

وقعت عينيها على عين دجاجة صغيرة. ووراء الدجاجة الأولى، لاحظت وجود حوالي عشرة دجاجات أخرى، بدأت تنقنق بصوت خفيض، افترضت ليب أنهم محبوسون في هذا القفص لحمايتهم من الثعالب. في أثناء ملاحظاتها لهم، لفت انتباهها بيضة وضعت حديثًا. خطرت فكرة على رأسها: هل يمكن أن تمتص آنا أودونيل، هذا البيض في أثناء الليل وتأكل القشرة أيضًا حتى لا تترك أي أثر وراءها!

بينما تعود للوراء، تفاجأت بشيء ما لونه أبيض تحت قدميها.. إنه صحن، كانت حافته تظهر من تحت القفص. استاءت بشدة، كيف يمكن أن تكون هذه الخادمة ساهية لهذا الحد! اِلتقطت الصحن، فانسكب السائل على يدها وبلّل سوار أكمامها. شهقت بشدة، ثم وضعت الصحن على الطاولة.

والآن، ستتحقق ليب من كشف الغموض؛ لعقت يدها المبلّلة بلسانها، إنه طعم الحليب. هل كانت الخدعة الكبرى بهذه البساطة! لم يكن هناك حاجة إلى الفتاة أن تبحث عن البيض، طالما هناك صحن ممتلئ بالحليب تُرك لها؛ لتشرب منه كالكلب في ظلام الليل.

لكنها شعرت بخيبة الأمل أكثر منها بالاِنتصار؛ إذ لم يكن هناك حاجة إلى ممرضة متدربة لكشف هذه الحيلة! يبدو أن مهمتها قد تمت بالفعل، وستستقل العربة المتجولة في طريق العودة إلى محطة السكك الحديدية، عند شروق الشمس.

مع صوت خشخشة الباب تلفتت ليب حولها كما لو كانت هي التي لديها شيئًا لتخفيه. قالت باضطراب: «السيدة أودونيل»! ظنت المرأة الأيرلندية أن الاتهام كان تحية. قالت: «عمت صباحًا سيدة رايت،

أمل أن تكوني قد حصلت على غفوة قصيرة»! كانت كيتي وراءها، ينحني كتفيها الضئيلين لأسفل من ثقل الدلوين.

رفعت ليب الصحن، وكان به كسر في مكانين. قالت: «يوجد شخص في هذا البيت يخبّئ الحليب أسفل النملية».

انفرجت شفاه روزالين أودونيل المتشققة في ضحكة صامتة. أردفت ليب:

-ليس بوسعي إلا افتراض أن ابنتكِ كانت تختبئ لتشربه.

-أنتِ تفترضين أكثر من اللأزم. أليس في أي مزرعة في البلاد صحن حليب يترك ليلًا؟

قالت كيتي وهي تبتسم نصف ابتسامة، وكأنها تتعجّب من جهل السيدة الإنجليزية:

-نعم، هذا للمخلوقات الصغيرة.. وإلا يغضبون ويحدثون فوضى.

-وهل تتوقعين مني أن أصدق أن هذا الحليب مخصص للجُنيات؟

عقدت روزالين أودونيل ذراعيها الطويلين النحيلين، وقالت:

-صدقي ما تشاءِ أو لا تصدقي شيئًا، يا سيدتي. ترك بضع قطرات من الحليب لا يسبب أذى على الأقل.

تسارعت الأفكار برأس ليب، ربما تكون الخادمة وسيدة البيت ساذجتين بما يكفي، ليكون هذا هو السبب وراء وجود الحليب أسفل النملية، لكن هذا لا يعني أن آنا أودونيل لم تشرب من صحن الملائكة كل ليلة طيلة أربعة أشهر.

انحنت كيتي لتفتح النملية. دفعت الدجاج نحو

الباب بتحريك طرف تنورتها بسرعة.

-هيا.. اخرجوا من هنا الآن. الفشب مليء بالدُّراق!

فتحت الراهبة باب الغرفة ونظرت بالخارج. قالت بهمسها المُعتاد:

-هل هناك أي مشكلة؟

قالت ليب وهي غير راغبة في شرح شكوكها:

-لا شيء على الإطلاق.. كيف كانت الليلة الماضية؟

-على ما يُرام، حمدًا لله.

ربما تعني أنها لم تُمسك بالطفلة تتناول الطعام بعد. ولكن إلى أي مدى حاولت اكتشاف ذلك، طالما أنها تؤمن - بطرق الله المعجزية-؟ هل ستأتي فائدة من الراهبة على الإطلاق؟ بل والأكثر، ربما ستكون مجرد عائق فقط!

الآن، رفعت السيدة أودونيل القِدر الحديدي من فوق النار، وأمسكت كيتي بيدها المِكنسة، وراحت تنظف النملِيّة من براز الدجاج الأخضر القذر. أما الراهبة، اختفت في غرفة النوم مرة أخرى، وتركت باب الغرفة مواربًا.

كانت ليب قد حلّت عباءتها للتو، وقت دخول ملاخي أودونيل من المزرعة وبين ذراعيه حزمة من العشب: «مرحبًا يا سيدة رايت»!

-مرحبًا يا سيد أودونيل!

ألقى بالعشب بجانب المدفأة، ثم استدار ليخرج مرة أخرى. تذكرت أن تسأله:

-هل يمكن أن أجد ميزان له منصة، حتى يمكنني أن أزن عليه أنا؟

-آه، معذرة، ليس لدينا واحدا!

-كيف تزن ماشيتك إذن؟

حكّ أنفه الأرجواني وقال:

-بالعين، بتقدير العين.

صدر صوتٌ طفولي من داخل الغرفة. لمع وجه الأب وسأل:

-هل هي مستيقظة الآن؟

تجاوزته السيدة أودونيل ودخلت إلى ابنتها فور خروج الأخت مايكل بحقيبة يدها. تحركت ليب لتتبعها، لكن الأب أوقفها وسأل:

-هل كان لديكِ، سؤال آخر؟

-سؤال آخر؟!

كان يجب أن تكون بجانب الطفلة الآن؛ لتمنع وجود فجوة زمنية، ولو للحظة بين نوبات الممرضتين. لكن كان من المستحيل قطع الحديث في منتصف الطريق.

-نعم، عن الجدران. قالت كيتي إن لديكِ سؤالًا بخصوص الجدران.

-الجدران.. نعم!

قال ملاخي أودونيل:

-يوجد بعض الروث مع طين وقش.. وأيضًا شعر لأجل اللّصق.

نظرت بعينها نحو غرفة النوم وهي تقول:

-هل يمكن هذا، شعر، حقًا؟!

هل يمكن أن يكون هذا الشخص البريء ظاهريًا شريكًا في الخديعة؟! ربما أخذت زوجته شيئًا من وعاء الطبخ الذي بين يديها قبل أن تهرع لتحية ابنتها! أردف الرجل:

-ودمًا وقطرة من كريمة الحليب.

حدّقت إليه ليب وهي تقول:

-دم وكريمة حليب!

كما لو كانت هذه الأشياء سوف تُسكب على مذبح للديانات البدائية!

عندما دخلت ليب الغرفة، وجدت روزالين أودونيل جالسة على السرير الصغير، وآنا راكعة على ركبتيها بجوارها. كان هناك وقت كافي لتتناول آنا بعض الكعك المقلي. لعنت ليب نفسها لأنها تورطت في هذه المحادثة مع هذا الرجل الفلاح من باب الأدب، ولم تهتم بالدخول إلى الطفلة على الفور. ولعنت الراهبة أيضًا لأنها انسحبت بسرعة؛ حيث كان من المفترض أن تبقى ما لا يقل عن دقيقة أخرى هذا الصباح، خاصةً بعدما انتظرتها ليب طوال صلاة المسبحة الوردية(14) في المساء السابق. لماذا لم تستطع الأخت مايكل أن تبقى لمدة دقيقة إضافية هذا الصباح؟ فبالرغم من أنهما ليسا ملزمتين بمشاركة آرائهما حول الفتاة، إلا إنه ينبغي على الأقل أن تقدم الراهبة تقريرًا لليب - الممرضة الأكثر خبرة - عن أي حقائق ذات صلة بفترة المراقبة الليلية.

كان صوت آنا خافتًا ولكن واضحًا، تُتمتم: **«أنا لحبيبي، وحبيبي لي، في داخلي يسكن، وبه أحيا»**. تبدو هذه الكلمات كأنها شعر، ولكن بمعرفة ليب لهذه الطفلة، المفترض أنها تتلو كلمات من الكتاب المقدس.

لم تشارك الأم في الصلاة، فقط تومئ برأسها، كمعجبة في صالة العرض. هتفت بها ليب:

-سيدة أودونيل!

وضعت روزالين أودونيل إصبعها على شفتيها الجافتين. فأردفت ليب:

-لا يجب أن تكوني هنا!

قالت روزالين أودونيل وهي تميل رأسها إلى أحد جانبي وجه الفتاة:

-ألا يمكنني أن أقول صباح الخير لآنا؟!

لم تعبر الطفلة الخانعة بوجهها المغلق كالبرعم، عن أي علامة لسماع أي شيء. أوضحت ليب:

-ليس بهذه الطريقة.. ليس بدون وجود أحد الممرضات. يجب ألا تسبقي أحدنا في الدخول إلى غرفتها.

نهضت المرأة الأيرلندية، وقالت:

-أليس من حق كل أم أن تتوق لمشاركة طفلها العزيز ولو بصلاة قصيرة!

-بالتأكيد يمكنك أن تُحييها صباحًا ومساءً. هذا من مصلحتكِ! أضافت ليب لتخفف حدة الحديث، «هذا لمصلحتكِ ومصلحة السيد أودونيل.. أنتِ ترغبين في إثبات براءتكم من أي شبهة اِتهام بالنصب والخداع، أليس كذلك؟

لم ترد روزالين أودونيل سوى بكظم غيظها. قالت وهي تمر بكتِف ليب «الإفطار في الساعة التاسعة»!

سيكون ذلك بعد ما يقرب من أربع ساعات. شعرت ليب بالجوع الشديد، لكنها ظنت أنهم في الأرياف لديهم روتين خاص في الطعام. كان يفترض بها أن تطلب من فتاة نزل «رايان» شيئًا من دكان البقالة هذا الصباح، حتى ولو قطعة خبز على الأقل.

تذكرت ليب أنها وشقيقتها كانتا تشعران بالجوع في أثناء اليوم الدراسي، وأنهما في تلك الفترة، كانتا متفاهمتان بشكل أفضل - خمنت أن هذا التفاهم ربما بسبب شعورهما كأنهما رفيقتين في سجن! - حيث نشأتا على فكرة أن النظام الغذائي

المتقطع يعتبر مفيدًا بشكل خاص للفتيات، لأنه يحافظ على هضم جيد ويبني الشخصية. لكن ليب لم تكن تظن أنها تفتقر إلى السيطرة على النفس، بل ترى أن الجوع يشتت الانتباه دون فائدة؛ إذ يجعلك لا تفكر في أي شيء آخر سوى الطعام. هذا ما جعلها لا تفوت أي وجبة طالما في استطاعتها الحصول عليها.

رسمت آنا علامة الصليب ونهضت عن ركبتيها. حييت ليب:

-عمتِ صباحًا سيدة رايت.

نظرت ليب إلى الفتاة وقالت باحترام:

-عمتِ صباحًا يا آنا!

حتى إذا كانت الفتاة قد شربت شيئًا أو تناولت شيئًا في خلال نوبة المراقبة مع الراهبة، أو للتو مع والدتها، فلا يمكن أن يكون ذلك أكثر من لقمة صغيرة على الأكثر منذ صباح الأمس. أخرجت ليب دفتر المذكرات الخاص بها، سألت:

-كيف كانت ليلتكِ؟

اقتبست آنا آية من سفر المزامير وهي ترسم نفسها بعلامة الصليب مرة أخرى: **«أَنَا اضْطَجَعْتُ وَنِمْتُ»**. ثم أردفت قبل أن تخلع غطاء الرأس: **«واسْتَيْقَظْتُ لأَنَّ الرَّبَّ يَعْضُدُنِي»**.

أجابت ليب: «ممتاز»!

لأنها لم تعلم ماذا يجب أن تقول بعد ذلك. لكنها لاحظت بداخل غطاء الرأس بعض الشعر المتساقط.

فتحت الفتاة قميص النوم، أنزلته وربطت الأكمام حول خصرها. كان هناك تفاوت غريب بين كتفيها الخاليين من اللحم ومعصميها وأيديها السمينة، وبين صدرها الضامر وبطنها المنتفخ. سكبت

المياه على نفسها من الحوض، وهي تهمس بصوتِ خفيض: «أضِئ بِوَجهك علَى عبدِك»، ثم جففت نفسها وهي ترتجف قليلًا.

سحبت ليب وعاء الفضلات من تحت السرير، كان نظيفًا. سألت الطفلة:

-هل استخدمت هذا الوعاء يا فتاة؟

أجابت آنا وهي تومئ برأسها:

-لقد أعطته الأخت الراهبة لكيتي لإفراغه.

كانت ليب على وشك أن تسألها، (وماذا كان به)؟ لكنها لم تستطع ذلك.

رفعت آنا ثوب النوم مرة أخرى وأعادته فوق كتفيها. ثم بللت قطعة صغيرة، ومسحت ساقًا واحدة من أسفل الثوب، بينما تقف على الساق الأخرى وتمسك بالخزانة لتثبيت نفسها، -حتى لا تكشف عن جسدها-. كان القميص والفستان والجوارب التي ارتدتها جميعها من يوم أمس.

عادةً ما تُصر ليب على تغيير الملابس يوميًا، ولكنها شعرت بأن ذلك سيكون صعبًا في عائلة فقيرة مثل هذه. سحبت الشراشف والبطانية ووضعتهما على حرف السرير لتهويته قبل أن تبدأ فحص الفتاة.

الثلاثاء، 9 أغسطس، الساعة 5:23 صباحًا.

*** كمية المياه التي تناولتها: 1 ملعقة صغيرة.**

*** نبض القلب: 95 نبضة في الدقيقة.**

*** الرئتين: 16 نفسًا في الدقيقة.**

*** درجة الحرارة: باردة.**

سجلت درجة الحرارة، بالرغم من كونها مسألة تعتمد على التخمين، وإذا كانت أصابع الممرضة أدفأ أو أبرد من إبط المريضة.

-أخرجي لسانك، من فضلك.

تدربت ليب على ملاحظة حالة اللسان بصفة مستمرة، بالرغم من أنها كانت تجد صعوبة في معرفة ما يعنيه شكل اللسان بشأن صحة المريض. لكنها وجدت لسان آنا أحمر اللون، مع تسطح غريب في الجزء الخلفي بدلًا من النتوءات الصغيرة المعتادة.

عندما وضعت سماعتها على سرة الفتاة، سمعت قرقرة خفيفة، ولكن يمكن أن يرجع ذلك إلى تداخل الهواء والماء؛ فهو لا يثبت وجود الطعام. دونت ملاحظتها:

*** الأصوات في التجويف الهضمي، سببها غير معروف.**

اليوم، يجب أن تسأل ليب الدكتور ماكبرارتي حول تورم اليد والساقين السفليتين. هذا التورم الذي تخمن أنه وأي أعراض أخرى مصاحبة، قد يكون سببها نظام غذائي محدود أو منعدم. وترى أن هذا كله للخير؛ لأنه في وقتٍ ما، عاجلًا أم آجلًا، ستدفع هذه الأعراض الفتاة، للتخلي عن هذه التمثيلية البغيضة. قامت ليب بترتيب السرير مرة أخرى وشد الشراشف.

مضي الوقت في هذا اليوم الثاني، بإيقاع هادىء بين الممرضة والفتاة المتهمة؛ حيث تابعت « ليب» قراءة (أخبار مآثر مدام ديفارج الشريرة) في « All the Year Round». وتحدثتا قليلًا مع بعضهما البعض. بدت الفتاة ساحرة بطريقتها غير المكترثة بالأمور الدنيوية؛ لذا، وجدت ليب صعوبة في أن تذكّر نفسها بأن آنا مخادعة، وكاذبة كبيرة في بلد مشهور بالكاذبين!

على مدار الساعة، كانت الطفلة تهمس بما تظنه

ليب شيئًا كصلاة دوروثي. فهل كانت تفعل ذلك لتقوي عزيمتها في كل مرة تشعر بقرصة الجوع؟

في وقت لاحق من الصباح، خرجنا معًا لجولة أخرى حول ساحة المزرعة فقط - بأن السماء كانت تُنذر بسقوط الأمطار-. عندما لاحظت ليب تعثر آنا في المشي، قالت الفتاة إنها فقط تسير بهذه الطريقة لا أكثر. راحت تُغني التراتيل وهي تمشي، مثل الجندي المثابر.

عندما توقفت عن الترتيل، سألتها ليب:

-هل تحبين الألغاز؟

-لا أعرف أي ألغاز.

تتذكر ليب لُعبة الألغاز منذ طفولتها أكثر من كل الأشياء التي كان عليها حفظها في الصف الدراسي. بدأت اللُغز:

-ما هو هذا؟ ‹لا يوجد مملكة على وجه الأرض، إلا وسافرت فوقها مرارًا وتكرارًا، وسواء نهارًا أو ليلًا، فأنا لا أكون ولا يمكن أن يراني أحد. ما هو؟

بدت آنا متحيرة، لذا كررتها ليب:

-أنا لا أكون ولا يمكن أن يراني أحد..

سألت الفتاة:

-هل يعني ذلك أنني لست.. أنا غير موجود أم أن لا أحد يمكن أن يراني؟

-الأخيرة

شخص غير مرئي.. يسافر عبر الأرض بأكملها..

أضافت ليب:

-أو شيء!

استمرت الطفلة في التفكير.. ثم قالت:

-الرياح؟

-حسنًا جدًا. أنت تتعلمين بسرعة!

-لُغز آخر.. من فضلك.

-امممم، دعني أرى.. «الأرض بيضاء والبذور سوداء». في رأيي، هذا اللغز يحتاج إلى عالم ماهر لحله!

-الورق، والحبر عليه!

-أنت ذكية جدًّا!

-هل لأن اللُغز يحتاج إلى عالم؟

-يجب أن تعودي إلى المدرسة..

نظرت آنا بعيدًا نحو بقرة تمضغ العشب. قالت:

-الأمر على ما يُرام في المنزل.

-أنتِ فتاة ذكية!

خرج منها هذا الثناء كاتهامٍ أكثر منه إشادة.

بدأت السحب المنخفضة تتجمع، لذا أسرعت ليب بالعودة إلى الكوخ الخانق. ولكن بعد ذلك، توقفت الأمطار، وتمنت لو أنهما بقيا خارجًا لفترة أطول.

أخيرًا، أحضرت كيتي وجبة الإفطار لأجل ليب. كانت عبارة عن بيضتين وكوب من الحليب. هذه المرة، تضوّر ليب جعلها تلتهم الطعام بسرعة، وتكسرت أجزاء صغيرة من القشرة بين أسنانها. كانت البيضة ممتلئة بالرمل وتنبعث منها رائحة الحطب؛ مشوية في الرماد، بلا شك!

كيف يمكن لطفل أن يتحمل ليس فقط الجوع، ولكن الملل أيضًا؟ ما تعرفه ليب هو، أن بقية البشر يستخدمون وجبات الطعام لتقسيم اليوم، كنوع من المكافأة والاستمتاع، حتى يكون هناك حيوية وكسر للملل. أما بالنسبة لآنا، في خلال نوبة المراقبة هذه، يمر كل يوم كخط واحد لا ينتهي.

قبلت الطفلة ملعقة من الماء وكأنها نبيذ غالي

الثمن. سألتها ليب:

-ما الشيء المميز في الماء؟

ارتبكت آنا. رفعت ليب الكوب بيدها، وقالت:

-ما الفرق بين الماء وهذا الحليب؟

ترددت آنا، كما لو كان هذا لغزًا آخر. قالت:

-لا يوجد شيء في الماء..

-لا يوجد شيء في الحليب إلا الماء وخير العشب الذي أكلته البقرة.

هزت آنا رأسها، بابتسامة بسيطة.

توقفت ليب عن مناقشة الموضوع لأن كيتي كانت قادمة لتأخذ الصينية.

ظلت تنظر نحو الطفلة التي كانت تطرز زهرة على زاوية المنديل. رأسها منحنية فوق الغرز، وطرف لسانها يظهر للخارج، تمامًا كما تفعل الفتيات الصغيرات عندما يجتهدن في عمل شيء.

بعد العاشرة تقريبًا، طرق باب المنزل، سمعت ليب صوت أحاديث من بعيد. ثم طرقت روزالين أودونيل على باب غرفة النوم ونظرت من وراء الممرضة. قالت:

-هناك ضيوف آخرون لكِ، حبيبتي. حوالي ستة أشخاص، وبعضهم قد جاءوا من أمريكا.

كانت حيوية المرأة الأيرلندية الكبيرة تسبب الغثيان لليب؛ فهي تشبه فتاة شابة ترقص لأول مرة في حياتها! قالت:

-ينبغي أن يكون واضحًا، أنه يجب تعليق مثل هذه الزيارات، يا سيدة أودونيل.

هزت الأم رأسها فوق كتفها، ونظرت للوراء نحو الغرفة الجيدة، وقالت:

-لماذا؟ هؤلاء الأشخاص يبدو أنهم صالحين!

-لكن المراقبة تتطلب ظروفًا منظّمة وهدوءًا.. وبدون أي فرصة للتحقق مما قد يحمله الزائرون..

قاطعتها المرأة:

-يحملون ماذا؟

-حسنًا، طعام.

ضحكت روزالين أودونيل وهي تقول:

-قطعًا هناك طعام في هذا المنزل من دون أن يرسله أحد عبر المحيط.. علاوةً على ذلك، أنا لا ترغب في الطعام. ألم ترِ دليلًا على ذلك حتى الآن؟!

-مهمتي هي التأكد ليس فقط من عدم تمرير أي شيء للطفلة، ولكن أيضًا من عدم إخفاء أي شيء يمكنها أن تجده لاحقًا.

-ولماذا يفعلون ذلك وقد جاءوا كل هذا الطريق لرؤية الطفلة المعجزة التي لا تأكل؟ عضّت السيدة أودونيل شفتيها بقوة، وأردفت: «على أي حال، ضيوفنا في المنزل بالفعل الآن، ومن المتأخر جدًا طردهم دون أن يسبب لهم ذلك إساءة بالغة».

في هذه اللحظة، فكرت ليب في أن تقف بظهرها على باب غرفة النوم. تلاقت عيون المرأة الضيقة بعيون ليب في تحدٍ.

قررت ليب الاستسلام حتى تتمكن من التحدث إلى الدكتور ماكبرارتي. **(من الأفضل أن تخسر معركة لتكسب الحرب)!** قادت آنا إلى الغرفة الجيدة، واتخذت مكانًا مباشرًا خلف كرسي الطفلة.

كان الزائرون؛ رجلًا من ميناء ليمريك الغربي، مع زوجته وأقاربها، بالإضافة إلى أم وابنتها من معارفهم أتوا من الولايات المتحدة. تطوعت السيدة الأمريكية العجوز بإخبار الموجودين أنها وابنتها

كانتا روحانيتين. قالت: «نحن نؤمن بأن الأموات يتحدثون إلينا». فأومأت آنا برأسها كأنها تؤمن بذلك.

انحنت السيدة لتمسك أصابع الفتاة، وهي تقول: «حالتك يا عزيزتي، تبدو لنا أروع دليل على قوة العقل».

قالت ليب على الفور: «بدون لمس من فضلك»! رجعت الزائرة إلى الوراء.

أدخلت روزالين أودونيل رأسها من الباب لتقديم فنجان من الشاي. كانت ليب مقتنعة بأن المرأة تحاول أن تثير غيظها. قالت: «الأطعمة ممنوعة»!

كان أحد السادة يستجوب آنا حول تاريخ آخر وجبة تناولتها. أخبرته: «السابع من أبريل».

-هذا كان عيد ميلادك الحادي عشر؟

-نعم، سيدي.

-وفي ظنك كيف نجحتِ في البقاء على قيد الحياة حتى الآن؟

توقعت ليب أن تهز الفتاة كتفها أو تقول إنها لا تعرف. بدلًا من ذلك، هممت شيئًا يبدو وكأنه «ماما».

قالت المرأة الأيرلندية: «تحدثي بصوتِ أعلى، يا صغيرتي»، قالت الفتاة:

-أعيش على منّ السماء.

قالتها ببساطة كما لو كانت تقول: «أعيش على خير مزرعة والدي»!

أغمضت ليب عينيها لحظة قصيرة حتى لا تُظهر عدم تصديقها لذلك. كررت الروحانية الصغيرة للكبيرة: «منّ السماء.. تخيلي ذلك»!

الآن، بدأ الزائرون في استخراج الهدايا؛ من بوسطن، أهدوها لُعبة عبارة عن قرص دائري، تكون

صورًا عند لف القرص. ترى هل تمتلك أنا شيئًا مشابهًا؟

أجابت آنا:

-ليس لدي أي ألعاب!

أعجبهم الجاذبية في صوتها. أوضح لها ذلك الرجل من ليمريك كيفية لف القرص بواسطة الحبلين، أدار القرص بحيث امتزجت الصورة على الجانبين داخل صورة واحدة. تعجبت آنا وقالت: «الطائر في القفص الآن»!

صاح الرجل:

-أها.. مجرد خُدعة!

تباطأ القرص وتوقف، فأصبح القفص الفارغ في الخلف، والطائر في الجانب الأمامي يطير بحرية.

بعد أن قدمت كيتي الشاي، قدمت زوجة الرجل شيئًا أكثر إثارة: جوزة انفجرت في يد آنا وخرج منها كرة متجعدة تحوي زوجًا من قفازات صفراء رقيقة للغاية. قالت السيدة، وهي تعبث بهما: «يشبهان جلد الدجاج.. كان الطلب عليها شديدًا عندما كنت طفلة. لا يتم تصنيعها في أي مكان في العالم سوى في ليمريك. لقد حافظت هذا الزوج من القفازات لنصف قرن دون أن يتمزق».

ارتدت آنا القفازات، إصبعًا بإصبع؛ كانت طويلة، لكن ليس كثيرًا. قالت المرأة: «ليباركك الرب، يا طفلتي، ليباركك الرب»!

بعد أن انتهوا من الشاي، لفتت ليب نظرهم بلهجة حادة عن ضرورة أن ترتاح آنا الآن. سألت السيدة التي أعطتها القفازات:

-هل يمكنك الصلاة قليلًا معنا أولًا؟

نظرت آنا نحو ليب، التي شعرت أنها يجب أن

توافق لها ولو بإماءة برأسها. بدأت الفتاة في الصلاة:

يا يسوع.. أيها الطفل المتواضع الرحوم..

انظر إليّ، أيها الطفل الصغير..

ترأف على أحبائي، وترأف عليّ..

لتأتِ أمامك كل آلامي.

هتفت السيدة العجوز: «رائعة»! وأرادت أن تترك لها بعض الحبوب، لكن آنا هزت رأسها رافضة. قالت السيدة:

-آه، احتفظي بها..

همست ابنة السيدة بأذنها قائلة:

-لا يمكنها أخذهم، يا أمي.

-لا أظن أن امتصاصها تحت اللسان يعتبر مثل الطعام تمامًا..

قالت آنا:

-لا، شكرًا.

عندما غادر الزائرون، استمعت ليب إلى صوت القطع المعدنية وهي تتداعى في صندوق المال. كانت روزالين أودونيل تنتشل إناءً من قلب النار الخافتة وتبعد الرماد عن غطائه، تمسكه بيديها بقطعتي قماش باليتين، رفعت الغطاء وأخرجت رغيفًا مستديرًا مع صليب مرسوم على الجزء العلوي.

رأت ليب أن كل شيء هنا ذو طابع ديني. أيضًا، بدأت تفهم لماذا تذوق في كل وجبة طعمًا مثل التربة المتعفنة. إذا بقيت هنا لأسبوعين كاملين، فسوف تكون قد استهلكت كمية كبيرة من الروث المحترق؛ أفسدت هذه الفكرة طعم الأكل في فمها.

قالت للأم بنبرتها الحازمة: «سيكون هؤلاء هم اخر

الزوار المسموح لهم بالدخول».

كانت آنا تتكأ على الباب الموارب، تراقب الزوار وهم يستقلون عربتهم.

انتصبت روزالين أودونيل وقالت وهي تهز تنورتها بغضب: «حسن الضيافة شيء مقدس بالنسبة للأيرلنديين يا سيدة رايت! إذا طرق أحد الباب، يجب علينا أن نفتح ونطعمهم ونأويهم، حتى إذا كانت أرضية المطبخ مكدّسة بالأشخاص النائمين». كانت تمد ذراعيها على اتساعهما وهي تتكلم، لتعبر عن كثرة جموع الضيوف الخياليين.

قالت ليب:

-تبًا للضيافة! هذه ليس مسألة استضافة فقراء أو محتاجين..

-أغنياء أو فقراء، نحن جميعًا متساوون في نظر الله.

دفعت نبرة التقوى والتدين هذه ليب لحافة التوتر. قالت: «هؤلاء الناس هم متطفلون. متحمسون جدًا لرؤية ابنتك تعيش بدون طعام، لدرجة أنهم مستعدون لدفع المال مقابل هذا الامتياز»!

كانت آنا تلُف قرص اللُعبة والضوء ينعكس عليه. عضت السيدة أودونيل شفتيها. قالت: «إذا كان هذا المشهد يحركهم للإحسان، فما الخطأ في ذلك؟

في تلك اللحظة، اقتربت الطفلة من والدتها وسلمتها الهدايا. تساءلت ليب، هل كانت تحاول صرف انتباه السيدتين عن الشجار؟

قالت روزالين

-أهه، بالطبع هذه لك، حبيبتي!

هزت آنا رأسها. «ألم يقل السيد ثاديوس أن الصليب الذهبي، الذي تركته السيدة الأخرى ذاك

اليوم، قد يجلب مبلغًا جيدًا للمحتاجين؟

قالت والدتها: «لكن هذه مجرد لُعب.

أدارت الجوزة في راحة يدها وقالت: «حسنًا، هذه القفازات في الصدفة، ربما يمكن بيعها...».

قالت الأم: «احتفظي بهذه بالطبع. ما الضرر في ذلك؟ ما لم تر السيدة رايت شيئًا آخر!

أمسكت ليب لسانها عن الرد.

ذهبت إلى داخل غرفة النوم وراء الفتاة، وفحصت جميع الأسطح مرة أخرى، تمامًا كما فعلت بالأمس؛ الأرضية، صندوق الكنز، الخزانة، الفراش.

سألت آنا، وهي تلُف قرص اللُعبة بين أصابعها:

-هل أنتِ غاضبة؟

-بسبب لُعبتكِ؟ لا، لا.

ما زالت آنا طفلة، على الرغم من كل الوضع السوداوي الذي تعيش به.

-بسبب الزائرين، إذا؟

-حسنًا، هم في قلوبهم لا يريدون مصلحتكِ

دق جرس المطبخ ونزلت آنا على الأرض. (لا عجب إذا كانت ساقا الطفلة ترتجفان). تمضي الدقائق بينما تملأ صلاة الملائكة الأجواء. شعرت ليب كما لو كانت محبوسة في ديرا!

ختمت آنا الصلاة قائلة: **«بالمسيح ربنا، آمين»**.. ثم نهضت وأمسكت بظهر الكرسي. سألتها ليب:

هل تشعرين بدوار؟

هزت آنا رأسها وعدلت شالها.

-كم مرة يجب أن تفعلوا ذلك؟

في الظهر فقط، من الأفضل أن نقولها في السادسة صباحًا وفي المساء أيضًا، ولكن أمي وأبي وكيتي

مشغولون جدًا.

في الأمس ارتكبت ليب خطًا عندما قالت للخادمة إنها يمكنها الإنتظار لتناول العشاء. هذه المرة ذهبت إلى الباب وأخبرتهم أنها ترغب في شيء لتأكله.

أحضرت كيتي بعضًا من جُبن الكريمة الطازجة؛ لا بد أن هذا هو السائل الأبيض الذي كان يقطر من الكيس المغلق بين الكراسي الليلة الماضية. الخبز لا يزال دافئًا، لكن شعرت ليب أنه كان ممتلئًا بنخالة الدقيق. يبدو أن هذه العائلة يجب أن يتناولوا ما تبقى من الدقيق في قاع صندوق الطعام، في انتظار موسم بطاطا الخريف الجديدة!

على الرغم من أنها اعتادت على تناول الطعام أمام آنا حتى الآن، إلا أنها لا تزال تشعر وكأنها خنزيرة بلا ذوق!

بعد أن انتهت ليب من طعامها، حاولت البدء في قراءة الفصل الأول من رواية «آدم بيد»، واندهشت عندما طرقت الراهبة الباب في الساعة الواحدة، إذ كادت تنسى أن وقت عملها ينتهي الآن!

قالت آنا وهي تلُف قرص اللُعبة:

-انظري، أخت مايكل..

-يا له من شيء رائع!

أدركت ليب أنها والممرضة الأخرى لن يحظيا بلحظة واحدة على انفراد في هذه النوبة أيضًا. اقتربت منها حتى صار وجهها بجانب غطاء الرأس الذي ترتديه الراهبة، وهمست:

-لم ألاحظ شيئًا غير عادي حتى الآن. وأنت؟

ترددت الراهبة قليلًا وقالت:

-لا يجب علينا التشاور.

-نعم، لكن...

-الدكتور ماكبرارتي قال بوضوح شديد أنه لا يجب أن يكون هناك تبادل آراء.

همست ليب بغضب:

-لستُ أطلب رأيكِ، يا أخت مايكل! أريد فقط المعلومات العادية. فهل يمكنك أن تؤكدي لي أنك تحافظين على مراقبة دقيقة لأي إخراج، على سبيل المثال؟ أي فضلات صلبة.

بصوت خافت جدًا، أجابت الراهبة:

-لم يحدث شيء من هذا القبيل.

أومأت ليب برأسها. وقالت: «لقد شرحت للسيدة أودونيل أنه لا يجب أن يكون هناك أي اتصال مع الفتاة بدون مراقبة»، ثم أردفت: «عناق واحد عند الاستيقاظ، على سبيل المثال، وآخر عند الذهاب إلى الفراش. وأيضًا، لا يجب أن يدخل أفراد العائلة غرفة آنا عندما لا تكون هناك ممرضة».

ظلت الراهبة صامتة، كالحانوتي المستأجر في جنازة.

غادرت ليب ومشت على الطريق الوَسِخة، المليئة بحفر تسربت إليها مياه المطر الليلة الماضية، وتنعكس عليها زرقة السماء. وهي تسير وصلت إلى استنتاج، أنه بدون ممرضة أخرى تعمل وفقًا لمعاييرها العالية -التي هي معايير الآنسة «ن»-، فإن عملية المراقبة بأكملها ستكون معيبة!

قد يذهب كل هذا العناء والتكاليف أدراج الرياح بسبب عدم اليقظة الكاملة في مراقبة هذه الطفلة الماكرة. وهي لم تر أي دليل حقيقي على خداع الفتاة حتى الآن، باستثناء الكذبة الكبيرة الوحيدة، وبالطبع هي زعمها بأنها تعيش بدون طعام.

(المنّ من السماء)، هذا ما نسيت أن تسأل عنه

الأخت مايكل. قد لا يكون لديها الكثير من الثقة في حكم الراهبة، ولكن بالتأكيد هي تعرف كتابها المقدس جيدًا.

شعرت ليب بحرارة الجو في فترة ما بعد الظهر، لذا قامت بخلع عباءتها وحملتها على ذراعها. وعدّلت شكل ياقتها. تمنت أن تكون ملابسها أخف وأقل إحكامًا.

في غرفتها أعلى دكان المشروبات الروحية، بدّلت ملابسها بزي أخضر بسيط. لكنها لم تحتمل البقاء في الداخل، حتى ولو للحظة واحدة؛ فقد قضت نصف اليوم بالفعل محبوسة داخل البيت.

في أثناء نزولها السُلم، رأت رجلين يحملان شكلًا يشبه نعشًا متواضعًا عبر الممر، فارتجفت. قالت ماجي:

-معذرةً يا سيدة رايت.. سيتم نقله بعيدًا عن طريقك في خلال لحظات.

راقبت ليب الرجلين وهما يجرّان التابوت الغير مصقول حول الطاولة.

أوضحت الفتاة:

-والدي يعمل في مجال التجهيزات الجنائزية أيضًا، لأن لديه بعض العربات المتاحة للإيجار.

إذنْ هذه العربة التي تقف أمام المبنى لم تكن للأعمال التجارية فقط، ويستخدمونها لحمل النعوش عند الحاجة! لقد صدم ليب هذا الخليط غير المتوافق من الخدمات والأعمال التي يقدمها مبنى «رايان». «يا له من مكان كئيب»!

أومأت ماجي برأسها عندما أُغلق الباب وراء التابوت. قالت:

-كان العدد ضعف ذلك قبل الوقت العصيب.

تساءلت ليب إذا كانت «الأوقات الصعبة» تشير إلى الأشخاص في القرية أم في البلاد، أو ربما في جميع أنحاء أيرلندا! كان ذلك منذ حوالي عشرة أو خمسة عشرة سنة، في أثناء وقت المجاعة. حاولت أن تتذكر التفاصيل. عادةً ما تتذكر فقط أجزاء صغيرة من العناوين البارزة من الأخبار القديمة.

عندما كانت صغيرة، لم تقرأ الصحف باهتمام؛ بل فقط تلقي نظرة سريعة عليها وتطوي صحيفة «تايمز»، وتضعها بجانب طبق الطعام كل صباح، كان ذلك في خلال العام الذي كانت ماتزال متزوجة.

تذكرت الفقراء الذين رأتهم في الطريق. سألت ماجي:

-في الطريق إلى هنا، رأيت العديد من النساء وحدهن مع أطفالهن..

-نعم، العديد من الرجال قد غادروا لموسم الحصاد في طريقك..

فهمت ليب أنها تقصد إنجلترا.

-ولكن معظم الشباب يصرون على الهجرة إلى أمريكا، وبعد ذلك لا يعودون إلى الوطن.

أشارت بذقنها باتجاه الشباب الذين بدوا كأنهم غير مرتبطين بهذا المكان، كما لو كانت تعبر عن الاستغناء عنهم.

خمنت ليب من ملامح وجه ماجي أنها لا يمكن أن تكون أكبر من العشرين عامًا. سألتها:

-وأنت، ألا تفكرين في الأمر؟

قالت وصوتها يعبر عن الاستسلام أكثر منه عن الحنين:

-بالطبع لا يوجد مكان مثل الوطن، كما يقولون.

طلبت منها ليب أن تصف لها الاتجاهات إلى منزل

الطبيب ماكبرارتي.

كان منزله هو ذاك البيت المميز في نهاية الشارع، بعيدًا على طريق أثلون. أما خادمته، فتبدو عجوزًا مثل سيدها.

أزال ماكبرارتي نظارته الثُمانية الشكل، وهو يقف.

قالت ليب في نفسها: «يا له من هُراء! هل يظن نفسه أنه سيبدو أصغر حين يخلع نظارته»!

-مرحبًا سيدة رايت. كيف حالك؟

كانت ليب منزعجة، وفكرت أن تخبره بأنها، مُحبطة.. مُحبطة من كل الجهات!

سألها بينما يجلسان:

-هل هناك أمر طارئ يجب الإبلاغ عنه؟

-طارئ؟ ليس بالضبط.

-إذَنْ لا يوجد أي ملاحظة تؤكد وجود احتيال في الأمر، أليس كذلك!

راجعته ليب قائلة

-بل لا يوجد دليل أكيد حتى الآن، لكنني اعتقدت أنك ربما قد زرت مريضتك لترى بنفسك!

احمرت وجنتيه المتهدلتين، وقال:

-أوه، أؤكد لكِ أنني منشغل بالصغيرة آنا طوال الوقت. في الواقع، أنا مهتم جدًا بشأن المراقبة، لدرجة أنني فكرت أنه من الأفضل أن أختفي من المشهد، حتى لا يدّعي أحد لاحقًا أنني أثرت على نتيجة تقاريركما.

أطلقت ليب تنهيدة صغيرة. يبدو أن ماكبرارتي لا يزال يفترض أن الأيام ستثبت أن الطفلة الصغيرة هي معجزة العصر!

-أنا قلقة بشأن آنا لأن حرارتها منخفضة، خصوصًا

في أطرافها.

حك ماكبرارتي ذقنه:

-هذا مثير للاهتمام!

-بشرتها ليست جيدة، ولا أظافرها، ولا شعرها..

بدت هذه الأمور كشيء تافه في مجلة من مجلات الجمال. تابعت ليب:

-وهناك شعر ناعم ينمو في جميع أنحاء جسدها. وما يقلقني أكثر هو الانتفاخ في ساقيها، ووجهها ويديها أيضًا، ولكن الساقين السفليتين هما الأسوأ. لذلك، لجأت إلى ارتداء أحذية أخيها القديمة.

-أه، نعم، كانت آنا تعاني من الوذمة لفترة طويلة. ومع ذلك، لا تشكو من الألم.

-حسنًا، هي لا تشكو على الإطلاق!

أومأ الطبيب كما لو أن ذلك أكد رأيه بخصوص الفتاة. قال:

-الأعشاب الطبية علاجها مثبت وفعّال لاحتباس السوائل، لكن بالطبع لن تتناول أي شيء عن طريق الفم. يمكن اللجوء إلى حمية جافة..

ارتفع صوت ليب:

تقليل كمية السوائل أكثر من ذلك؟! هي لا تشرب سوى بضع ملاعق من الماء على مدار اليوم.

مرر دكتور ماكبرارتي أصابعه على شاربيه:

-أعتقد يمكنني تقليل حجم ساقيها تلقائيًا..

هل يقصد بالنزيف؟ أم بوضع البراغيث على جسدها لتمص دمها؟! تمنت ليب لو لم تقل كلمة لهذا الرجل العجوز العتيق.

-لكن هذا له مخاطره. لا، لا، من الأفضل أن نراقب الحالة وننتظر.

ظلت ليب تشعر بعدم الارتياح، لكنها افترضت على أية حال، إذا كانت صحة آنا تتعرض للخطر، فالذنب ليس ذنبها، بل ذنب من يحثها على ذلك.

سأل الطبيب:

-هي لا تبدو كطفلة لم تأكل منذ أربعة أشهر، أليس كذلك؟

-هي بعيدة عن ذلك.

-هذا شعوري تمامًا! شيء غريب ورائع!

فهم الرجل العجوز الأمر بشكل خاطئ. كان يتعامى عن عمد عن فهم الاستنتاج الواضح: إن الطفلة تتلقى الطعام بطريقة أو أخرى!

-دكتور، إذا كانت آنا حقًا لا تتناول أي طعام على الإطلاق، هل تعتقد أنها ستكون قادرة حتى على رفع يدها الآن؟ ثم أضافت ليب، كمحاولة لتقديم اعتراف بخبرته الكبيرة: «بالطبع لا بد وأنك رأيت العديد من مرضى المجاعة في خلال فترة نقص البطاطا، أكثر مني بكثير..».

هز ماكبرارتي رأسه، وقال: «نعم، وتصادف أنني كنت في جلوسترشير في ذلك الوقت. وورثت هذا المنزل قبل خمس سنوات فقط، لكنني لم أستطع تأجيره، لذا فكرت في العودة وممارسة المهنة هنا». ثم نهض كما لو أن مقابلتهما قد انتهت.

لكن ليب استمرت في الحديث بعجالة:

-كما أنني لا أستطيع القول، بأنني أملك ثقة كبيرة في زميلتي الممرضة. لن يكون من السهل الحفاظ على اليقظة الكاملة في خلال النوبات الليلية بشكل خاص.

-ولكن الأخت مايكل مخضرمة في التمريض؛ لقد عملت كممرضة في المستشفى الخيري في دبلن

لمدة اثنتي عشرة عامًا.

حسنًا، لماذا لم يفكر أحد في إخبار ليب بهذا؟! ثم أضاف الطبيب: «وفي دار الرحمة، يقومون لأجل الصلاة المسائية في منتصف الليل، على ما أظن، ومرة أخرى لصلاة التسبيح عند طلوع الفجر».

قالت ليب وهي تشعر بالحرج: «فهمت. حسنًا، المشكلة الحقيقية هي أن الظروف في هذا الكوخ غير صحية أو عملية تمامًا. ليس لدي وسيلة لوزن الطفلة، ولا يوجد مصابيح لتوفير الضوء الكافي. كما يمكن الوصول بسهولة إلى غرفة آنا من المطبخ، لذا يمكن لأي شخص أن يدخل عندما اصطحبها للنزهة في الخارج.. بدون أوامرك، لن تسمح لي السيدة أودونيل حتى بإغلاق الباب أمام المتطفلين، وهذا يجعل من الصعب مراقبة الطفلة بشكلٍ كافٍ. هل يمكنني الحصول منك على تأكيد بعدم السماح بدخول الزائرين؟

-بالتأكيد، نعم!

مسح ماكبرارتي قلمه على قماشة، وأخذ ورقة جديدة، وراح يبحث في جيب صدريته. قالت ليب:

-ربما تقاوم الأم مسألة منع الزيارة، بالطبع، بسبب فقدان المال.

حدَق الرجل العجوز بعينيه المصابتين بالجفاف واستمر بالبحث في جيبه:

-لكن التبرعات تذهب كلها إلى صندوق الفقراء، الذي أعطاه السيد ثاديوس لعائلة أودونيل. لست تفهمين هؤلاء الناس إذا كنت تعتقدين أنهم سيحتفظون بأي شيء.

فغرت ليب فمها بتجاهل. سألته: «هل تبحث عن نظارتك؟ وأشارت إلى مكانها بين أوراقه.

-أها، حسنًا جدًا!

وضع ذراعه على أذنه وبدأ في الكتابة. «هل لي أن أسأل، كيف ترين أنا بشكل عام؟

-بشكل عام؟ أتقصد شخصيتها؟ حسنًا، أظن أنها لطيفة..

كانت ليب حائرة في وصفها.. فهي تبدو **(فتاة لطيفة، لكنها في داخلها مخادعة بأقصى درجة)**. لكنها قالت عوضًا عن ذلك:

-لطيفة، أليس كذلك؟ هي هادئة بشكل عام.. هذا ما تصفه الآنسة نايتينجيل بشخصية هادئة، يتجمع فيها كل الصفات تدريجيًا».

ابتهج ماكبرارتي عند ذكر اسم الانسة نايتينجيل، لدرجة أن ليب تمنت لو لم تذكر هذا الإسم من الأساس! وقّع على الورقة، ثم طواها وأمسك بها:

-هل يمكنك تسليمها لعائلة أودونيل من فضلك؟ هذه لوقف الزيارات بدءًا من عصر اليوم.

-أوه، بالتأكيد!

خلع نظاراته مرة أخرى، ثم طوى نصفها بأصابع مرتجفة:

-بالمناسبة، توجد هنا مقالة مثيرة في آخر عدد من صحيفة التلغراف.

فتّش بين الأوراق على مكتبه دون أن يجد ما كان يبحث عنه. ثم أردف: «يذكر الكاتب عدة حالات سابقة لـ›الفتيات الصائمات‹ اللاتي عشن بدون طعام، على الأقل - كان يقال هكذا عنهن - في بريطانيا وخارجها على مر القرون».

-حقًا!

لم تسمع ليب أبدًا بهذه الظاهرة من قبل.

-الكاتب يقترح أنهن ربما كنّ - حسنًا، دون أن أعؤل

على هذا الرأي - أنهن يستعدن، أو يعشن على دورة الحيض الخاصة بهن!

ما هذه النظرية المقززة! علاوةً على ذلك، هذه الطفلة لم تتجاوز الحادية عشرة. قالت ليب:

-في رأيي، آنا ليست قريبة من سن البلوغ.

-آه، صحيح!

بدا ماكبرارتي محبطًا. ثم امتعض بشفتيه:

-ربما لم أكن محظوظًا بمواجهة مثل هذه الحالة، عندما كنت في إنجلترا!

بعد مغادرتها منزل الطبيب، سارت ليب بخطى سريعة، حاولت أن تخفف من تيبس ساقيها، وتتخلص من أجواء ذلك الحديث العفِن.

سارت في طريق يقود نحو تجمُّع من الغابات الصغيرة. لاحظت ورق الأشجار مثل أوراق البلوط ولكن الفروع أكثر استقامة من شجر البلوط الإنجليزي. كانت الأسوار مغطاة بأشواك الحنطة، اشتمت رائحة الزهور الصغيرة الصفراء. كانت هناك أزهار وردية متدلية، لا شك لو كانت آنا أودونيل هنا لعرفت اسمها. حاولت ليب تحديد بعض الطيور التي تغرد في الأشجار، ولكن صوت التغريد المنخفض لطائر اللوتوس كان الوحيد الذي تتأكد من معرفته - صوته كصوت بوق لسفينة غير مرئية وسط الضباب.

كان هناك شجرة واحدة تبرز في خلفية حقل؛ شيء غريب يتدلى من فروعها. سارت ليب في الطريق على طول الحافة الخارجية للحقل، - وعلى الرغم من أن حذائها كان موحلًا بالفعل، لم تكن تعرف لماذا تهتم بأن تسير بحذر-! كانت الشجرة أبعد مما تظن بمسافة كبيرة، حيث تنتهي منطقة

الحقول المزروعة.

بعد أن مرت بترسيبات من الحجر الجيري الرمادي المتصدع بسبب الشمس والمطر، عندما اقتربت، رأت أنها شجرة زعرور، وكانت الفروع الجديدة تتلون بالأحمر والأوراق لامعة. ولكن ما الشرائط التي تتدلى من الفروع الوردية؟ طحالب؟ لا، ليست طحالب. صوف؟

كادت ليب أن تتعثر في بركة صغيرة بين الشقوق الصخرية، وكان هناك فراشات زرقاء متشبثة بعضها البعض على ارتفاع بضع بوصات فوق الماء. هل يمكن أن يكون هذا ينبوعًا؟ يوجد شيء مشابه لنبات الحويصلة على حافة البركة. شعرت ليب فجأة بالعطش الشديد، لكن عندما انحنت، اختفت الفراشات الزرقاء، وبدت المياه سوداء كالتربة العفِنة. جمعت بعض الماء في راحتي يدها. ووجدت رائحة تشبه رائحة القطران، لذا ابتلعت عطشها وتركت الماء يتسرب من يدها مرة أخرى!

عندما نظرت إلى شجرة الزعرور، اكتشف أنه لم يكن هناك صوفًا معلق على الفروع؛ بل شيء وضعه شخصَ ما على شكل شرائط. كان الأمر غريبًا؛ ربما قطع قماش أو شالات، تم ربطها على الشجرة لفترة طويلة، لذا كانت رمادية وبالية.

عادت إلى نزل «رايان»، وفي غرفة الطعام الصغيرة، وجدت رجلًا ذا شعر أحمر، ينتهي من أكل قطعة لحم، ويدون بكتابة سريعة، في دفتر مذكرات يشبه الذي لديها كثيرًا. قفز من مكانه وقال: «أنت لست من هذه المنطقة، يا سيدتي»!

كيف استطاع معرفة ذلك؟! هل من خلال فستانها الأخضر البسيط، أم مظهرها؟ كان الرجل يتقارب معها في الطول، لكنه يصغرها بعدة سنوات، له

بشرة أيرلندية ناصعة البياض، والتي تظهر بوضوح مع الشعر المجعد الملون، وله لهجتهم، لكن لغته تبدو كرجل متعلم.

-أنا ويليام بيرن من صحيفة آيريش تايمز.

قبلت ليب مصافحته:

أها، الكاتب الذي ذكره المصور! مرحبًا، أنا السيدة رايت.

-هل تودين التجول حول معالم أوساط البلاد؟

لم يخمن لماذا كانت هنا! إذن؛ لا بد أنه اعتبرها سائحة!

-هل هناك أي معالم؟

كان سؤالها يحمل سخرية.. ضحك بيرن وقال:

-حسنًا، الآن، يعتمد الأمر على مدى شغفك بالأجواء الغامضة في الآثار القديمة، مثل؛ الدوائر الحجرية، والحصون المستديرة، أو المقابر الدائرية.

-لست أعرف الثانية أو الثالثة!

عبّر بيرن عن استغرابه! قالت ليب:

-هل جميع المعالم الهامة في هذه المناطق صخرية ودائرية؟

-باستثناء الأخيرة، فتاة ساحرة تعيش على الهواء!

انتفضت ليب بتوتر.

-هي ليست ما أعتبره أخبارًا ذات أهمية، ولكن محرّر الجريدة في دبلن يظن أنها ستكون مناسبة لشهر أغسطس. ومع ذلك، كُسرت ساق دابتي في حفرة خارج مولينجار، واضطررت لرعايتها لمدة ليلتين حتى تعافت. والآن، بعد أن وصلت إلى هنا، رفضت عائلة أودونيل دخولي إلى محل إقامة الفتاة المتواضعة!

شعرت ليب بانزعاج ملحوظ؛ خمنت أنه ربما يكون قد وصل بعد الرسالة التي أرسلتها إلى عائلة أودونيل مباشرةً. ولكن المزيد من الدعاية لهذه الحالة سيزيد من انتشار الأوهام، ولن يفيد في مراقبة الطفلة، سوى بالمزيد من التدخل الفضولي لصحفي جريدة.

كانت ليب تود أن تعتذر، وتذهب إلى الطابق العلوي قبل أن يتحدث بيرن عن أي شيء آخر بخصوص آنا أودونيل، لكنها كانت بحاجة إلى تناول عشاءها. سألته:

-ألم يكن بإمكانك ترك دابتك واستئجار أخرى؟

-تشككت في أنهم ربما سيطلقون النار على بولي، بدلًا من إطعامها بالغذاء الساخن كما أفعل لها..

ابتسمت عندما فكرت في شكل الصحفي وهو في إسطبل الأحصنة!

اشتكى بيرن قائلًا:

-عدم احتفائي بالفتاة المعجزة هو الكارثة الحقيقية. لقد كتبت مقالًا لاذعًا وأرسلته للجريدة بالتلغراف. ولكن الآن عليّ أن أعد تقريرًا كاملًا وأرسله بواسطة ساعي البريد الليلة.

هل يتحدث هذا الرجل دائمًا بحرية مع الغرباء؟ لم تستطع ليب أن تفكر في أي شيء لتقوله، فقط سألته، «لماذا لاذعًا؟

-حسنًا، لأنه يُشكك في مصداقية هذه العائلة. لكن، أليسوا كذلك! وإلا، لماذا لم يسمحوا لي حتى بالدخول من الباب. بالتأكيد يخشون من مجرد أن ألقي نظرة على معجزتهم العجيبة!

لم يكن من العدل عدم توضيح موقف عائلة أودونيل، لكن ليب لم تستطع أن تخبره، أنه كان

يتحدث إلى نفس الشخص الذي أصر على منع الزيارات. وقعت عيناها على ملاحظاته. قرأت:

كم هي كبيرة سذاجة الإنسان، وبخاصة، عندما تقترن بجهل لا حدود له!

لكن كما قال بطرس، في أيام ربنا: «إذا أراد العالم أن ينخدع، دعوه ينخدع». صحيح هو قول مأثور قديم، لكنه ينطبق أيضًا على عصرنا.

أتت «ماجي رايان» بالمزيد من الجعة لأجل بيرن. قال لها:

-شرائح اللحم كانت لذيذة!

قالت باستخفاف:

-آه، الآن! حقًا إن الجوع هو أفضل توابل.

قالت ليب:

-أظن أنني سأتناول شريحة لحم.

-أكلوها جميعها يا سيدتي. يوجد لحم غنم.

وافقت ليب على لحم الغنم، لعدم وجود خيار آخر. ثم أخفت رأسها في كتاب **«آدم بيد»** على الفور، حتى لا يشعر ويليام بيرن أنه مرحب به لأن يبقى أكثر من ذلك.

عندما وصلت إلى الكوخ في تمام الساعة التاسعة، أدركت من الصوت أنهم يصلون صلاة المسبحة الوردية: **«يا مريم العذراء، أم الله، صلي من أجلنا الآن وفي ساعة موتنا، آمين».**

دخلت وجلست على أحد الكراسي ثلاثية الأرجل التي يطلق عليها الإيرلنديون اسم «creepies». يتمتم الكاثوليك مثل الأطفال وهم يمسكون خرز المسبحة. رأت رأس الأخت مايكل مرفوعة إلى أعلى. على الأقل، عيناها كانتا على الفتاة الصغيرة، ولكن هل كانت تركز عليها أم على الصلوات؟!

كانت انا ما زالت بملابس النوم. لاحظت ليب شفتيها وهي تقول الكلمات مرارًا وتكرارًا: **«الآن وفي ساعة موتنا، آمين»**. ثم أدارت نظرها نحو الأم، والأب، وقريبتهم المسكينة. تساءلت، تُرى من منهم كان يخطط لتفادي مراقبتها هذه الليلة!

سألت روزالين أودونيل بعد انتهاء الصلاة:

-هل ستبقين لتناول كوبًا من الشاي معنا يا أخت مايكل؟

-لن أبقى، سيدة أودونيل، ولكن شكرًا لك على كرم الضيافة.

فهمت ليب أن والدة آنا كانت تستعرض تفضيلها للراهبة. بالطبع سيحبون الأخت مايكل، لأنها ودودة ولا تثير استياءهم.

كانت روزالين أودونيل تستخدم مِنشال صغير لترتيب الجمر الخامد في شكل دائرة. ثم وضعت ثلاثة أعواد من الحطب وجلست بعيدًا على كعبيها، ورسمت علامة الصليب. ما إن هبت النيران، رشت بعض الرماد فوق اللهب لتخمد شدته.

انتاب ليب شعور غريب بأن الزمن يتلاشى في نفسه مثل الجمر، ففي هذه الأكواخ المظلمة، لم يتغير شيء منذ عصور ولن يتغير أبدًا. حاولت أن تتذكر، ما هي تلك الجملة في الترنيمة التي كانوا ينشدونها في المدرسة؟ **«الليل مظلم، وأنا بعيدٌ عن موطني»**.

بينما كانت الراهبة ترتدي عباءتها في غرفة النوم، سألتها ليب عن نوبة مراقبتها. وكان الرد:

-ثلاث ملاعق ماء فقط، ونزهة قصيرة. وبالنسبة للأعراض لا تسوء ولا تتحسن.

طلبت ليب بهمس:

-إذا رأيت الفتاة تقوم بأي سلوك سري، أمل أن تعتبري هذه حقيقة ذات صلة وتخبريني بها!

الراهبة أومأت مرة أخرى.

كان الأمر محيرًا؛ ما الذي يمكن أن يكون قد فاتهم؟ على أي حال، لن تكون الفتاة قادرة على الصمود لفترة طويلة. ستكشف ليب حقيقتها الليلة، كانت تشعر أنها تقريبًا واثقة من هذا.

انتهزت ليب الفرصة لتقول شيئًا آخر. همست في أذن الأخت مايكل: «إليكِ حقيقة أخرى. (منٌ من السماء)، هذا ما سمعت آنا تخبر به أحد الزائرين هذا الصباح، كانت تقول إنها تعيش على منٍّ من السماء».

قامت الراهبة بعمل إيماءة بسيطة برأسها. ترى، هل كانت مجرد إقرار بما قالته ليب، أم تأكيدًا على أن مثل هذا الشيء ممكن الحدوث؟ قالت «ليب:

-أظن أنكِ قد تعرفين المرجع الكتابي!

عقدت الراهبة حاجبيها، قالت:

-أظن أنه في سِفر الخروج.

حاولت ليب أن تفكر في بعض الملاحظات ليمتد الحديث أكثر:

-شكرًا لكِ.. ثم قالت وهي ترفع صوتها قليلًا: «لطالما أثار فضولي، لماذا يطلق عليكن، أنتن راهبات الرحمة، اسم ‹الراهبات المتجولات›؟

-لأننا نخرج إلى العالم، كما ترين يا سيدة رايت. نقوم بالنذور العادية لأي رهبانية - التواضع، العفة، الطاعة -، ولكن أيضًا النذر الرابع، وهو الخدمة.

لم تسمع ليب الراهبة تتحدث بهذا القدر من الكلام من قبل. سألت:

-ما هو نوع الخدمة؟

قطعت أنا الحديث:

-خدمة المرضى، والفقراء، والجهال.
قالت الراهبة:
-ذاكرة جيدة، يا صغيرتي. نحن نتعهد بأن نكون مفيدين للآخرين.
حين خرجت الراهبة مايكل من الغرفة، دخلت روزالين أودونيل ولكنها لم تقل كلمة. ترى، هل ترفض التحدث إلى المرأة الإنجليزية الآن، بعد الخلاف الذي حدث هذا الصباح حول مسألة الزائرين؟ تجاهلت ليب، وانحنت لتحتضن الفتاة الصغيرة بذراعيها. استمعت ليب إلى بعض الكلمات الحانية التي تميزت بها المرأة، ورأت يدي آنا السمينتين، تتدليان إلى جانبيها، فارغتين.
ثم قامت المرأة وقالت:
-أتمنى لكِ نومًا هنيئًا هذه الليلة، يا حبيبتي، ولا تأتي إلى فراشك إلا أجمل الأحلام. «ملاك الله، يا حارسي الحبيب، الذي يأتمنني الله على محبته هنا».
ثم انحنت مرة أخرى، وجبينها يتلامس مع جبين الطفلة تقريبًا. **«لتكن دائمًا إلى جانبي هذه الليلة، لتنير لي وتحرسني، لتقودني وترشدني»**.
رددت الفتاة الكلمة الأخيرة مع أمها:
-آمين.. تصبحين على خير، يا أمي.
-تصبحين على خير، يا حبيبتي.
قالت ليب بطريقة واضحة ومهذبة:
-تصبحين على خير، سيدة أودونيل.
بعد بضع دقائق، دخلت الخادمة بمصباح ووضعته. ثم أشعلت الفتيل بالكبريت حتى توهج، رسمت علامة صليب على نفسها. قالت:
-ها هو ذا، المصباح يا سيدتي.

قالت ليب:

-هذه مساعدة رائعة منك يا كيتي..

المصباح كان من النوع قديم، به فتيل يشبه عود الشواء داخل زجاجة مخروطية. ولكن لماذا لون ضوءه أبيض ساطع؟

استنشقت الرائحة وسألت:

-هذا ليس زيت الحوت؟

-إنه سائل إشعال.

-وما هو هذا السائل؟

-لا أستطيع أن أخبرك.

كان سائل الإشعال الغامض هذا يبدو كعطر شبيه بالتربنتين؛ ربما كان به كحول أيضًا.

تذكرت ليب ما تعلمته من الآنسة «ن» في سكوتاري، **«في زمن الكوارث يجب أن ننبّش في القُمامة»**؛ كان على الممرضات أن يبحثن في غرف التخزين عن ملح الليمون، ومستخلص الأفيون، والبطاطين، والجوارب، والحطب، والطحين، وأمشاط القمل... كل ما لم يتمكنّ من العثور عليه - أو لا يتمكنّ من إقناع المورّد بتسليمه لهن-، كان عليهن أن يبتكرن البديل. فالملاءات الممزقة، تستخدم كأشرطة لتضميد الجروح، والأكياس الفارغة يتم حشوها لتصبح مراتب صغيرة؛ **«الحاجة أم الاختراع»**.

قالت كيتي:

-ها هو الغطاء الزجاجي، والمقص الخاصين بالمصباح، بعد حوالي ست ساعات، عليك أن تقصّي الفتيل وتقلمي الجزء المحترق، ثم تعدين ملئه وإشعاله مرة أخرى.

ثم قالت المرأة:

-وانتبهي للتيارات الهوائية، حيث يمكن أن تنشر السخام في الغرفة مثل المطر الأسود!

كانت الطفلة راكعة على ركبتيها بجوار السرير، تضم يديها معًا وتصلي. قالت لها كيتي وهي تتثاءب بشدة: «ليلة سعيدة أيتها المحبوبة»! ثم عادت مُجهدة إلى المطبخ.

فتحت ليب صفحة جديدة، وأخذت قلمها المعدني. دونت ملاحظاتها:

الثلاثاء، 9 أغسطس، الساعة 9:27 مساءً.

*** نبض القلب: 93 نبضة في الدقيقة.**

***الرئتين: 14 نفسًا في الدقيقة.**

*** اللسان: لا تغيير.**

هذه أول نوبة عمل لها في خلال الليل. ولم تمانع أبدًا في العمل في هذه الساعات؛ كان هناك سكينة في هذا الهدوء. قامت بتمرير راحة يدها لمرة أخيرة فوق الملاءة، بحثت عن أي فتات طعام مخفي هنا أو هناك. لقد أصبح ذلك روتينًا معتادًا.

وقعت عينا ليب على الحائط المطلي بالجير الأبيض، وتذكرت وجود آثار للروث والشعر والدم، وكريمة الحليب. كيف يمكن أن يكون سطح هذا الجدار نظيفًا؟ تخيلت آنا وهي تلعق الحائط للعثور على أي شيء لتأكله، -مثل أولئك الرضَع الذين يأكلون قطعًا من الطين أحيانًا-. لكن لا، كان ذلك ستظهر آثاره على فمها بالتأكيد. بالإضافة إلى ذلك، لم تعد آنا بمفردها بعد الآن، على الأقل منذ بدأت المراقبة. والشموع، أو ملابس الفتاة، أو صفحات من كُتبها، وشظايا من جلدها - ليس لديها فرصة لتناول أيًا من هذه الأشياء في الخفاء.

أنهت آنا صلواتها بصلاة دوروثي، ثم رسمت

علامة الصليب، وصعدت أسفل الشرشف والبطانية الرمادية. وضعت رأسها على وسادة رفيعة جدًا. سألتها ليب:

-أليس لديكِ وسادة أخرى؟

قالت بابتسامة بسيطة:

-لم يكن لديّ وسادة على الإطلاق إلى أن أصبت بالسعال الديكي.

يا لها من مفارقة: تنتوي ليب كشف حيلة الفتاة أمام العالم، ولكن بذات الوقت تريدها أن تحصل على نوم جيد في خلال هذا الوقت! عادات التمريض القديمة لم تمت بداخلها بعد.

نادت عند الباب، كيتي.. عائلة أودونيل قد اختفت بالفعل، ولكن الخادمة كانت ترتب سرير قديم على أريكة خشبية. سألتها ليب:

-هل يمكنني الحصول على وسادة ثانية لآنا؟

قالت الخادمة وهي متكورة تحت غطاء قطني:

-بالتأكيد، يمكنك أن تأخذي وسادتي.

-لا، لا.. واصلي نومكِ، لم ألاحظ تقريبًا، يمكن الاستغناء عن ذلك..

أتى صوت روزالين أودونيل من الحجرة الجانبية، هكذا كانوا يسمونها: «ما الذي يحدث يا كيتي؟».

-إنها تريد وسادة أخرى للفتاة.

دفعت الأم الستارة المصنوعة من كيس الطحين جانبًا. «أليست آنا بخير؟

قالت ليب، وهي تشعر بالحرج:

-لقد تساءلت فقط إذا كان هناك وسادة إضافية!

قالت روزالين أودونيل، وهي تحمل وسادتها من الأرض، وتضع فوقها وسادة الخادمة:

-خذي الاثنتين، ثم سألت وهي تطل برأسها في غرفة النوم:

-حبيبتي، هل أنت بخير؟

قالت آنا:

-أنا بخير.

قالت ليب، وهي تأخذ وسادة كيتي:

-واحدة ستكفي.

سألت السيدة أودونيل وهي تستنشق الرائحة:

-ألا تصيبكِ رائحة ذلك المصباح بالغثيان، أو حرقان في عينيكِ؟

-لا، يا أمي.

كانت المرأة تستعرض أنها قلقة، هذا كل ما في الأمر لا أكثر، حتى تجعل الممرضة القاسية تبدو وكأنها تُلحق الأذى بالطفلة بسبب الإصرار على ضوء المصباح الساطع!

وأخيرًا أغلق الباب، وأصبحت الممرضة والفتاة بمفردهما.

قالت ليب لآنا:

-لا بد أنكِ متعبة

صمتت لبرهة ثم قالت:

-لا أعرف!

-ربما يكون من الصعب النوم، لأنك لست معتادة على نور المصباح. هل ترغبين في القراءة؟ أو أن أقرأ لكِ شيئًا؟

لا جواب.

توجهت ليب نحو الفتاة التي يبدو أنها نامت بالفعل. كانت وجنتاها بيضاء كالثلج ومستديرة كالخوخ.

«تعيش على المنّ من السماء». ما هذا الكلام الفارغ! وما هو المنّ بالضبط، هل هو نوع من الخبز؟

ربما في سفر الخروج، هذا موجود في التوراة. لكن السفر الوحيد الذي وجدته ليب من الكتاب المقدس، في صندوق الكنز الخاص بـآنا كان سفر المزامير. قلبَت صفحاته وهي تحاول المحافظة على البطاقات الصغيرة في مكانها. لم تجد أي إشارة إلى المنّ. لكن مقطع واحد جذب انتباهها: «بَنُو الْغُرَبَاءِ يَبْلَوْنَ وَيَزْحَفُونَ مِنْ حُصُونِهِمْ». ما معنى هذا بالضبط؟ على أي حال، آنا طفلة غريبة بالتأكيد. لأنها ضلّت عن الطريق الطبيعي لطفولتها، عندما قررت أن تكذب على العالم كله.

في هذه اللحظة، فكرت ليب أن السؤال الذي يجب طرحه ليس «كيف» يمكن للطفلة اختراع هذه الخديعة، ولكن (لماذا)؟ كل الأطفال يخترعون الأكاذيب بالتأكيد، ولكن على الأرجح، من يخترع مثل هذه القصة الخاصة، لن يكون سوى شخص ذو طبيعة منحرفة. وبالرغم من ذلك، لم تُظهر آنا أدنى اهتمام في كسب ثروة. ربما يتوق الشباب إلى جذب الانتباه، وربما حتى الشهرة، ولكن ما الثمن؟ معدة فارغة، وجسم يتألم، وقلق مستمر حول كيفية مواصلة الخداع؟

إلا إذا، كانت عائلة أودونيل هي التي دبرت هذه الخُطة الشريرة، وبالطبع أجبروا آنا على ذلك؛ حتى يمكنهم الاستفادة من الزائرين الذين يتوافدون على باب منزلهم. ولكنها لا تبدو كطفلة تتصرف تحت الإكراه؛ فهي لديها ثبات وهدوء في تصرفاتها، ونوع من السيطرة على النفس، غير مألوف فيمن هم بهذا السن الصغير!

الكبار قد يظهر عليهم الكذب بكل وضوح، وخاصة

عندما يتعلق الأمر بأخطاء يرتكبونها بجسدهم. من تجربة ليب، مثلًا، الذين لا يغشون حارس الحانة بفارق بسيط في الأسعار، قد يكذبون بشأن كمية البراندي الذي شربوه، أو بخصوص من دخل معهم إلى الغرف وماذا فعلوا هناك. والفتيات اللاتي يشعرن بتجاهل أعباءهن، ينفجرن في الغضب حين تظهر الآلام الشديدة عليهن. والأزواج قد يقسمون أنه لا علاقة لهم بوجوه زوجاتهم التي تم تشويهها. كل شخص بداخله مستودع أسرارا!

جذبت البطاقات المقدسة انتباهها بتفاصيلها الفاخرة - إذ لها حواف مثل الدانتيل، وبعضها - له أسماء غريبة. القديس «ألويسيوس جونزاجا»، والقديسة «كاترين» من سيينا، والقديس «فيليب نيري»، والقديسة «مارغريت» الأسكتلندية، والقديسة «إليزابيث» المجرية؛ بدت الصور مثل مجموعة من الدمى، كلٌ منها يرتدي الزي الوطني الخاص به. وكتبت آنا: **«هو يمكنه اختيار أي شخص آثم أو غير مؤمن»**. ثم وجدت ليب سلسلة كاملة عن آلام المسيح الأخيرة قبل الصلب؛ حيث كتبت آنا: **«المسيح ربنا جُرِّد من ثيابه»**.

من يستطيع تصور، أنه من الجيد وضع مثل هذه الصور المؤلمة في أيدي طفلة، فضلاً عن كونها طفلة رقيقة وحساسة؟!

إحدى البطاقات تصوّر فتاة صغيرة في قارب وحمامة فوق رأسها، عنوانها: «Le Divin Pilote». هل يعني العنوان أن المسيح كان يقود قاربها بطريقة غير مرئية؟ أم ربما كانت الحمامة هي القائد؟ ألا يصوّر الروح القدس في كثير من الأحيان على هيئة طائر؟ أم أن الشخص الذي اعتبرته ليب فتاة، هو في الواقع يسوع، بملامح طفولية وشعر

طويل؟!

الصورة التالية كانت لامرأة بثوب أرجواني، خمنت ليب أنها - العذراء مريم - تسوق قطيعًا من الخراف، للشرب من بركة ذات حافة من الرخام. يا له من مزيج غريب من الأناقة والبساطة الريفية! في البطاقة التالية، نفس المرأة تقوم بتضميد خروف ذي بطن مستديرة. لن تظل هذه الضمادة في رأي ليب! مدون على البطاقة»

Mes brebis ne périssent jamais et» «personne ne les ravira de ma main

جاهدت لتفهم الفرنسية، ربما: (شيء منها لا يموت أبدًا ولا يستطيع أي شخص خطفها من يديها)!

تحركت آنا، وتدحرجت رأسها من على الوسادتين واستقرت مائلة على كتفها. أغلقت ليب على البطاقات داخل الكتاب سريعًا. لكن آنا ظلت نائمة. يا له من وجه ملائكي! تبدو مثل جميع الأطفال في تلك الحالة الساكنة. خطوط وجهها الناعمة لا تثبت شيئًا ضدها. ذكّرت ليب نفسها؛ في أثناء النوم، حتى البالغين يبدون بريئين. كلهم مجرد قبور جميلة الشكل.

بينما تفكر في هذا الأمر، طرأ على ذهنها شيئًا: (العذراء والطفل). مدت يدها، وتجاوزت الكتب في الصندوق الصغير، ثم أخرجت شمعدانًا.

ما الذي قد تؤمن به آنا في مثل هذا التمثال المطلي بألوان الباستيل؟ هزته ليب، لكن لم يصدر أي صوت. بدا وكأنه أنبوب فارغ، مفتوح في الأسفل. حدقت نظرها داخل تجويف رأس العذراء المظلم، بغرض البحث عن أي مكان صغير يمكن تخزين الطعام به. وضعت الشمعدان عند أنفها، لم تشم أي رائحة. أدخلت إصبعها لاستكشاف شيئًا...

شيئًا يمكنها بالكاد أن تشعر به بأظفارها القصيرة. ربما كانت عبوة صغيرة؟

تذكرت المقص الموجود في حقيبتها. استخدمت الشفرات لخدش التجويف الخشن للتمثال، لتحاول استخراج ما بداخله. يبدو أنها كانت بحاجة إلى خطّاف، ولكن العثور على واحد في منتصف الليل كان شيء شبه مستحيل. خدشت التجويف بقوة أكبر...

وشهقت عندما انشطِر التمثال بالكامل فجأة إلى جزئين! انفصلت المنحوتة الخزفية؛ جزء الطفل عن جزء الأم في يديها.

في النهاية، - بعد كل هذا العناء - انفصل هذا الشيء عن مكان إخفائه. عندما فتحت ليب الورقة، كل ما وجدته كان فقط خصلة شعر؛ لونها داكن، وليست حمراء مثل شعر آنا. والورق المصفّر الملفوف حولها قد تمزق بطريقة عشوائية، كانت قُصاصة من جريدة اسمها «Freeman's Journal» تعود لنهاية السنة الماضية.

كسرت ليب واحدة من كنوز الطفلة الخاصة دون جدوى، - مثل مبتدئة غير ماهرة في أولى مهامها-. وضعت القطع مرة أخرى في الصندوق، وبينهما الحزمة التي تحتوي على خصلة الشعر. بينما ظلت آنا نائمة.

لم يكن هناك مكان آخر لتبحث به ليب، ولا شيء آخر يمكن القيام به سوى النظر إلى الفتاة مثل أي عابد يُصلي أمام أيقونة. حتى لو كانت الطفلة تحصل على قضمة هنا أو هناك، بطريقة أو أخرى، كيف يمكن أن يكفي ذلك لتخفيف آلام الجوع؟ لماذا لا يؤلمها الجوع حتى تستيقظ؟

وضعت ليب الكرسي المصنوع من الحبال، ذو

الظهر الصلب، بحيث يكون مواجهًا للسرير مباشرةً. جلست وعقدت ذراعيها لتريح كتفيها. نظرت إلى ساعتها: إنها الساعة 10:49. لم يكن هناك حاجة إلى الضغط على الزر لمعرفة الوقت، لكنها فعلت ذلك فقط لشعورها بالرغبة في النظر إلى الساعة، مر عقرب الثواني مقابل إبهامها، عشرة مرات بشكل سريع وقوي في البداية، ثم شعرت به يضعف ويتباطأ.

فركت عينيها وركزت نظرها نحو الفتاة. تذكرت ما قاله المسيح لحوارييه في الإنجيل: «**أَهكَذَا مَا قَدَرْتُمْ أَنْ تَسْهَرُوا مَعِي سَاعَةً وَاحِدَةً؟** لكنها لم تكن تسهر لأجل آنا. ولا تراقبها لحمايتها من الضرر. إنما تراقبها وحسب!

أحيانًا كانت آنا تبدو غير مستريحة، لفت نفسها في البطانية. هل تشعر بالبرد؟ لم يكن هناك بطانية أخرى؛ وهذا شيء آخر كان يجب على ليب أن تطلبه من كيتي وهي لا تزال مستيقظة. وضعت شالًا مربعًا فوق الطفلة. تمتمت آنا كما لو كانت تصلي، لكن ذلك لا يعني أنها مستيقظة. لم تُصدر ليب أي صوت، تحسّبًا لإيقاظها من النوم؛ هكذا لم تكن الآنسة «ن» تسمح للممرضات بإيقاظ المرضى، لأن الاستيقاظ المفاجئ يمكن أن يكون له تأثير ضار جدًا.

يحتاج المصباح إلى تشذيب الفتيل مرتين وإعادة التعبئة مرة واحدة؛ إنه شيء مرهق وكريه الرائحة. بعد منتصف الليل، بدا الأمر كما لو كان آل أودونيل يتحدثون بجوار المدفأة، في المكان المجاور للمطبخ. تُرى هل يراجعون مؤامرتهم؟ أم مجرد ثرثرة متقطعة، كتلك التي غالبًا ما يفعلها الناس بين نومهم الأول والثاني؟ لم تتمكن ليب من تمييز صوت كيتي؛ ربما كانت الخادمة منهكة بما فيه

الكفاية لتهرب إلى النوم من كل التعب.

في الخامسة صباحًا، عندما طرقت الراهبة على باب غرفة النوم، كانت أنا تأخذ أنفاسًا طويلة ومنتظمة مما يعني أنها في نوم عميق. انتصبت ليب إلى أعلى، متصلبة الساقين. قالت:

-الأخت مايكل!

أومأت الراهبة بسرور.

تحركت أنا والتفت في فراشها. فحبست ليب أنفاسها حتى تتأكد أن الطفلة ما زالت نائمة. همست قائلة:

-لم أتمكن من العثور على الكتاب المقدس، ما هو هذا المنّ بالضبط؟

سادت لحظة تردد صغيرة؛ كان من الواضح أن الراهبة تحاول أن تقرر ما إذا كان هذا هو النوع من الأحاديث مسموحًا به حسب التعليمات أم لا. قالت:

-إذا أتذكر بشكل صحيح، هو نوع من الطعام ينزل من السماء كل يوم لإطعام بني إسرائيل، عندما كانوا يهربون عبر الصحراء من مضايقيهم.

وبينما كانت الراهبة تتحدث، أخرجت مجلدًا أسود اللون من حقيبتها، وقلّبت صفحاته الرقيقة اللامعة. حدقت في إحدى الصفحات، ثم الصفحة السابقة، ثم الصفحة التي قبلها.. حتى وضعت إصبعها الكبير على الصفحة المقصودة. وقرأت ليب وهي تنظر من فوق كتفها: «**وَلَمَّا ارْتَفَعَ سَقِيطُ النَّدَى إِذَا عَلَى وَجْهِ الْبَرِّيَّةِ شَيْءٌ دَقِيقٌ مِثْلُ قُشُورٍ. دَقِيقٌ كَالْجَلِيدِ عَلَى الأَرْضِ. فَلَمَّا رَأَى بَنُو إِسْرَائِيلَ قَالُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «مَنْ هُوَ؟» لأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا مَا هُوَ. فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: «هُوَ الْخُبْزُ الَّذِي أَعْطَاكُمُ الرَّبُّ لِتَأْكُلُوا**».

سألت ليب:

-هو حبوب إذن؟ لكن لها قوام صلب، على الرغم من وصفها بأنها ندى؟

انتقل إصبع الراهبة إلى أسفل الصفحة ووقف عند سطر آخر: **«وَهُوَ كَبِزْرِ الْكُزْبَرَةِ، أَبْيَضُ، وَطَعْمُهُ كَرِقَاقٍ بِعَسَلٍ».**

كانت بساطة الأمر هي ما أثارت انتباه ليب، يا له من غباء! كل ما تحلم به الفتاة هو التقاط أشياء حلوة من الأرض. مثل العثور على حلوى منزل الزنجبيل في الغابة(15). هل هذا كل ما في الأمر؟!

ثم قرأت الراهبة: **«وَأَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْمَنَّ أَرْبَعِينَ سَنَةً حَتَّى جَاءُوا إِلَى أَرْضٍ عَامِرَةٍ».** ثم أغلقت الكتاب.

قالت ليب:

-إذنْ آنا أودونيل تعتقد أنها تعيش على نوع من طحين بذور سماوية..

كانت ليب تميل بشدة إلى أن تقترب منها وتقول لها:

-إعترفي يا أخت مايكل، هل يمكنك لمرة واحدة وضع تحيزاتك جانبًا وتعترفي بأن هذا كله هُراء؟

لكن هذا سيكون بالضبط نوع التشاور الذي يحظره ماكبرارتي. (خوفًا من أن تثبت الممرضة الإنجليزية مهارات عالية جدًا في التخلص من الخرافات القديمة بمكنسة المنطق)! علاوةً على ذلك، ربما من الأفضل ألا تسأل؛ كان الأمر سيئًا بما فيه الكفاية، في رأي ليب، أن تعمل كلاهما تحت إشراف طبيب مختص في الطب الغريب والشاذ.

لكن إذا تأكد شكها في أن ممرضة الرعاية الصحية المشاركة، تعتقد أن الطفلة يمكن أن تعيش على خبز

من العالم الآخر، كيف يمكن لها أن تواصل العمل مع تلك المرأة؟

في المدخل وقفت روزالين أودونيل.

قالت ليب:

-ابنتك لم تستيقظ بعد.

فولّت المرأة بعيدًا.

ثم أخبرت ليب الراهبة:

-يجب أن يظل هذا السراج مضاءً طوال الليل من الآن فصاعدًا.

-حسنًا جدًا.

وأخيرًا، بقليل من المهانة، فتحت ليب الصندوق الصغير وأشارت إلى الشمعدان المكسور. قالت:

-أخشى أن يكون هذا قد سقِط. هل يمكنك تقديم اعتذاراتي لآنا؟

حدّقت الراهبة مايكل وتمتمت بشفتيها وهي تعيد وضع الأم والطفل معًا.

أخذت ليب معطفها وحقيبتها، وغادرت.

شعرت برعشة البرد وهي تسير إلى القرية، هناك شيء معوج في عمودها الفقري. وتشعر بالجوع، فهي لم تتناول شيئًا منذ العشاء في النزل يوم أمس، وكان ذلك قبل وقت نوبة عملها الليلية، وذهنها مشوش بسبب الإجهاد. كان كل ذلك صباح يوم الأربعاء، وهي لم تنم منذ يوم الإثنين. والأسوأ من ذلك، أنها غُلبت من طفلة صغيرة!

بحلول العاشرة استيقظت ليب مرة أخرى. إذ من الصعب أن تُبقي عينيها مغمضتين مع كل ذلك الضجيج في الحانة أسفل غرفتها. حيث كان السيد رايان، صاحب النزل، ذو الوجه الأحمر، يوجّه اثنان من الصبية لنقل البراميل إلى داخل قبو منزله. سعل

على كتفها، بصوت يشبه تمزيق الورق المقوى، وقال إن الوقت قد فات ولا يوجد أي إفطار الان، لأن ابنته ماجي كان عليها أن تقوم بغلي الملاءات. هذا يعني أنه سيكون على السيدة رايت الانتظار حتى الظهر.

كانت ليب تنوي أن تطلب تنظيف حذائها، لكنها بدلًا من ذلك، طلبت قطعة قماش بالية، ومُلّمع، وفرشاة حتى تقوم بذلك بنفسها. إذا كانوا يعتقدون أن المرأة الإنجليزية متكبرة ولا تقبل أن تتسخ يديها، فهم مخطئون تمامًا!

عندما أصبح حذائها نظيفًا ولامعًا مرة أخرى، جلست تقرأ كتاب **«آدم بيد»** في غرفتها، لكن الوعظ الأخلاقي للكاتب «إليوت» بدأ يصبح مملًا، وقرقرة معدتها بدأت تزيد. دقت أجراس صلاة الملائكة في الشارع، فتحققت ليب من ساعتها، وكانت تشير إلى دقيقتين بعد الثانية عشرة ظهرًا بالضبط.

عندما نزلت إلى غرفة الطعام لم يكن هناك أحد آخر غيرها؛ لا بد أن الصحفي عاد إلى دبلن. تناولت طعامها المكون من شرائح لحم الخنزير في صمت.

عندما جاءت ليب بعد الظهر، قالت آنا:

-يومكِ سعيد يا سيدة رايت!

كانت رائحة الغرفة مزعجة بسبب عدم التهوية. أما الفتاة، كانت في حالة نشاط أكثر من أي وقت مضى. تجلس وهي تحيك زوج من الجوارب من خيوط صوف لونها كالكريمة.

رفعت ليب حاجبيها كأنها تستجوب الأخت مايكل. همست الراهبة:

-لا شيء جديد، فقط ملعقتان من الماء.

وأغلقت الباب خلفها وهي في طريقها للخروج.

لم تذكر انا كلمة عن الشمعدان المكسور. فقط سألت:

-ربما يمكنك أن تخبريني باسمك في المعمودية اليوم؟

اقترحت ليب:

-سأخبرك بلغز بدلًا من ذلك.

-هيا إذن!

لا أرجل لي، ومع ذلك أرقص.
أنا مثل الورقة، ومع ذلك لا أنمو على شجرة.
أنا مثل السمكة، ولكن الماء يقتلني.
أنا صديقتكِ، لكن لا تقتربي كثيرًا مني!

تمتمت آنا:

-لا تقتربي كثيرًا.. لماذا؟ ماذا سيحدث لو فعلت؟

انتظرت ليب.

-لا ماء.. لا لمس.. أتركيها ترقص فقط... ثم انفجرت ابتسامتها. وقالت: «النار»!

-حسنًا جدًا!

شعرت هذه الظهيرة بطول الوقت. لم تكن كطول فترة الليل الصامتة؛ بل تخلل الملل لحظات مزعجة. فقد سمعت الطرق على باب البيت مرتين، وحدّقت ليب لترى بنفسها. كان هناك تبادل للحديث بصوتٍ عالٍ على عتبة الباب، ثم باغتتها روزالين أودونيل في غرفة آنا لتعلن أنها -وفقًا لأوامر الدكتور ماكبرارتي-، كان عليها صرف الزائرين.

شخصيات هامة من فرنسا تزور البلاد لأول مرة، ثم مجموعة من الجزيرة. هل يمكن تخيّل هذا، أن هؤلاء الأشخاص الطيبون، عندما سمعوا عن أنا في أثناء مرورهم عبر كورك أو بلفاست، قطعوا كل

هذا الطريق بالقطار ثم العربة، لأنهم لم يستطيعوا مغادرة البلاد دون أن يلتقوا بها! لكنهم في النهاية، أصروا على إعطاء «مدام أودونيل» هذه الباقة من الزهور، وهذه الكتب المفيدة، وأبدوا أسفهم الشديد لعدم إمكانية رؤية هذه الفتاة المعجزة حتى ولو لحظة واحدة.

في المرة الثالثة، عندما جاءت الأم لتشكو، استعدت ليب بتقديم إشعار، اقترحت على الأم أن تلصقه على باب المنزل:

الرجاء عدم الطرق على الباب

منعًا لإزعاج عائلة أودونيل

هم ممتنون لاهتمامكم

أخذت روزالين الورقة بانفعال وتمتمت بكلمات بالكاد يمكن سماعها. أما آنا فلم تول أي اهتمام لأيٍّ من هذا، بل انهمكت في حياكة غرز التطريز. ورأت ليب أنها تقضي يومها كأي فتاة، تقرأ، أو تقوم بأعمال الإبرة، أو بترتب زهور الزائرين في جرة طويلة.. ماعدا شيء واحد، أن تأكل.

راجعت ليب نفسها، «(**لا تبدو**) أنها تأكل»، لقد شعرت بالانزعاج لأنه تسلل إلى عقلها قبول هذا الوهم حتى لو لحظة. ولكن شيئًا واحد كان صحيحًا، هو أن الفتاة لم تتناول طعامًا في أثناء فترة مراقبة ليب. حتى لو حدث في أي فرصة أن الراهبة قد غفت في ليلة الإثنين وتناولت آنا بضع لقيمات في ذلك الوقت، إلا أنه الآن بعد ظهر يوم الأربعاء، مضت ثلاثة أيام على آنا كاملة بدون طعام.

تسارع نبض ليب عندما فكرت أنه إذا كانت المراقبة الصارمة تمنع آنا من الحصول على الطعام بطريقتها السابقة، فلا بد أن الفتاة قد بدأت تعاني بالفعل. هل يمكن أن يكون للمراقبة تأثيرًا عكسيًا

بتحويل كذبة عائلة أودونيل إلى حقيقة؟!

كان يأتي صوت خبط وخفق من المطبخ بين الحين والاخر، بسبب الطهي التي تقوم به الخادمة باستخدام جرة الزبد التقليدية. كانت تغني بصوت خفيض. سألت ليب الطفلة.

-هل هذه ترنيمة؟

هزت آنا رأسها،

-يجب أن تغني كيتي لتسحر الزُبد حتى يأتي. هي تغني جزءًا من أغنية تقول:

تعال يا زُبد، تعال يا زُبد..

بطرس يقف عند الباب..

في انتظار كعكة مدهونة بالزُبد..

تساءلت ليب، «ما الذي كان يدور في ذهن الطفلة عندما فكرت في الزبد أو الكعكة»!

حدقت في الوريد الأزرق على ظهر يد آنا، وفكرت في النظرية الغريبة التي ذكرها ماكبرارتي حول إعادة امتصاص الدم. سألت بصوت خفيض:

-لا أعتقد أنكِ بلغتِ بعد، هل أنتِ..

بدت آنا كبلهاء.

ماذا تسميها النساء الأيرلنديات؟ العادة الشهرية؟ هل سبق لكِ أن نزفتِ؟

قالت آنا بوجه طفولي صافي: «عدة مرات».

فوجئت ليب، عادت إلى الوراء وقالت: «حقًا»!

-من فمي.

-أوه!

هل يمكن لطفلة ريفية تبلغ من العمر أحد عشر عامًا، أن تكون بهذه البراءة، بحيث لا تفهم شيئًا عن الحيض أو بلوغ الفتاة؟! أدخلت آنا إصبعها في فمها

ثم أخرجته ملطخًا باللون الأحمر.

شعرت ليب بالخجل من نفسها؛ لأنها لم تفحص لثة الفتاة بشكل دقيق في اليوم الأول. «افتحي فمك على آخره». نعم، كانت اللثة ملتهبة وبها بعض البقع البنفسجية. قبضت على سنٍ وحركته، هل كان متحركًا قليلًا في موضعه؟

قالت لتخفيف الألم عن الفتاة: «إليك لغزًا آخر».

قطيع من الخراف البيضاء، على تل أحمر.

يذهبون هنا، ويذهبون هناك..

الآن هم يقفون في ثبات..

صاحت آنا بكلمة «أسنان» وهي تقولها بشكل غير واضح.

-هذا صحيح تمامًا!

نظفت ليب يدها بمريلتها.

في هذا الوقت، فكرت في الحال، أنها ستضطر إلى تحذير الفتاة، حتى لو لم يكن ذلك جزءًا من مهمتها. قالت:

-آنا، أعتقد أنكِ تعانين من مشكلة شائعة، تحدث في الرحلات الطويلة عبر المحيطات، هذه المشكلة تنتج عن نقص التغذية. استمعت الفتاة وهي تميل برأسها، كما لو كانت تستمع إلى قصة. ثم قالت: «أنا بخير.»

عقدت ليب ذراعيها، وقالت: «من وجهة نظري المهنية، أنت لست بخير على الإطلاق».

ابتسمت الفتاة فقط.

أما ليب اجتاحتها موجة من الغضب، بسبب هذه الفتاة المباركة بصحة تجعلها تتمادى في هذه اللعبة المروعة!

في تلك اللحظة، أحضرت كيتي صينية العشاء

للممرضة ومع دخولها، هبت موجه من الهواء المصحوب بالدخان من المطبخ.

تساءلت ليب:

-هل يجب إبقاء نيران الموقد مرتفعة إلى هذا الحد؟ حتى في مثل هذا اليوم الحار؟

قالت الخادمة وهي تشير إلى السقف المنخفض:

-الدخان يجفف القش ويحافظ على الخشب، إذا انطفأت النار في أي وقت، فبالتأكيد سيسقط البيت.

لم تهتم ليب بمراجعتها في الأمر؛ فهل هناك جانب واحد من الحياة، لا تراه هذه المخلوقة من خلال عدسة الخرافة والأساطير؟!

العشاء اليوم يتكون من ثلاث سمكات صغيرة من سمك الروش، التي اصطادها السيد أودونيل من البحيرة. لا طعم محدد لها، ولكنها تغيير عن الشوفان على الأقل. أخرجت ليب الأشواك الدقيقة من فمها، ووضعتها على جانب في صحنها.

مرت الساعات، وليب تقرأ روايتها ولكنها تفقد مسار الحبكة. أما آنا، فقد شربت ملعقتين من الماء وأخرجت قليلًا من البول. لم يكن هناك شيء يشكّل دليلًا حتى الآن. تساقطت الأمطار لبضع دقائق، وتسربت بعض قطرات المطر على زجاج النافذة الصغيرة. عندما توقفت الأمطار، تمنّت ليب أن تخرج للنزهة، لكنها فكرت: «ماذا لو كان الأشخاص المتحمسون، يترصدون في الطريق على أمل رؤية آنا؟

كانت الفتاة تُخرج بطاقاتها المقدسة من داخل الكتاب وتهمس ببعض الكلمات اللطيفة. وجدت ليب نفسها تقول:

-أنا أسفة جدًا بشأن الشمعدان الخاص بك، لم يكن

ينبغي أن أتصرف بحماقة إلى هذا الحد، أو أن آخذه من داخل الصندوق من الأساس.

قالت آنا: «أنا أسامحك».

حاولت ليب أن تتذكر ما إذا كان أي شخص قال لها ذلك بشكل جدي من قبل: «أعلم أنك تحبينه كثيرًا. ألم يكن هدية للاحتفال بيوم تأكيد الإيمان الخاص بك؟

رفعت الفتاة الشمعدان من الصندوق، وحاولت الضغط على الشقَ الذي تتجمع فيه قطعتي الخزف. قالت: «الأفضل ألا نتعلق بالأشياء أكثر من اللأزم»!

اقشعرت ليب أمام هذه النبرة الزاهدة بكل شيء. أليس من طبيعة الأطفال أن يكونوا جشعين، ومتشوقين لجميع متع الحياة؟ تذكرت كلمات صلاة المسبحة الوردية: **«إليك نصرخ، نحن المنفيين أولاد حواء»**. وتذكرت أنهم يلتهمون أي شيء يعثرون عليه..».

أخذت الفتاة اللُفافة الصغيرة وبداخلها خصلة الشعر، وضعتها مرة أخرى داخل تمثال العذراء.

هذه الخصلة لونها أدكن جدًا من أن تكون من شعرها. هل من أحد أصدقاءها؟ أو أخيها؟ نعم، ربما طلبت آنا من بات خصلة من شعره قبل أن تحمله السفينة بعيدًا.

سألت الفتاة:

-ما هي الصلوات التي يقولها البروتستانت؟

فوجئت ليب بالسؤال. واستجمعت كل قوتها لتعطي إجابة لطيفة حول أوجه التشابه بين العقيدتين. لكنها عوض ذلك، وجدت نفسها تقول: «أنا لا أصلي».

اتسعت عيون آنا!

ثم أضافت ليب: «كما أنني لا أذهب إلى الكنيسة، لسنوات عديدة حتى الآن».

هذا في النهاية جهد لا طائل منه.

اقتبست الفتاة من سفر أمثال سليمان: **«أما طَيِّبُ القَلْبِ فَوَلِيمَةٌ دَائِمَةٌ».**

-معذرة!

-الصلاة تجلب السعادة أكثر من الولائم.

-لم أجدها قط تفعل الكثير من الخير.

شعرت ليب بالحرج من اعترافها السخيف. أردفت: «لم يكن لدي أي شعور بأنني سأحصل على استجابة».

تمتمت آنا:

يا لكِ من مسكينة يا سيدة رايت! لماذا لا تخبريني باسمكِ الأول؟

سألت ليب:

-مسكينة لماذا؟!

-لأن روحك لا بد وأنها وحيدة.. هذا الصمت الذي تجدينهِ عندما تحاولين الصلاة، إنما هو صوت الله الذي يستمع لكِ.

أشرق وجه الطفلة وهي تقول ذلك.

فجأة، حدث ضجيج عند باب المنزل، أخرج ليب من هذا الحديث.

كان هناك صوت رجل، يعلو فوق صوت روزالين أودونيل. وعلى الرغم من عدم قدرتها على فهم أكثر من بضع كلمات، إلا أنها استطاعت أن تعرف أنه رجل إنجليزي، وكان غاضبًا. ثم سمعت صوت إغلاق الباب.

لم ترفع آنا حتى عينيها عن الكتاب الذي بيدها:

«روضة النفس».

دخلت كيتي لتتأكد أن المصباح مُعد جيدًا. حذّرت ليب قائلة: «سمعت أنه ذات مرة، اشتعلت النيران بسبب الأبخرة وأحرقت عائلة بأكملها في الليل»!

قالت ليب:

-لا بد أن زجاج المصباح كان مليئًا بالسُخام في هذه الحالة. لا داعي للقلق، فقط امسحي هذا جيدًا.

قالت كيتي وهي تتثاءب بقوة: «حسنًا».

بعد حوالي نصف ساعة عاد نفس الرجل الغاضب. وفي خلال دقيقة كان داخل غرفة آنا وروزالين أودونيل خلفه. له جبهة عريضة كبيرة، وعلى جانبي وجهه خصلات طويلة ذات لون فضي. قدم نفسه إلى ليب بصفته دكتور ستانديش، كبير الأطباء في إحدى مشافي دبلن.

قالت روزالين أودونيل وهي تلوح بالورقة:

-جلب مذكرة من الدكتور ماكبرارتي، يطلب فيها أن نستثنيه، ونسمح له بالدخول كزائر مهم.

وصاح ستانديش بلكنة إنجليزية عميقة وواضحة جدًا:

-وبدافع الاحترام المهني، لا يجب تضييع وقتي بالرجوع ذهابًا وإيابًا، عبر هذه الطرق الضيقة القذرة، للحصول على إذن لفحص الطفلة.

كانت عيناه الزرقاوان الباهتتان متجهة نحو آنا، التي بدت متوترة.

تساءلت ليب: «هل كانت تخشى أن يكتشف هذا الطبيب شيئًا لم يكتشفه ماكبرارتي والممرضات؟ أم فقط لأن الرجل يبدو صارمًا جدًا؟

سألت السيدة أودونيل:

-هل يمكنني أن أقدم لك كوبًا من الشاي، حضرة

الطبيب؟

-لا شيء، شكرًا لك.

قالها بطريقة صارمة، لدرجة أنها عادت إلى الوراء وأغلقت خلفها الباب.

اشتم الدكتور ستانديش الهواء. سأل:

-متى تم تعقيم هذه الغرفة بالدخان آخر مرة، أيها الممرضة؟

-الهواء النقي القادم من النافذة يا سيدي...

-اهتمي بذلك. استخدمي كلوريد الجير، أو الزنك. لكن، أولًا، رجاءً اخلعي ملابس الفتاة.

-لقد أخذت بالفعل قياساتها الكاملة، إذا كنت ترغب في الاطلاع عليها..

عرضتها عليه ليب. لكنه لوح بدفتر مذكراتها بعيدًا، وأصر على خلع ملابس آنا بالكامل، حتى صارت عارية تمامًا.

وقفت الطفلة ترتعش على السجادة الصوف، يديها تتدلى جانبًا. نظر إلى زوايا عظم الكتف والمرفقين، وتورم الساقين والبطن؛ كان لازال لدى آنا لحم، لكن كله متدلي إلى الأسفل، كما لو كانت تذوب ببطء. حولت ليب نظرها بعيدًا. هل يسمح أي رجل دمث، أن يجرد طفلة تبلغ من العمر أحد عشر عامًا من ملابسها هكذا، ويتركها مثل إوزة عارية معلّقة على خُطّاف!

استمر ستانديش في الوخز والضغط، والنقر على جسم آنا بأدواته الباردة، مع وابلًا من الأوامر؛ «أخرجي اللسان.. أكثر».

وضع إصبعه في حلقها، فكادت أن تتقيأ.

سأل وهو يضغط بين ضلوعها: «هل هذا يؤلمك؟ وهذا؟ ماذا عن هذا؟

كانت آنا تهز رأسها باستمرار بالنفي، لكن ليب لم تصدق ذلك.

قال الطبيب:

-هل يمكنكِ الانحناء أكثر؟ خذي نفسًا عميقًا واحتجزيه.. أسعلي مرة أخرى.. أعلى. متى كانت آخر مرة شعرتِ بحركة غير طبيعية في الأمعاء؟

همست آنا:

-لا أتذكر

غرز إصبعه في ساقيها المشوهة. سأل:

-هل يؤلمكِ هذا؟

هزت كتفها بحركة بسيطة.

-أجيبي!

-الألم ليس الكلمة المناسبة..

-حسنًا، كيف تصفين شعوركِ؟

-شيء كطنين.

-طنين؟

-يبدو كذلك..

أخذ ستانديش نفسًا عميقًا ورفع إحدى قدميها المتضخمتين ليخربش نعلها بظفره.

«الطنين؟» حاولت ليب أن تتخيل كيف يكون الشعور بالتورم، تقريبًا تبدو الخلية مشدودة كما لو كانت على استعداد للانفجار. هل تشعر الفتاة وكأن الجسم بأكمله يهتز بتردد عالٍ؟ كأن الجسم بأكمله قوس مشدود؟

أخيرًا، أخبر ستانديش الطفلة بأن ترتدي ملابسها، وألقى بأدواته مرة أخرى إلى حقيبته. قال وهو ينظر في اتجاه ليب:

-كما اشتبهت، حالة بسيطة من الهستيريا.

ارتبكت ليب. هي ترى أن أنا لا تعاني من أي أعراض مثل أي مصاب بالهستيريا قابلته في المشفى؛ لا تشنجات لاإرادية، أو إغماء، أو شلل، ولا تحدّق النظر أو تصرخ.

قال الطبيب:

-لقد كان لديّ مرضى في وحدات الرعاية الليلية من قبل، لا يأكلون إلا عندما لا يراقبهم أحد.. لا شيء يميز هذه الطفلة سوى أنها تتمادى في التدليل بتجويع نفسها بشدة.

تجويع نفسها! إذن، يعتقد ستانديش أن آنا كانت تتناول الطعام سرًا، ولكن بكميات أقل بكثير مما تحتاج؟ أو ربما كانت تحصل على ما يكاد يكفيها حتى بدأت المراقبة، أي صباح يوم الإثنين. لكن منذ ذلك الحين، لم تأخذ شيئًا على الإطلاق؟ شعرت ليب بالخوف الشديد، من أن يكون الطبيب على حق. لكن هل كانت آنا أقرب إلى الجوع أم إلى الصحة؟ كيف يمكن قياس ظروفها الصحية؟

بينما كانت آنا تربط سروالها حول الخصر، لم تُظهر أي علامة على سماع أي كلمة.

قال ستانديش:

-وصفتي بسيطة للغاية، كمية من نبات الأرورت في الحليب، ثلاث مرات في اليوم.

نظرت إليه ليب، ثم شرحت الوضع الواضح للجميع:

-هي لن تتناول أي شيء عن طريق الفم.

-إذن، اسكبيها في فمها كما تفعلين مع الخراف، يا امرأة!

شعرت آنا برعشة خفيف.

«دكتور ستانديش»! اعترضت ليب على كلام

الطبيب، فهي تعلم أن طاقم العمل في المصحات العقلية والسجون يلجؤون في كثير من الأحيان إلى القوة، ولكن..

قال الطبيب:

-إذا رفض مريض من مرضاي وجبة تلو أخرى، فإن ممرضاتي لديهن تعليمات صارمة باستخدام أنبوب مطاطي، من أعلى أو أسفل.

استغرق الأمر من ليب لحظة لتفهم ما يعنيه الطبيب بالأسفل. وجدت نفسها تتقدم للأمام لتحول بينه وبين آنا. قالت: «فقط الدكتور ماكبرارتي يمكنه إصدار مثل هذا الأمر، وبإذن الوالدين».

اندفعت الكلمات من فم ستانديش، «هذا ما كنت أشتبه فيه عندما قرأت عن الحالة في الصحيفة. بتقدير هذه الفتاة الصغيرة، وتكريم هذه المسرحية بوضع مراقبة رسمية -جعل ماكبرارتي نفسه محط سخرية. لا، بل جعل أمته بأكملها محط سخرية»!

لم تستطع ليب أن تخالف هذا الرأي. استقرت عيناها على آنا التي تحني رأسها. قالت:

-لكن هذه القسوة غير الضرورية يا دكتور..

قال الطبيب بسخرية:

-غير ضرورية؟ انظري إلى حالها، جلد متقرح، شعر غزير، جسم متورم بشكل كبير..

خرج ستانديش وطرق باب غرفة النوم خلفه. ساد صمت متوتر في الغرفة. سمعته ليب يتعارك ويقول شيئًا ما عن عائلة أودونيل في المطبخ، ثم خرج إلى عربته.

أطلت روزالين أودونيل برأسها داخل الغرفة وقالت:

-ماذا حدث بحق السماء!

قالت ليب:

«لا شيء»، وظلت تنظر إلى السيدة حتى انسحبت.

ظنت ليب أن آنا ربما تبكي الآن، لكن لا، بدت الطفلة أكثر هدوءًا من أي وقت مضى، وكانت تعدل سوار أكمامها الصغيرة.

ستانديش لديه سنوات، لا عقود، من الدراسة والخبرة التي لا تملكها ليب، والتي لا يمكن لأي امرأة أن تحصل عليها أبدًا. بشرة آنا الناعمة، والمتقشرة، واللحم المنتفخ.. أمور صغيرة في حد ذاتها، ولكن هل كان على حق، عندما قال إنها تشير لوجود خطر فعلي بسبب تناول القليل جدًا من الطعام؟ شعرت ليب برغبة في أن تضم الطفلة بين ذراعيها.

لكنها كبتت تلك الرغبة، بالطبع!

تذكرت تلك الممرضة التي كانت تعاني من النمش في سكوتاري، كانت تشتكي أنه من غير المسموح لها أن تطيع قلبها، بأن تأخذ ربع ساعة، على سبيل المثال، للجلوس مع رجل يحتضر، لتقول له كلمة مطمئنة. كانت الآنسة «ن». ترفض ذلك تمامًا، وتقول: **«هل تعرفين ما الذي من شأنه أن يريح هذا الرجل؟ إذا كان بإمكانكِ عمل أي شيء، فقط ضعي له وسادة لإراحة ركبته المشوهة. لذلك لا تستمعي إلى قلبكِ، استمعي لي واستمري في القيام بعملكِ».**

سألت آنا:

-ماذا يقصده الطبيب بالتعقيم بالدخان؟

نظرت ليب بطرف عينيها. قالت: «تنقية الهواء عن طريق حرق بعض المواد المطهرة. لكن معلمتي لم تقتنع بذلك»، ثم اتجهت خطوتين نحو سرير انا

وبدأت في ترتيب الملاءات، وطوتها كلها في خط مستقيم. سألتها الفتاة: «ولم لا؟

قالت ليب: «لأنه يجب التخلص من الأشياء الضارة التي في الغرفة، وليس التخلص من مجرد رائحتها» ثم أردفت: «حتى أن معلمتي لها نكتة حول هذا الموضوع».

قالت آنا:

-أنا أحب النكات.

-قالت إن عمليات التعقيم بالدخان ضرورية للعلاج.. لأنها تسبب رائحة فظيعة جدًا، تجبرك على فتح النافذة.

أطلقت آنا ضحكة صغيرة. سألت: «هل كانت تقول الكثير من النكات؟

-هذه هي الوحيدة التي أتذكرها.

انتقلت الطفلة بنظرها من حائط إلى آخر، كما لو هناك شيء مخيف قد يقفز عليها، سألت:

-ما هو الشيء الضار في هذه الغرفة؟

-كل ما يؤذيكِ هو هذا الصوم.

كانت كلمات ليب كحجارة ألقيت في محيط الغرفة الهادئة. أردفت: «جسمكِ بحاجة إلى تغذية».

هزت الفتاة رأسها. «ليس طعامًا أرضيًا».

-كل جسم..

-ليس جسمي أنا.

-آنا أودونيل! لقد سمعت ما قاله الطبيب: أنت مصابة بالجفاف. وبهذا قد تصنعين بنفسك ضررًا خطيرًا.

-هو ينظر للأمر بشكل خاطئ.

-لا، بل أنت من تنظرين للأمر بشكل خاطئ. عندما

ترين قطعة من اللحم المقدّد، هل لا تشعرين بأي شيء؟

جعدت الطفلة الصغيرة جبهتها.

أردفت ليب: «ألا تشعرين برغبة شديدة لوضع اللحم في فمك ومضغه، كما فعلت طيلة أحد عشر عامًا؟

-ليس بعد الآن.

-لماذا، ما الذي يمكن أن يكون قد تغير؟

لحظة صمت طويلة. ثم قالت آنا: «إنه مثل حدوة الحصان الحديدية».

-حدوة الحصان!

-طعم اللحم بالنسبة لي مثل حدوة الحصان، أو قطعة خشب، أو حجر. ثم فسرت. «لا يوجد شيء خاطئ في الحجر، ولكنكِ لن تمضغينه، أليس كذلك»!

نظرت ليب إليها بدهشة.. قالت كيتي وهي تدخل بصينية الطعام وتضعها على السرير. «عشاءكِ يا سيدتي».

ارتعشت يدا ليب هذه الليلة، وهي تفتح باب دكان المشروبات الروحية. كانت تنوي أن تلتقط بضع كلمات من الراهبة في أثناء تبديل نوبات العمل، ولكن أعصابها كانت لا تزال ترتجف بشدة بسبب لقائها مع الدكتور ستانديش.

لم يكن هناك ضجيج أو جلسات للمزاح في الحانة الليلة. كادت ليب أن تصل إلى الشلم عندما ظهرت رجلٌ أمام مدخل الباب. قال: «لم تخبريني من أنت حقًا، أيها الممرضة رايت»!

تأوهت ليب في داخلها، الكاتب.. «هل ما زلت هنا، يا سيد... بورك، أليس كذلك»!

-بيرن، اسمي وليام بيرن.

التظاهر بعدم تذكر الاسم طريقة فعالة في إثارة الضيق. توجهت ليب إلى أعلى الدرج وهي تقول:

-ليلة سعيدة يا سيد بيرن.

-افعلي بي خيرًا بالبقاء دقيقة واحدة. لقد سمعت من ماجي رايان أنك أنت من منعتني من دخول منزل الفتاة!

استدارت ليب. «لا أعتقد أنني قلت أي شيء لتضليلك عن سبب وجودي هنا. أما إذا قفزت أنت إلى استنتاجات غير مبررة..».

اعترض قائلًا: «أنتِ لا تتشابهين أو تتحدثين مثل أي ممرضة قابلتها في حياتي».

أخفت ابتسامتها، وقالت: «إذَنْ لا بد أن تكون خبراتك محدودة على الممرضات من النوع القديم».

قال بيرن: «أسلِّم بذلك، إذَنْ متى يمكنني التحدث مع رئيسكِ؟

واصلت ليب: «أنا ببساطة أحمي آنا أودونيل من تدخلات العالم الخارجي، بما في ذلك - ربما قبل كل شيء - متطفلي الشارع».

اقترب بيرن أكثر، وقال: «ألا تفترضين إنها تسعى لجذب انتباه العالم، من خلال ادعائها أنها عجيبة فريدة من نوعها مثل حورية البحر فيـجي مثلًا؟ (16).

انتفضت ليب عند تخيل هذه الصورة. قالت: «إنها مجرد طفلة صغيرة».

أضاءت الشمعة التي في يد ويليام بيرن خصلات شعره النحاسية، وهو يقول: «أحذرك يا سيدتي، أنني سأخيِّم خارج نافذتها. وسأرقص كالقرد، وألصق أنفي على الزجاج، وأقوم بعمل حركات على

وجهي، حتى تتوسل الطفلة بالسماح لي بالدخول».

-لن تفعل ذلك.

-ما هو اقتراحك لتمنعيني؟

تنهدت ليب.. كم تطوق إلى فراشها! قالت: «سأجيب على أسئلتك بنفسي، هل سيكون ذلك كافيًا؟

عبّر الرجل عن استياءه بامتعاض شفتيه. سأل: «كلها؟

-بالطبع لا!

ابتسم وقال: «إذنْ أنا أيضًا إجابتي لا».

أخبرته ليب: «إذَنْ ارقص كما تشاء، سأسحب الستارة». ثم صعدت درجتين إضافيتين وأردفت: «إثارة الإزعاج لعرقلة مسار هذه المراقبة، لا سيجلب لك ولصحيفتك شيئًا سوى الأذى. ولا شك، ستواجه غضب اللجنة بأكملها».

ضحك الرجل بصوتٍ عالٍ ملأ الغرفة المنخفضة: «ألم تلتقي بأرباب عملك؟ إنهم ليسوا آلهة مسلحين بالصواعق المرعبة. هم طبيب، وكاهن، وجابي ضرائب، وبعض من أصدقائهم. هؤلاء هم لجنتكِ بأكملها».

شعرت ليب بالارتباك. كان ماكبرارتي قد ألمح أنها لجنة مليئة برجال مهمين! لكنها قالت: «لا زلت على موقفي، ستحصل على مزيد من المعلومات مني، بدلًا من إزعاج عائلة أدونيل».

نظر إليها بيرن بعيونه الفاتنة وقال: «حسنًا جدًا».

-ربما غدًا بعد الظهر؟

دعاها للنزول بيده الكبيرة: «في هذه اللحظة، أيها الممرضة رايت».

قالت ليب: «إنها الساعة العاشرة تقريبًا»!

قال بيرن بطريقة صبيانية: «سوف يتخذ المحرر إجراءً ضدي، إذا لم أرسل شيئًا ذا أهمية في البريد التالي. أرجوكِ»!

ولتنتهي ليب من الأمر، عادت وجلست على الطاولة.

أومأت برأسها نحو دفتر ملاحظاته المليء بالحبر، وقالت: «ماذا لديك حتى الآن؟ هل كلها آراء أفلاطونية؟

ابتسم بيرن: «آراء متنوعة، على سبيل المثال؛ تم منع الزائرين المسافرين عبر منزل الفتاة من الدخول اليوم. أيضًا هناك معالج بالإيمان من مانشستر يريد استعادة شهية الفتاة بوضع يديه عليها والصلاة لأجلها... كما أن واحد من الشخصيات الطبية الهامة، كان غاضبًا مثلي، بل وأكثر بسبب رفضهم دخوله المنزل».

تجاهلت ليب الأمر. آخر ما أرادت مناقشته هو مسألة ستانديش وتوصياته. فكرت إنه إذا لم يكن هذا الصحفي قد رأى طبيب دبلن في نزل ريان مرة أخرى هذه الليلة، فذلك يعني أن ستانديش لا بد وأن عاد مباشرة إلى العاصمة بعد فحص آنا.

أردف بيرن: «امرأة أخرى افترضت أن الفتاة ربما تغمس نفسها في الزيت حتى يتشرب جسمها بعضًا منه عن طريق مسامات الجلد وبين الأظفار. كما أكد لي أحد الأشخاص أن ابن عمه في فيلادلفيا، يزعم تحقيق تأثيرات ملحوظة باستخدام المغناطيسات.

أخفت ليب ضحكتها تحت أنفاسها.

فتح بيرن قلمه، وقال:

-حسنًا، لقد أجبرتني على إخبارك بكل شيء. إذن، لماذا كل هذه السرية؟ ما الذي تساعدين عائلة

أودونيل على إخفائه؟

-لا شيء، على العكس، بل إن هذه المراقبة تتم بدقة فائقة لكشف أي خداع. لا يمكن التهاون في أي شيء يلهينا عن مراقبة كل حركات الفتاة، للتأكد من عدم وصول الطعام إلى فمها.

توقف بيرن عن الكتابة وأسند ظهره إلى الخلف، قال:

-هذا تصرف بربري إلى حدٍ ما، أليس كذلك!

فكرت ليب مليًا وقالت:

-دعنا نفترض أن الفتاة تمكنت من الحصول على الطعام بشكل ما أو بطريقة ما سرًا منذ الربيع، دعنا نفترض ذلك!

في هذه القرية المليئة بالمتدينين المتعصبين، كان الموقف الواقعي لبيرن مُريحًا بالنسبة لليب.

-ولكن إذا كانت مراقبتك مثالية بهذا الشكل، فهذا يعني أن آنا أودونيل لم تتناول أي طعام منذ ثلاثة أيام حتى الآن!

ابتلعت ليب ريقها بصعوبة. هذا بالضبط ما بدأت تخشاه اليوم، ولكنها لم تكن ترغب في الاعتراف بذلك لهذا الرجل.

-ليس بالضرورة أن تكون مثالية حتى الآن. أشك في أنه في خلال فترات عمل الراهبة...

هل كانت حقًا ستتهم زميلتها الممرضة، بدون دليل؟ غيرت اتجاه الحديث، وقالت:

-هذه المراقبة من أجل مصلحة آنا، لتحريرها من الخداع الذي يحيط بها. ألا تتوق آنا لأن تعود طفلة عادية مرة أخرى؟

-هل بتجويعها؟

يبدو أنا عقل الرجل كان ناقدًا مثل عقل ليب.

اقتبست ليب: «**يجب أن أكون قاسيًا لكي أكون لطيفًا**».

فهم الرجل القصد، وقال: «قتل هاملت ثلاثة أشخاص، أو خمسة إذا كنت تحسبين روزنكرانتز وجيلدنستيرن»!

من المستحيل مجاراة صحفي في ذكاءه!

لكن أصرت ليب على رأيها: «سيتحدثون إذا بدأت تضعف، لا بد أن يتحدث أحد أو كلا الوالدين، أو الخادمة، أو أي شخص يقف وراء هذا. خاصة بعد أن وضعت حدًا لاستغلال الزوار من أجل لحصول على المال».

رفع» بيرن» حاجبيه وقال متعجبًا:

-هل سيتحدثون، ويتحملون اللوم، ويثبتون على أنفسهم تهمة الاحتيال أمام القاضي؟

أدركت ليب أنها لم تفكر في الجانب الجنائي للموضوع.

-حسنًا. سوف تنهار الطفلة الجائعة وتعترف عاجلًا أو آجلًا.

لكنها عندما قالت ذلك، شعرت بقشعريرة، لأن آنا أودونيل تجاوزت مرحلة الجوع بطريقة أو بأخرى!

ترنحت على قدميها. وقالت: «يجب أن أنام الآن يا سيد بيرن».

أزاح شعره إلى الخلف. وقال: «إذا لم يكن لديك حقًا ما تخفيه يا سيدة رايت، دعيني أدخل لأرى الفتاة بنفسي لمدة عشر دقائق، وسوف أشيد بك في تقريري التالي».

-أنا لا أحب صفقاتك يا سيدي.

هذه المرة سمح لها بالرحيل.

عادت إلى غرفتها تحاول النوم. نوبات العمل التي

تمتد لثماني ساعات هذه أحدث فوضى في إيقاعات جسمها. حاولت الخروج من هذا التوتر العميق في فراشها وضربت وسادتها. في تلك اللحظة، وهي تجلس في الظلام، خطر ببالها ذلك السؤال للمرة الأولى: ماذا لو لم تكن آنا تكذب؟

قضت ليب لحظات طويلة، وهي تضع جميع الحقائق جنبًا إلى جنب. علمتها الآنسة «ن»، أن فهم طبيعة المرض هو بداية التمريض الحقيقي؛ يجب على الممرّض فهم الحالة العقلية وليس الجسدية فقط للمريض. لذا، كان السؤال: هل تصدق الفتاة قصتها؟ وكان الجواب واضحًا. تصدق آنا أودونيل نفسها تمام الصدق!

قد تكون حالة هستيرية إذن، ولكنها كانت مخلصة تمامًا. شعرت ليب بأن كتفيها يستريحان. هذه الطفلة التي تملك وجهًا ناعمًا ليست عدوًا، ولا سجينًا قاسي القلب. إنما هي فتاة استهواها نوع من أحلام اليقظة، وتسير نحو الحافة دون أن تدرك ذلك. إنها مريضة تحتاج إلى مساعدة ممرضتها، كما تحتاج إلى الصوم.

(14)صلاة الوردية، أو المسبحة الوردية، صلاة مقسمة لخمسة عشر بيتًا، يتلوها الكاثوليك وهم يمسكون بأيديهم المسبحة، ويتشفعون بالعذراء مريم (المترجمة).

(15)منزل الزنجبيل، هو حلوى تصنع من الدقيق والزنجبيل والقرفة والقرنفل، على شكل منزل وتستخدم للزينة في أعياد الكريسماس (المترجمة).

(16)حورية البحر فيجي، هي كائن نصفه الأعلى رأس وجزع قرد صغير، ونصفه السفلي ذيل سمكة (المترجمة).

الفصل الثالث

الصوم

تمتنع عن الطعام

وطوال فترة الصوم لا تزال:

راسِخة، ومنطوية، وآمنة، ومحصّنة

ومُخلِصة، وموقِنة، وعنيدة.

الساعة الخامسة صباحًا، يوم الخميس، دخلت ليب غرفة النوم. على ضوء المصباح الذي يطلق رائحة دخان كريهة. نظرت نحو آنا أودونيل، وجدتها ما زالت نائمة. همست للراهبة: «هل هناك أي جديد؟

هزت الراهبة رأسها المغطى بالقلنسوة، بحركة بسيطة.

كيف لم تستغل ليب زيارة الدكتور ستانديش دون أن تشارك برأيها؟ وكيف ستفهم الراهبة، التي تصدق أن الفتاة الصغيرة يمكنها أن تعيش على **(المنّ من السماء)** نظريته، التي تفترض إن آنا تعاني من هستيريا تجويع النفس؟

أخذت الراهبة معطفها وحقيبتها وغادرت.

كان وجه الطفلة على الوسادة مثل الثمرة المتساقطة. لاحظت ليب أن عيناها أكثر انتفاخًا هذا الصباح، ربما بسبب الاستلقاء المسطح طوال الليل. إحدى الوجنتين غائرة في مكان وضعها على الوسادة. صار جسد آنا مثل كتاب مفتوح مدون به كل ما يحدث لها.

سحبت أحد الكراسي وجلست تراقب جسدها من مسافة لا تتجاوز السنتيمترات. الخد المستدير، وارتفاع وانخفاض الصدر والبطن.

قد تعتقد الفتاة حقًا أنها لم تتناول طعامًا منذ

أربعة أشهر. ولكن جسدها يقول شيئًا آخر، لا بد وأنه يوجد شخص ما يطعم آنا، حتى ليلة الأحد. ومن ثمّ بطريقة ما.. نسيت الحقيقة! أو ربما لم تصدقها على الإطلاق! هل يمكن افتراض أنه يتم إطعامها وهي في حالة من الغيبوبة؟ هل يمكن للطفلة أن تبتلع الطعام دون أن تختنق في أثناء النوم العميق؟ مثلما يمكن أن يتجول شخص في أثناء النوم في المنزل وعيونه مغمضة؟ وحين تستيقظ في الصباح لا تشعر سوى بالشبع، كما لو تم إطعامها بالمنّ السماوي بالفعل!

ولكن هذا لا يفسر سبب امتناعها عن الطعام. اليوم، بعد انقضاء أربعة أيام من المراقبة، لم تُظهر الطفلة أي اهتمام بالطعام، وبالرغم من جميع الأعراض الغريبة التي تعاني منها، إلا أنها ما زالت مقتنعة بأنه يمكنها العيش بدونه.

هل بإمكان ليب أن تسمي هذه الحالة بالهوس، أو الجنون، أو المرض العقلي، الهستيريا، كما يسميها هذا الطبيب الغريب؟ تذكرها الفتاة بما حدث لأميرة تحت لعنة في قصة خرافية. وما الذي بإمكانه أن يعيد الفتاة إلى حياتها العادية؟ ليس أميرًا. بل عشب سحري من أقاصي الأرض؟ أو صدمة مثلًا لتنتزع القضمة السامة من حلقها؟ لا، بل شيء بسيط مجرد نفس من الهواء مثلًا. أو أن تسترد عقلها!

ماذا لو هزت ليب الفتاة وأيقظتها في هذه اللحظة وقالت لها: «تعقلي، عودي إلى وعيك»!

ولكن جزء من تعريف الجنون، هو رفض الشخص لقبول فكرة أنه مجنون. ومشفى ستانديش مليء بمثل هؤلاء الأشخاص. لكن هل يمكن اعتبار الأطفال يفكرون بعقلانية؟ عادة، يعتبر السابعة

هو عمر الإدراك، ولكن ليب تفهم أن شعور الأطفال في السابعة لا يزال ينبع من الخيال. في هذه السن يعيش الأطفال للعب فقط. بالطبع يمكن تدريبهم على بعض المسؤوليات، ولكن هذا في الأوقات الإضافية بالنسبة لهم. كما أنهم يأخذون ألعابهم على محمل الجد مثلما يفعل المجانين مع أوهامهم. هم مثل آلهة صغيرة، يشكلون عوالمهم الصغيرة من الطين، أو حتى من مجرد كلمات. بالنسبة لهم، إدراك الحقائق ليس بسيطًا.

راحت ليب تجادل نفسها؛ ولكن أنا تبلغ من العمر أحد عشر عامًا، وهذا يبتعد كثيرًا عن سن السابعة. الأطفال الآخرين الذين يبلغون الأحد عشر عامًا، يعلمون متى تناولوا الطعام ومتى لم يفعلوا ذلك. هم في سن كافية للتمييز بين التخيل والواقع. هناك شيء مختلف كثيرًا، لا بل خاطئ جدًا فيما يتعلق بآنا أودونيل.

كانت الفتاة لا تزال نائمة بعمق. ومن النافذة الصغيرة خلفها، تنساب أشعة الشمس الذهبية. فكرت ليب في إرغام الطفلة باستخدام أنبوب، لإدخال الطعام في جسدها من أعلى أو أسفل..

لكن لكي تتخلص ليب من هذه الأفكار، التقطت كتاب **«ملاحظات حول التمريض»**. وقعت عينيها على جملة كانت قد علّمت عليها في القراءة الأولى: **«يجب أن تبتعد عن الثرثرة والكلام الفارغ؛ يجب ألا تُجيب عن أي أسئلة حول المريض، سوى لأولئك الذين لهم الحق في طرحها»**.

هل يملك ويليام بيرن هذا الحق؟ لم يكن ينبغي لها أن تتحدث معه بهذه الصراحة في غرفة الطعام الليلة الماضية. أو ربما لا يجب أن تتحدث معه على الإطلاق!

رفعت نظرها وارتجفت، عندما وجدت الطفلة تنظر إليها مباشرةً. قالت: «عمت صباحًا يا آنا»!

خرجت الكلمة بسرعة شديدة، كأنها اعتراف بالذنب.

-عمتِ صباحًا يا سيدة.. ما اسمك؟

كانت تتكلم بجرأة، ولكن ليب وجدت نفسها تضحك. قالت: «إليزابيث، إذا كنت ترغبين في معرفة اسمي»!

بدا الاسم له صدى غريب. زوج ليب، الذي دام زواجه منها لمدة أحد عشر شهرًا، كان آخر من استخدم هذا الاسم، وفي المشفى كانوا ينادونها السيدة رايت.

قالت آنا، وهي تحاول تجربة نطق الاسم بصعوبة: «عمتِ صباحًا يا سيدة إليزابيث»!

هذا يبدو وكأنها امرأة أخرى تمامًا! لا أحد يناديني بهذا الاسم.

سألتها آنا، وهي تنهض على كوعيها، وتفرك إحدى عينيها.. «إذنْ ماذا ينادونك؟

شعرت ليب بالندم لأنها قالت اسمها الأول، لكن بعد ذلك، تذكرت أنها لن تبقى هنا لفترة طويلة، فما الذي يهم حقًّا؟ قالت للفتاة: «السيدة رايت، أو الممرضة، أو يا سيدتي.. هل نمت جيدًا؟

حاولت الفتاة أن تجلس. تمتمت: «**أَنَا اضْطَجَعْتُ وَنِمْتُ. اسْتَيْقَظْتُ لأَنَّ الرَّبَّ يَعْضُدُنِي**». ثم سألت: «إذنْ: ماذا يناديك أفراد عائلتك؟

أذهل ليب هذه التبديل السريع بين كلام الكتاب المقدس والمحادثة العادية. قالت: «أنا لم يعد عندي عائلة». كان هذا صحيحًا من الناحية الفعلية؛ فحتى لو كانت شقيقتها لا تزال على قيد الحياة، إلا أنها

اختارت الابتعاد عن ليب.

اتسعت عينا آنا بشدة!

تتذكر ليب في طفولتها، أن وجود العائلة كان ضروريًا ولا يمكن الاستغناء عنه، تمامًا مثل سلسلة من الجبال. لا يفكر أحد أنه مع مرور السنين، قد ينجرف بعيدًا في بلاد لا حدود لها! أدركت ليب في هذه اللحظة كم هي وحيدة في هذا العالم.

قالت آنا: «ولكن عندما كنت صغيرة.. كان اسمك إليزا؟ إيلسي؟ إيفي؟

بدأت ليب تمزح بشأن ذلك: «ما هذا، حكاية رومبلستيلتسكين؟

-من هذا؟

-رجل عفريت صغير يـ...»

لكن روزالين أودونيل أسرعت لتحية ابنتها، دون أن تلقي نظرة على الممرضة. بدا ظهرها العريض مثل درع ألقي أمام الطفلة، تلك الرأس الكبيرة الداكنة تنحني فوق الرأس الأصغر. تتمتم ببعض الكلمات بالأيرلندية بالتأكيد، هذا المنظر برمته يجعل ليب تشعر بالاستياء!

عندما لا يبقى للأم سوى طفل وحيد في المنزل، يتجه كل اهتمامها نحو ذلك الطفل. تساءلت ليب، هل كان لبات وآنا أشقاء آخرين؟

الآن، تجثو آنا بجانب والدتها، يديها مضمومتين معًا، وعيناها مغلقتين. تتمتم: **«لقد أخطأت كثيرًا في الفكر والقول والفعل، بسبب خطيئتي، بسبب خطيئتي، بسبب خطيئتي العظيمة»** مع كل كلمة خطيئتي، كانت الفتاة تقرع على صدرها بقبضة يدها المغلقة.

نطقت السيدة أودونيل: «امين».

بدأت آنا صلاة أخرى: **«يا أمي العذراء، الوديعة المتواضعة، خذيني، خذيني إلى طفلكِ».**

فكرت ليب في النهار الطويل الذي ينتظرها. كيف في وقت لاحق، ستكون مطالبة بإبعاد الفتاة عن الأنظار في حالة وجود زائرين. قالت في اللحظة التي عادت فيها الأم إلى المطبخ: «آنا، ما رأيك في أن نذهب للنزهة باكرًا؟

قالت الفتاة: «لا يزال الوقت مبكرًا»!

لم تهتم ليب حتى أن تفحص نبض آنا، لكن ذلك يمكن أن ينتظر. قالت للفتاة: «لِم لا؟ ارتدي ملابسك وضعي معطفكِ».

رسمت آنا نفسها بعلامة الصليب، وهمست بصلاة دوروثي بينما تسحب ملابس النوم من فوق رأسها. هل هناك كدمة جديدة على كتفها؟ بنية مخضّرة؟ قامت ليب بتدوين ذلك.

قالت روزالين أودونيل وهي في المطبخ، الجو لا يزال ضبابيًا، وقد تدوسون في روث البقر أو تكسرون أكاحلكم.

قالت ليب بعد أن فتحت الباب الموارب: «سوف أعتني بابنتك بشكل جيد تمامًا».

خرجت، وراءها آنا، فتفرّق الدجاج وتباعد. كان النسيم الرطب منعشًا.

هذه المرة، انطلقتا من خلف الكوخ على طريق صغير بين حقلين. سارت آنا ببطء وبشكل غير منتظم، تُبدي ملاحظاتها على كل شيء. قالت: «أليس من الطريف أن الطيور الجارحة لا يمكن رؤيتها على الأرض، نراها فقط عندما ترتفع عاليًا في السماء للغناء! أوه، انظري، ذاك الجبل هناك والشمس صاعدة من خلفه، ألا يشبه الحوت؟

لم تر ليب أي جبال أمامها في هذا الأراضي المسطحة. كانت آنا تشير إلى تلة منخفضة؛ لا شك أن سكان وسط أيرلندا يرون كل تل صغير كقمة جبل عالية.

بعض الأحيان تتخيل آنا أنه بإمكانه رؤية الرياح بالفعل؛ هل السيدة المسماة شيء مثل «إليزابيث» تقتنع بذلك؟

قالت ليب:

-ادعِني السيدة رايت..

قالت آنا وهي تضحك:

-أو الممرضة، أو السيدة..

بدت مُفعمة بالحيوية. تساءلت ليب، كيف يمكن لهذه الطفلة أن تكون مريضة بالجفاف! لا بد أن هناك شخص يعتني بإطعامها.

بدأت الأشجار المحيطة بالطريق تتلألأ الآن. سألت ليب الفتاة: «هو أكثر اتساعًا من المياه وأقل خطورة في العبور؟

-هل هذا لغز؟

-بالطبع، تعلمته عندما كنت طفلة صغيرة.

كررت آنا:

-امممم.. أوسع من المياه

-أنت تتخيلينها مثل البحر، أليس كذلك؟ لا تفعلي ذلك!

-لقد رأيت البحر في الصور..

-أنت نشأت في هذه الجزيرة الصغيرة ولم تصلي لنهايتها حتى..

قالت آنا بتباهي:

-لكنني رأيت أنهارًا كبيرة بأم عيني!

-حقًا!

-نعم، تولامور، وبروسنا أيضًا، في ذلك الوقت ذهبنا إلى المعرض في مولينجار.

عرفت ليب بأنها تعرف اسم هذه المدينة في وسط البلاد، حيث أصيب حصان ويليام بيرن. هل ما زال هناك اليوم في نزل رايان، في الغرفة المجاورة لها، على أمل أن يعرف المزيد عن حالة آنا؟ أم أن تقاريره الساخرة من الموقف كانت كافية للتايمز الأيرلندية؟

قالت ليب:

-المياه في اللغز الذي أقوله لكِ ليست كنهر كبير حتى. تخيلها مُنتشرة على كل الأرض، ولكن لا يوجد خطر في عبورها!

تصارعت آنا مع الفكرة، وأخيرًا أخذت تهز رأسها.

قالت ليب: «إنه الندى»!

-أوه! كان يجب أن أعرف..

-هو شيء صغير جدًا، لا يتذكره أحد أو يفكر به.

فكرت ليب في قصة المنّ التي قيل فيها «أن المنّ كان يغطي وجه الأرض».

توسلت آنا: «قولي لغزًا آخر»!

-لا أستطيع أن أتذكر واحدة أخرى في الوقت الحالي.

مشت الفتاة في صمت لمدة دقيقة، تبدو متعثرة تقريبًا. هل كانت تتألم؟

كانت ليب تود لو تمسك ذراعها؛ لمساعدتها على تخطي الطريق الوعر، لكنها تذكرت أن دورها هو (المراقبة وحسب).

من بعيد، ظهر شخص أمامهم، ظنت ليب أنه ملاخي أودونيل، ولكن عندما اقتربوا منه، اتضح

أنه رجل متقدم في السن ومحني الظهر. كان يجزّ أحواض الزرع، ويترك خلفه مستطيلات سوداء في الأرض، ويضع الزرع جانبًا في كومة؛ افترضت ليب، أن هذا الزرع ربما يستخدم لإشعال النيران.

صاحت آنا بالرجل: «ليُبارك الرب العمل»!

أومأ الرجل برأسه ردّا عليها. كان شكل منجله غريب، لم تره ليب من قبل؛ حيث كانت الشفرة مثنية مثل أجنحة. سألت الفتاة بعدما تجاوزوه: «هل هذا دعاء آخر يجب أن تقولينه؟

أجابت آنا: «نعم، يجب أن نقول ليبارك الله العمل، وإلا قد يصاب بأذى».

سألت ليب بنبرة تحمل سخرية: «ماذا؟ هل سيتأذى إذا لم تقولي ذلك؟!

بدت آنا حائرة. ثم أجابت: «لا، قد يقطع إصبعه بالمنجل»!

أها، إذن هذا نوعًا من الوقاية بالسحر! هكذا فكرت ليب.

والآن، بدأت الفتاة ترتِّل بصوتها الخافت:

في جراحك العميقة، يا رب..

خبِّئني واحمني..

حتى لا أبتعد عنك للمنتهى.. للمنتهى.

في رأي ليب، لم تكن طريقة الترتيل المُبهجة التي ترتل بها آنا، تتناسب مع هذه الكلمات المُعبرة عن المرض.. فكرة الاختباء بعمق داخل جرح، تشبه وجود الديدان في..

قالت آنا: «ها هو الدكتور ماكبرارتي»!

كان الرجل العجوز يسير بالقرب من الكوخ، ويسرع نحوهما، أزرار معطفه مُقفلة بشكل خاطئ ومعوج. رفع قبعته من على رأسه تحيةً لليب، ثم

التفت إلى الفتاة. قال:

-أخبرتني أمك إنني سأجدك هنا تستمتعين بالهواء الطلق.. أنا سعيد برؤية وجنتيك الورديتين!

رأت ليب أن الفتاة كان وجهها أحمر قليلًا، ولكن من الجهد الذي بذلته في المشي، فكلمة (وردية) هذه مبالغ فيها.

همس ماكبرارتي لليب: «هل ما زالت بصحة جيدة في العموم؟

الآنسة «ن» كانت جدًا صارمة بخصوص مناقشة حالة المرضى في وجودهم. لذا اقترحت ليب على الفتاة قائلة: «اذهبي أمامنا يا آنا.. لماذا لا تقومين بالتقاط بعض الزهور لغرفتك؟

أطاعت الفتاة. لكن ليب ظلت تحدق بها. وخطر على بالها أنه قد يكون هناك توت أو ثمار غير ناضجة في المنطقة.. هل يمكن لفتاة مصابة بالهستيريا - إذا كانت آنا كذلك - أن تأكل بعض الثمار دون أن تدرك ما تفعله؟

قالت للطبيب، وهي تفكر فيما قاله ستانديش عن تجويع النفس. «لا أعرف كيف أجيب على سؤالك»!

راح ماكبرارتي يعبث في التربة الناعمة بعكازه.

ترددت ليب لحظةً، ثم أجبرت نفسها على ذكر الاسم، سألته: «هل كان للدكتور ستانديش فرصة للحديث معك الليلة الماضية، بعد أن رأى آنا؟ كانت على أتم الاستعداد، لتقديم أفضل الحجج ضد التغذية القسرية.

تبدّل وجه الرجل العجوز، كأنه أكل شيئًا حامضًا. قال: «كان أسلوبه غير متحضّر. بعد أن قدمت له مجاملة بالسماح برؤية الفتاة، من بين جميع الذين يلتمسون الدخول إليها»!

انتظرت لحظة أن يُكمل حديثه.

ولكن من الواضح أن ماكبرارتي لن يخبر أحد عن التوبيخ الذي تلقاه. وبدلًا من ذلك، سأل: «هل التنفس لديها لا يزال سليمًا؟

أومت ليب برأسها.

-دقات القلب، ونبض الشرايين؟

اعترفت بأنه «نعم»!

-هل تنام بشكل جيد؟

إماءة أخرى بالرأس.

قال الرجل: «الفتاة تبدو مبتهجة، وصوتها لا يزال قويًا». ثم سأل: «هل لديها قيء أو إسهال؟

-حسنًا، لا أتوقع ذلك في شخص لا يتناول الطعام!

لمعت عينا الرجل العجوز المغرورقتين بالمياه. «إذنْ تعتقدين حقًّا أنها تعيش بدون..»

لكنها قاطعته قائلة: «أعني، أنها لا تتناول ما يكفي من الطعام ليكون هناك أي نوع من الإخراج. آنا لا تُخرج فضلات، والبول قليل جدًا. هذا يشير إلى أنها تتناول بعض الطعام -أو كانت تتناوله قبل بدء المراقبة-، ولكن ليس بكمية كافية ليكون هناك أي فضلات».

هل يجب على ليب أن تذكر ما تفكر به، بخصوص حصول آنا على الغذاء في أثناء الليل، وهي غير واعية طوال هذه الشهور؟ تراجعت عن ذلك فجأة، إذ بدت هذه الفكرة غير معقولة، مثل أي نظرية من نظريات الرجل العجوز نفسه.

بدلًا من ذلك، سألته: «ألا تظن أن عينيها متورمتان بشكل أكبر؟ جلدها مليء بكدمات وقشور خشنة، واللثة تنزف.. على ما أظن أنها ربما مصابة بداء الإسقربوط. أو البلاجرا على الأقل، هي بالتأكيد

تبدو مصابة بفقر الدم».

قام ماكبرارتي بتحريك العشب الناعم بعصاه، وكأب متسامح يوبخ طفلًا، قال: «ماذا يا سيدة رايت الصالحة! هل سنبدأ في الابتعاد عن مهمتنا؟

قالت ليب بصوت مكتوم:

-معذرة حضرة الطبيب!

-اتركي مثل هذه الألغاز لأولئك الذين تم تدريبهم عليها.

كانت ليب تود أن تعرف أين تم تدريب ماكبرارتي، وإلى أي مدى، وهل كان في هذا القرن أم القرن السابق!

-مهمتك هي المراقبة وحسب.

لكن لم يكن هناك شيء بسيط في مثل هذه المهمة. هذا ما عرفته ليب الآن، كما لم تعرفه قبل ثلاثة أيام.

أتى صياحٌ من بعيد «»إنها هي»! كان يأتي من عربة محمّلة بأوزان ثقيلة في الأعلى، ومتوقفة خارج منزل أودونيل. العديد من الركاب كانوا يلوحون لآنا.

يا لها من فتاة محاصرة بالفعل، حتى في هذا الوقت المبكر من اليوم! لكن إلى أين ذهبت آنا؟ تلفتت ليب حولها حتى وجدت الفتاة، وهي تستنشق عبير الزهور بسرور. لم تتحمل ليب فكرة أن ترى التذلُّل والتملُّق والأسئلة المتطفلة. قالت: «يجب أن آخذها إلى الداخل يا دكتور». ركضت نحو آنا وأمسكت ذراعها. قالت الفتاة:

-أرجوك..

-لا، آنا، لا يجوز لك التحدث معهم. لدينا قاعدة ويجب أن نلتزم بها.

أسرعت بالفتاة نحو الكوخ، في اتجاه حافة

الحقل، والطبيب يلحق بهما. تعثرت أنا وانخلع أحد حذاءيها الكبيرين. سألتها ليب: «هل تؤلمك؟
هزت رأسها.
جذبتها للأمام، واتجهت ناحية أحد جوانب الكوخ. قالت بغضب: «لماذا لا يوجد باب خلفي؟! مرت بين الزوار المحتشدين، بينما يتشاجرون مع روزالين أودونيل، التي كانت يديها مغطاة بالدقيق إلى المرفقين.
صاح أحدهم: «ها هي قد أتت، الصغيرة المعجزة»!
قامت امرأة بدفع نفسها لتقترب منها. توسلت إليها: «ليتكِ تتركيني أمسك بهدب ثوبكِ، يا عزيزتي..»
تدخلت ليب وحمت الطفلة بكتفها. أردفت المرأة: «حتى لو تعطيني قطرة واحدة من لعابكِ، أو قطرة زيت من أصابعكِ لتشفي هذا الجرح في رقبتي»!
عندما أصبحوا جميعًا في الداخل، وأغلقت الباب وراء الدكتور ماكبرارتي، لاحظت ليب أن آنا تتنفس بصعوبة، ليس بسبب الخوف من الأيدي المتطفلة وحسب. لكن لأن الفتاة ضعيفة وهشة بالفعل. فكرت ليب كم هي ممرضة سطحية، حتى تُجهد الفتاة أكثر من قدرتها بهكذا طريقة! كيف كانت الآنسة «ن» ستنتقدها لهذه الفعلة!
سألتها روزالين أودونيل بانزعاج: «هل أنتِ مريضة يا حبيبتي؟
هوت آنا على أقرب كرسي. قال ماكبرارتي: «هي تشعر بضيق في التنفس، على ما أعتقد».
قالت الأم: «سأدفئ لك قطعة من القماش».
نظفت يديها قبل أن تُدفئ قطعة قماش على النار.
قال ماكبرارتي للفتاة:
-لقد بردت قليلًا في خلال نزهتك في الخارج.

همست ليب:

-هي دائمًا تشعر بالبرد.

كانت يدي الفتاة زرقاء. جذبتها إلى كرسي ذا ظهر مرتفع بجوار الموقد وفركت أصابعها السميكة بين يديها بلطف، فركتها بخفة خوفًا من إيذائها.

عندما أدفأت روزالين قطعة القماش، لفتها بحنان حول عنق آنا.

كانت ليب تود أن تُمسك بالقماش أولًا وتتأكد من عدم وجود أي شيء صالح للأكل مخبأ به، ولكنها فقدت الشجاعة لفعل ذلك.

سألها الطبيب:

-وكيف تسير الأمور مع السيدة رايت، يا عزيزتي؟

-أشعر بتحسن كبير.

هل هذه الطفلة مهذبة؟ كل ما تتذكره ليب هو لحظات تعاملت فيها بعنف أو بصرامة معها! أضافت آنا:

-إنها تعلّمني الألغاز!

قال الطبيب، وهو يمسك معصم الطفلة المنتفخ بين أصابعه، ويفحص نبضها: «رائع»!

عند الطاولة التي بجانب النافذة الخلفية، توقفت السيدة أودونيل عن عجن الكعك بين يديها. سألت: «أي نوع من الألغاز؟

أخبرت آنا والدتها: «ألغاز ذكاء».

سألها ماكبرارتي: «هل تشعرين بتحسن طفيف الآن؟

أومأت برأسها وابتسمت.

قال الطبيب وهو ينحني للتحية:

-حسنًا، سأذهب في طريقي الان يا سيدة روزالين،

يومًا سعيدًا لك!

-ولك أيضًا. ليباركك الرب على زيارتك».

عندما أغلق الباب وراء ماكبرارتي، شعرت ليب بالاستياء والكآبة؛ فهو لم يستمع إليها تقريبًا، بل ويتجاهل تحذيرات ستانديش. هو فقط غارق في انبهاره بالطفلة المعجزة!

لاحظت الكرسي الفارغ بجانب الباب. قالت: «أرى أن الصندوق اختفى»!

قالت كيتي:

-أرسلناه إلى السيد ثاديوس مع أحد الصبية من كورك، مع القفازات الصغيرة في قشرة الجوز.

ثم ألقت روزالين أودونيل كلماتها وهي تنظر نحو ليب:

-كل قرش يذهب لمساعدة الفقراء والمحتاجين. تخيلي ذلك يا آنا؛ أنكِ تزخرين كنوزًا في السماء!

كم تتباهى روزالين بهذا المجد وهذه الشهرة! الأم هي العقل المدبر للمؤامرة، وليس مجرد متآمرة بين الآخرين؛ ليب كانت تقريبًا متأكدة من ذلك. الآن، أعطتها ظهرها حتى لا تُظهر عداؤها.

على الرف الذي يبعد ببعض بوصات من وجه ليب، وضعِت الصورة الجديدة بجانب الصورة القديمة للعائلة بأكملها. بدت الفتاة الصغيرة متشابهة جدًا في كلتا الصورتين؛ نفس الأطراف النظيفة المرتبة، تعبيرات الوجه التي تبدو كأنها لا تنتمي لهذا العالم. كما لو أن الزمن لا يمر على آنا؛ كأنها أنها محفوظة وراء الزجاج.

ولكن الشخص الغريب حقًا كان الأخ، تفاجأت ليب من وجه بات المراهق، الذي كان مشابهًا لوجه أخته الأكثر نعومة، مع فارق أن الأولاد يفرقون شعر

رؤوسهم عن الجانب الأيمن. لكن عينيه؛ هناك شيء غريب في بريقهما. الشفتان داكنتان، كما لو وضع عليهما أحمر شفاه داكن. كان يستند إلى والدته قوية البنية وبدا كطفل أصغر سنًا، أو كمتبختر سكران. ماذا تقول تلك العبارة في المزمور؟ «بَنُو الْغُرَبَاءِ يَبْلَوْنَ»!

مدت آنا يديها لتدفئتهما بجانب النار، كانتا مثل مروحة أنيقة الشكل.

كيف يمكن الحصول على مزيد من المعلومات عن الفتى؟ قالت ليب:

-لا بد أنكِ تشتاقين لابنكِ، يا سيدة أودونيل!

سادت لحظة من الصمت. ثم قالت روزالين أودونيل:

-بالطبع، أشتاق له.

كانت تقطع الجزر الأبيض، وتلوح بالسكين الكبيرة بيدها النحيلة الكبيرة. أردفت: «آه، حسنًا. الله يعطي العبء على قدر الاحتمال، كما يقولون».

فكرت ليب في استدراجها أكثر. سألت:

-هل مضى وقت طويل منذ أن سمعتم عنه؟

توقفت السكين ونظرت روزالين أودونيل إليها. قالت:

-إنه ينظر إلينا من السماء.

-ماذا؟ هل حقق بات أودونيل نجاحًا في العالم الجديد، لدرجة أنه لم يعد يهتم بكتابة رسائل لعائلته؟

-من السماء

كان هذا جواب كيتي. رمشت ليب، فأشارت الخادمة إلى أعلى لتتأكد أن السيدة الإنجليزية تفهم. أردفت: «في نوفمبر الماضي توفي».

وضعت ليب يدها على فمها بحركة لاإرادية. أردفت الخادمة: «لم يكن بعمر الخامسة عشرة حتى»!

صاحت ليب: «أوه، سيدة أودونيل.. أرجو أن تسامحي تصرفي بعدم لياقة»! ثم أردفت وهي تشير إلى الصورة، حيث يبدو الفتى وكأنه يراقبها بازدراء، أو ربما سخرية؟ «لم أدرك أن الفتى..»

أدركت الآن، أن الصورة لم يتم التقاطها قبل وفاته، بل بعدها. أما أنا، كانت تستلقي على الكرسي، وبدت كأنها صماء عن كل ذلك، وهي تتأمل النيران.

عوض أن تشعر روزالين أودونيل بالاستياء، سألت وهي تبتسم بطريقة مرضية: «هل يبدو حيًا لكِ يا سيدتي؟ حسنًا، هذا أمر غريب»!

كان يستند إلى حضن والدته. شفتيه المسودتين، أول إشارة للتحلُّل؛ كان يجب على ليب أن تخمن ذلك. هل ظل فتى أودونيل في هذا المطبخ ليوم كامل، أو يومين أو ثلاثة، بينما كانت عائلته تنتظر مجيء المصوِّر؟

اقتربت روزالين أودونيل من ليب لدرجة جعلتها تنتفض. نقرت على السطح الزجاجي للصورة وقالت: «رسم عينيه باحترافية، أليس كذلك»!

قام الرسام برسم بياض وبؤبؤ العين للجثة التي في الصورة، وأيضًا الجفون شبه المغلقة فوقها؛ ولهذا كانت نظرته تشبه تمامًا نظرة التمساح. دخل السيد أودونيل واتجه إلى الغرفة، لينظف الطين عن حذائه. رحبت زوجته به باللغة الأيرلندية، ثم تحولت إلى الإنجليزية. قالت: «انتظر حتى تسمع يا ملاخي. اعتقدت السيدة رايت أن بات لا يزال في هذا العالم»!

يبدو أن هذه المرأة لديها موهبة في الاستمتاع

بالأشياء المروعة!

قال ملاخي بحركة رأسه، دون أن يشعر بالاستياء:

-مسكين بات!

قالت روزالين أودونيل وهي تنقر على السطح الزجاجي:

-العيون، هي التي خدعتها تمامًا! هذا الرجل يستحق كل قرش أخذه.

تجلس آنا وذراعاها ساكنتان على فخذيها، والنيران تنعكس على عينيها. كانت ليب تتوق لإخراجها من هذه الغرفة.

قال ملاخي أودونيل: «معدته هي التي أودت بحياته».

عطست كيتي ومسحت عينها بكمّ ثوبها البالي. بينما الرجل يخاطب ليب، لذا كان عليها أن تومئ برأسها.

نقر بيده حول سرته، وقال:

-بدأ الألم من هنا، ثم إلى هنا، انظري؟

ثم كشف بطنه على الجهة اليمنى. أردف: «كان تورم في حجم البيضة».

كان يتحدث بتلقائية أكثر مما سبق وهي تسمع منه. أضاف: «في الصباح هدأت أوجاعه، لذا ظننا أنه لا حاجة إلى إزعاج الدكتور ماكبرارتي».

أومأت ليب مجددًا. تُرى هل كان الأب يلتمس رأيها المهني؟ أم يسعى لتسامحه؟

قالت روزالين أودونيل:

-ولكن بات ظل يشعر بالضعف والبرودة داخل جسمه، لذا وضعنا كل الأغطية في المنزل على سريره، ووضعنا أخته بجواره لتدفئته.

ارتجفت ليب؛ ليس فقط بسبب المشهد، ولكن أيضًا بسبب إعادة سرده في حضور فتاة رقيقة وحساسة مثل آنا!

همست والدته روزالين أودونيل:

-كان يتنفس بصعوبة ويهذي، كما لو كان يحلم.

قال ملاخي أودونيل:

-مات المسكين قبل الإفطار.. لم يكن هناك وقت لاستدعاء الكاهن حتى!

هز رأسه كأنه يريد التخلص من ذبابة. صاحت روزالين:

-كان صالحًا جدًا على هذا العالم!

قالت ليب:

-آسفة جدًا لمصابكم!

التفتت مرة أخرى إلى الصورة المُعتمة حتى لا تضطر إلى النظر إلى الوالدين. لكنها اكتشفت عدم تحمُّلها للمعان في تلك العيون، لذا أخذت آنا ويديها ما زلت باردة وذهبت بها إلى غرفة النوم.

وقعت عينها على صندوق الكنز. تذكرت الشعر البني الداكن في التمثال المكسور، لا بد أنه شعر أخيها. شعرت ليب بالقلق بسبب صمت آنا. ما الذي يفعله وضع طفلة بجوار فتى يحتضر، لاستخدامها كآلة تدفئة؟! قالت ليب: «لا بد أنك تشعرين بفقدان شقيقك».

تبدلت ملامح الفتاة. قالت: «ليس هذا، أو.. بالطبع أشعر بذلك يا سيدة إليزابيث. لكن ليس هذا الأمر».

اقتربت من ليب وهمست: «أمي وأبي يعتقدان أنه في الفردوس. لكن أتعرفين؟ لا يمكننا أن نكون متأكدين من ذلك. **(لا تيأس، ولا تشك)**، هما الخطيئتان اللتان لا يغفرهما الروح القدس. إذا كان

بات في المطهر، فهو يحترق الآن..»
قاطعتها ليب:
-أوه، آنا.. أنتِ تقلقين نفسك بدون سبب. هو كان مجرد صبي!
-لكننا جميعًا خطاة. وهو مرض بسرعة، ولم ينال المغفرة في الوقت المناسب..
انهمرت الدموع في ياقة الفتاة.
هل تقصد الفتاة الاعتراف؟ نعم، يتشبث الكاثوليك بعقيدة قوة الاعتراف الفريدة في محو كل الخطايا. بكت آنا وناحت بشدة، حتى أن ليب لم تستطع سماع الكلمات جيدًا. قالت:
-يجب أن نتطهر حتى يُسمح لنا بدخول الفردوس..
-حسنًا، سيتم تطهير شقيقكِ
تحدثت ليب بشكل عملي سخيف، كخادمة في حضانة تملأ حوض استحمام للأطفال. قالت الفتاة:
-بالنار، فقط بالنار!
-أوه، يا فتاة..
كانت هذه لغة غريبة، وصراحةً، لم تكن ليب ترغب في معرفتها. ربتت على كتِف الفتاة بطريقة خالية من المشاعر، شعرت بمكان عظم الكتف.
***
قالت ليب وهي تتناول الحساء: «لا تذكر هذا في مقالتك». (لقد اكتشفت وجود ويليام بيرن وهو يتناول العشاء في الغرفة الصغيرة في نزل «رايان»، في الواحدة والنصف عندما عادت من نوبة العمل).
قال بيرن:
-تابعي..
قررت ليب أن تأخذ ذلك كوعد منه. قالت بصوت

خفيض:

-أنا أودونيل تعيش في حداد على رحيل شقيقها الوحيد، الذي توفي بسبب مشكلة هضمية قبل تسعة أشهر.

أوما بيرن فقط برأسه، ومسح صحنه بقطعة خبز، مما جعل ليب تشعر بالاستياء. أردفت: «هل تتشكك في أن ذلك غير كافٍ ليسبب انهيارًا عقليًا لطفلة؟

هز كتفيه وقال:

-ربما يمكن القول، إن بلادي بأكملها في حالة حداد يا سيدة رايت.. بعد سبع سنوات من المجاعة والوباء، هل يوجد عائلة لم يتحطم قلب أفرادها؟

لم تكن تعرف ماذا تقول. سألته:

-سبع سنوات حقًا؟!

-بدأ انهيار مواسم البطاطا في عام 45 ولم تغد بالكامل إلاّ في عام 52.

أزالت ليب قطعة صغيرة من العظم بخفة من فمها، ربما من أرنب. قالت:

-على أي حال، ماذا تعرفه أو تفهمه آنا عن هذه الأسئلة القومية في ظنك؟ ربما تشعر وكأنها الفتاة الوحيدة التي فقدت أخًا.

ترددت كلمات تلك الترنيمة في رأسها: **(حتى لا أبعد عنك للمنتهى)**. ربما تعذب نفسها بالتساؤل عن سبب موته هو وليس هي. يبدو أن روحها مكتئبة، أليس كذلك؟!

قالت ليب بتردد: «في بعض الأحيان، ولكن في أحيان أخرى، تتألق بفرحٍ سري!

-بالحديث عن الأسرار، ألم تلاحظي حتى الان أنها تحاول الحصول على الطعام سرًا؟

هزت ليب رأسها. قالت بصوتٍ خفيض: «لقد

توصلت إلى فكرة، هي أن آنا تعتقد حقًا أنها تعيش بدون طعام». ثم ترددت، لكن كان عليها أن ترى صدى فكرتها على شخصٍ ما. لذا تابعت القول: «لقد تبادر إلى ذهني أن أحد أفراد الأسرة، يستغل حالة التوهم للطفلة، وربما يعطيها كمية صغيرة من الطعام في أثناء نومها».

قال ويليام بيرن وهو يرفع خصلات شعره الحمراء من على وجهه:

-آه، هيا الآن! مثل هذه الحيلة تقدم تفسيرًا مقنعًا لآنا، بأنها لم تتناول الطعام منذ أربعة أشهر. طالما كانت فاقدة الوعي تمامًا، بينما يقوم شخص ما بسكب الطعام في حلقها.. هذا ممكن. ولكن من المحتمل!

أخذ قلمه. سأل:

-هل يمكنني طرح هذا في تقريري القادم؟

-لا يمكنك! إنه مجرد تخمين ليس أكثر.

-سأكتب عنوان المقال: رأي مهني من ممرضتها.

رغم شعورها بالهلع من كلامه، شعرت ليب بنشوة من السرور؛ لأن بيرن يأخذ كلامها على محمل الجد. أردفت: «بالإضافة إلى ذلك، تم تحذيري بصرامة من عدم التعبير عن أي آراء، حتى أقدم تقريري للجنة يوم الأحد القادم».

ألقى قلمه. قال:

-إذن، لماذا تثيرين فضولي طالما لا يمكنني استخدام كلمة واحدة مما تقولين؟

قالت ليب بحدة:

-معذرة! دعنا نعتبر الموضوع مغلقًا.

قال بابتسامه حزينة:

-إذنْ أنا مجبر على الاعتماد على نقل الشائعات،

وليست كلها خيرًا بالطبع. الفتاة ليست محبوبة عند الجميع كما تعلمين.

-أتعني أن بعض الناس يعتقدون أنها كاذبة؟

-بالطبع، أو أسوأ من ذلك. الليلة الماضية، قابلت عاملًا مجنونًا يعتقد أن الجان وراء ذلك.

-ماذا تعني؟

-يقولون بأن السبب في عدم تناول آنا للطعام، هو أنها تتمتع بنوع من قوة شيطانية تتنكر في شكل فتاة!

(الجماعة الأخرى.. تنتظر عند قدميها لتخدمها).
هذا ما سمعته ليب من مُزارع ذو لحية في الليلة التي وصلت فيها. ربما كان يقصد أن آنا لديها جيش غير مرئي من الجان! لا بل واقترح علاجًا، (أن يتم ضربها أو حتى إلقاءها في النار) لكن هل في هذه الحالة، ستعود هذه الأرواح إلى حيث جاءت!

ارتجفت ليب، عندما رأت كيف كان هذا النوع من الجهل مرعبًا!

-هل سبق لكِ أن واجهتِ مريضًا مثل آنا أودونيل؟

هزت ليب رأسها. قالت:

-في رعاية التمريض الخاصة، واجهت حالات مريبة، -أشخاص أصحاء، يدّعون أنهم في حالة مرضية فقط لإثارة الاهتمام-. ولكن آنا على العكس من ذلك تمامًا؛ فهي طفلة تعاني من سوء التغذية، وتصر على أنها في صحة ممتازة!

-امم.. إذن، هل ينبغي أن نُطلق على المصابين بالوسواس القهري لقب متظاهرين؟!

شعرت ليب بالحرج، كما لو كانت تتهكم على رؤساءها في العمل. لفت انتباهها قائلًا:

-العقل يمكنه أن يقود الجسد. فكري في الحكّة

وستشعرين برغبة في حك جسمك. أو في التثاؤب..

وقاطع كلامه ليتثاءب بيده.

-حسنًا، ولكن..

اضطرت ليب أيضًا للتوقف لأنها كانت تتثاءب.

اندفع بيرن في ضحكة عارمة، ثم هدأ ونظر إلى الفراغ. قال:

-أفترض أنه، في حدود الممكن، بالتأكيد، يستطيع العقل المدرب إخضاع الجسد ليستمر في الحركة بدون طعام. على الأقل لفترة مؤقتة.

-لكن انتظر.. في أول لقاء لي معك، وصفت أنا بالمحتالة. وفي لقائنا التالي، اتهمتني بمنع آنا من تناول الطعام. والآن، بعد أن سخرت من فكرة إطعامها في أثناء النوم، تشير إلى أن تلك الادعاءات الوهمية قد تكون صحيحة رغم كل شيء! «لا تقل إنك ستنضم إلى معسكر أودونيل!

تلعثمت شفتاه. قال:

-من واجبي أن يكون عقلي منفتحًا. في الهند - تم إرسالي إلى لكناو للتحقيق في أحداث التمرد - وهناك رأيت أنه ليس من الغريب أن يدّعي الفقراء حدوث تجمد في الحركة.

-الفقراء؟

-الفقراء، هم الدراويش أو النُساك. أخبرني العقيد وايد، الذي كان يعمل سابقًا كوكيل للحاكم العام في البنجاب: «أنه شاهد التنقيب عن شخص يدعى فقير لاهور». لقد قضى أربعين يومًا تحت الأرض - بدون طعام أو شراب أو ضوء، باستثناء القليل من الهواء - وخرج الرجل بصحة جيدة تمامًا»!

هزت ليب رأسها بسخرية.

فهز بيرن كتفه وقال:

-كل ما أستطيع أن أخبرك به، هو أن هذا المحارب المخضرم، حدثني بقناعة شديدة كادت أن تجعلني أصدقه!

-وأنت الصحفي الساخر؟!

-هل أنا كذلك؟ أنا فقط أكشف الفساد عندما أراه، هل يجعلني هذا ساخرًا؟

قالت ليب بارتباك:

-معذرةً! قلت أكثر مما أعنيه.

ابتسم ابتسامة باهتة وقال:

-هذه العادة مشتركة بين رجال الصحافة!

تحيّرت ليب وتساءلت، هل ادّعى بيرن أن مشاعره تأذت؛ فقط ليضعها في موقف مُحرج؟ سألها:

-إذَنْ، هل من الممكن أن تكون آنا أودونيل، فتاة يوجا أيرلندية صغيرة؟

-أنت لن تسخر منها إذا كنت تعرفها..

اندفعت الكلمات من ليب بغضب. وقف الرجل على قدميه، وقال:

-إذَنْ سأقبل دعوة التعارف هذه على الفور.

-لا، لا. القواعد ضد الزيارة صارمة.

-إذَنْ كيف استطاع الدكتور ستانديش من دبلن كسر هذه القواعد، هل لي أن أسأل؟

نبرته لا تزال مستهزئة، لكنها مقبولة. أردف: «أنت لم تذكري في الليلة الماضية أنك سمحت له بالدخول، عندما حاول في المرة الثانية».

-يا له من ملعون!

ألقى بيرن نفسه على المقعد مرة أخرى. وقال:

-ملعون، وتسمحين له بالدخول؟!

-سأخبرك بأمر في غاية السرية!

ألقى بيرن دفتره المميز على الطاولة.

-لقد أوصاني بإطعامها بواسطة الأنبوب بالقوة.

عبس وجه بيرن. أضافت ليب:

-أعطيت له الموافقة بالدخول بناءً على إصرار الدكتور ماكبرارتي، رغم تحفظي الشخصي. ولكن ذلك لن يحدث مرة أخرى.

-لماذا، هل تغير دورك من حارس السجن إلى حارس شخصي، يا إليزابيث رايت؟ هل ستقفين في الثغر وتبعدين كل التنانين؟

لم تجب. ثم كيف عرف بيرن اسمها الأول؟ أردف الرجل:

-هل أكون على حق إذا قلت إنك تحبين الفتاة إلى حدِ ما؟

همست ليب بغضب:

-هذا هو عملي. سؤالك غير ذي صلة.

-من واجبي أن أطرح الأسئلة، أي أسئلة.

رمقته بنظرة حادة. سألته:

-لماذا لا تزال هنا، يا سيد بيرن؟

-يجب أن أقول، إنكِ تتقنين فن جعل المسافر المرافق يشعر بالترحيب!

انحنى إلى الوراء بشدة في كرسيه، حتى أنه أصدر صوت طقطقة.

-معذرةً. ولكن كيف تستحق هذه القضية الكثير من اهتمامك المتواصل؟

-سؤال وجيه! لقد طرحت على رئيس التحرير، أنني قبل العودة يوم الإثنين، يمكنني جمع عشرات الأطفال الجائعين في شوارع دبلن. وإلا، لماذا اضطررت للسفر إلى هذه الأراضي الموحلة؟

-وماذا قال؟
-قال ما توقعته: «الشاة الضالة الواحدة، يا وليام»!
بعد لحظة، فهمت ليب الإشارة إلى القصة التي في الإنجيل: «الراعي الذي ترك قطيعه المكون من تسعة وتسعين شاة ليذهب وراء شاة ضالة واحدة». قال بيرن مع اهتزازة بكتفه:
-يجب أن تكون التحقيقات الصحفية ضيقة النطاق. إذا تشتت اهتمام القارئ بين عدة موضوعات هامة، فلن يتبقى له قليلًا من الشعور، ليجعله يذرف الدمع لأيٍّ منها.
أومأت برأسها، وقالت:
-الممرضات هن بالمثل. قد ينجرفن بطريقة تلقائية للاهتمام بفرد واحد أكثر من باقي المرضى.
رفع أحد حاجبيه الحمراوين بخفة.
-لهذا السبب الآنسة التي.. صححت ليب كلامها وقالت: «السيدة التي قامت بتدريبي لم تسمح لنا بالجلوس بجانب مريض معين والحديث معه، أو القراءة له وما إلى ذلك. قالت إن ذلك قد يؤدي إلى التعلُّق».
-تقصدين المغازلة، أو الملاطفة، وما إلى ذلك؟
أبت ليب أن تحمَّر وجنتاها خجلًا. واصلت حديثها:
-لم يكن لدينا وقتًا لنهدره. قالت لنا: «افعلن المطلوب وواصلن العمل وحسب».
-لكن الآنسة نايتنغيل نفسها مريضة الآن بالطبع!
حدقت به ليب.. فهي لم تسمع من قبل عن معلمتها أنها تظهر في الأماكن العامة في السنوات الأخيرة. تفترض أن الآنسة نايتنغيل تواصل مهمتها دائمًا بصمت في إصلاح المستشفيات.
قال وهو يميل على الطاولة:

-أنا آسف جدًا! يبدو أنك لم تكوني قد سمعت بذلك.

جاهدت ليب لتهدئة نفسها.

-هل كانت سيدة عظيمة كما يقولون؟

قالت وهي تشعر بالاختناق:

-بل أعظم، وما زالت كذلك، سواء كانت مريضة أم لا.

دفعت بقايا الأكل جانبًا - غير قادرة على إنهاء وجبتها، للمرة الأولى - ونهضت من مقعدها.

سأل ويليام بيرن:

-أتشعرين بالانزعاج وتريدين الرحيل؟

اختارت ليب أن تجيب عن ذلك كما لو كان يقصد الابتعاد عن الأرياف الأيرلندية كلها، وليس هذه الغرفة الضيقة فقط. قالت:

-حسنًا، يبدو أحيانًا أن القرن التاسع عشر لم يصل إلى هذا الجزء من العالم بعد!

ابتسم ابتسامة عريضة.

-يتركون الحليب للجنيات، ويصدقون أن تمثال من الشمع يستطيع إخماد الحرائق وصد الفيضانات، وفتيات يعشن على الهواء... هل هناك شيء لا يصدقه الأيرلنديون؟!

-بغض النظر عن الجنيات، يتناول معظم أصدقائي الأيرلنديين أي شيء يقدمه لنا الكهنة!

إذن، هو أيضًا كاثوليكيًا؛ هذا ما أدهش ليب بشكلٍ ما.

أشار لها لتقترب منه. انحنت قليلًا، فهمس قائلًا:

-لهذا السبب، أنا أراهن على السيد ثاديوس. قد تكون فتاة أودونيل بريئة، وربما ظلت نائمة طوال

أشهر وهم يطعمونها ليلًا، إذا كنت مُحقة، ولكن ماذا عن سيدها الذي يحرك الدمية؟

كان هذا الكلام كصاعقة! لماذا لم تفكر ليب في ذلك؟ الكاهن كان بالفعل متحدثًا ماهرًا، وإجاباته كانت متكلّفة، وحتى ابتسامته.

ولكن انتظر. رفعت رأسها وقالت:

-دعنا نفكر بشكل منطقي وعادل، يدّعي السيد ثاديوس أنه حثّ آنا على تناول الطعام من البداية.

-حثها فقط؟ هي واحدة من أعضاء رعيته، وواحدة متدينة بشدة. يمكنه حتى أن يأمرها بصعود على الجبل على ركبتيها. لا، أعتقد أن الكاهن كان وراء هذه الخدعة من البداية.

-ولكن بأي دافع؟

فرك بيرن إصبعيه معًا. فقالت:

-المال؟ لكن تبرعات الزائرين تذهب إلى المحتاجين، وهذا يعني أنها تذهب إلى الكنيسة.

كان رأسها يدور؛ كل شيء بدا مقنعًا بشكل رهيب! قال بيرن:

-إذا نجح السيد ثاديوس في الاعتراف بمسألة آنا كمعجزة، وهذه القرية المملّة كمزار، لن يكون هناك حدود للمكاسب. الفتاة الصائمة ستصبح ممولًا لبناء المزار!

-ولكن كيف نجح في إطعامها سرًا في أثناء الليل؟

قال بيرن معترفًا:

-ليس لديّ فكرة! لا بد وأن هناك اتفاق مع الخادمة أو أفراد العائلة. بمن تشتبهين؟

ترددت ليب. وقالت:

-لا يمكنني حقًا أن أقوم بذلك بنفسي..

-أها، فقط قولي بيننا. لقد كنت مع تلك الأسرة ليلًا ونهارًا منذ يوم الإثنين.

ترددت قليلًا، ثم قالت بصوت منخفض جدًا، روزالين أودونيل.

أومأ بيرن. قال: «من قال إن الأم تمثل كلام الله بالنسبة للطفل؟

لم تسمع ليب هذه المقولة من قبل.

حرك قلمه بين أصابعه. قال: «تذكري، أنني لا يمكنني كتابة كلمة واحدة من كل هذا بدون دليل، وإلا سيتهمونني بالقذف».

-بالطبع لا!

-لكن، إذا سمحتي لي بخمس دقائق فقط مع الطفلة، أراهن أنني يمكنني كشف الحقيقة.

-هذا مستحيل!

عاد بيرن إلى صوته العالي المعتاد، قال: «حسنًا.. استجوبيها بنفسكِ إذنْ»!

لم ترحب ليب بفكرة أن تكون جاسوسةً له.

-على أية حال، شكرًا على رفقتكِ يا سيدة رايت.

***

الساعة الآن، الثالثة بعد الظهر تقريبًا، وموعد نوبة العمل التالية تبدأ في الساعة التاسعة. كانت ليب تريد بعض الهواء، ولكن الرذاذ ما زال يتساقط. علاوةً على ذلك، رأت أنها بحاجة أكثر إلى قيلولة. لذا صعدت إلى الطابق العلوي وخلعت حذائها.

فكرت ليب، إذا كانت آفة البطاطس كارثة دامت طويلًا، قبل سبع سنوات فقط، فيعني هذا أن الطفلة التي تبلغ من العمر الآن أحد عشر عامًا، لا بد وأنها ولدت وقت المجاعة. لقت نشأت على الجوع، تربت عليه؛ وهذا يجب أن يؤثر في شخصية

الإنسان.

كل جزء في جسد آنا تدّرب على كيفية الاكتفاء بالقليل. **(هي لم تكن نهمة أبدًا أو تطلب حلوى)**، هكذا تمدح روزالين أودونيل ابنتها. لا بد وأنهم كانوا يعاملونها بكل اللطف عندما تقول إنها تناولت بما فيه الكفاية. وتفوز بابتسامة رضا في كل مرة تقتسم طعامها مع أخيها أو مع الخادمة.

ولكن هذا لا يكفي لتفسير سبب رغبة جميع الأطفال الآخرين في أيرلندا، في تناول العشاء وعدم رغبة آنا وحدها في ذلك.

ربما يكمن الاختلاف في الأم. هي مثل تلك المرأة المتباهية في الحكاية القديمة، التي كانت تتفاخر أمام العالم، بأن ابنتها تستطيع نسج الذهب. ترى، هل لاحظت روزالين أودونيل موهبة ابنتها الأصغر في الامتناع عن الطعام، وحلُمت بوسيلة لتحويلها إلى جنيهات وقروش، وشهرة ومجد؟

استلقت ليب بلا حِراك، وعيناها مُغمضتان، لكن الضوء يتسرب عبر الجفون. أن تكون متعبًا لا يعني أنك قادرٌ على النوم، تمامًا كما أن الحاجة إلى الطعام لا تعني وجود الشهية له. وهذا ما أتى بها مرة أخرى للتفكير في آنا، مثلما يفعل كل شيء آخر.

عندما تلاشى آخر ضوء لظُلمة الليل على شارع القرية، انعطفت ليب نحو اليمين في الطريق. ارتفع القمر بشكل متزايد فوق منطقة المقابر. تخيلت صبي عائلة أودونيل في تابوته. مضت تسعة أشهر حتى الآن؛ ربما تعفن ولكن لم يصر هيكلًا عظميًا بعد. هل هذا سرواله البني، الذي يرتديه خيال المآتة؟

عندما وصلت، وجدت المطر قد لطّخ ذلك الإشعار الذي وضعته على باب الكوخ.

كانت الأخت مايكل في انتظارها في الغرفة. همست قائلة: «ما زالت نائمة بعمق».

في الظهيرة، لم يكن لديهما سوى لحظة واحدة يمكن في خلال أن تسأل ليب عن الوضع في نوبة العمل السابقة. هذه فرصة نادرة يمكنهما فيها التحدث بخصوصية. نادت: «الأخت مايكل..»

لكن أدركت أنه من الصعب مشاركة تخميناتها حول تغذية الطفلة في أثناء النوم؛ لأن الراهبة ستغلق أذنيها مرة أخرى. لذا، لا، من الأفضل بكثير أن تلتزم بالحديث عن القلق المشترك بينهما حول هذه الفتاة النائمة في السرير الصغير. سألتها: «هل كنتِ تعلمين أن شقيق الطفلة متوفي؟

قالت الراهبة مع إيماءة برأسها، وهي ترسم علامة الصليب على نفسها. «ليرحمه الرب»!

ثرى لماذا لم يخبر أحد ليب بذلك؟ أو بالأحرى، لماذا يبدو أنها دائمًا تفهم الأمور بشكل خاطئ؟ قالت للراهبة: «يبدو أن آنا تشعر بالقلق من جهته».

-بالطبع!

-لا، ولكن.. هي قلِقة بشكل غير طبيعي..

ترددت وفكرت، قد تكون هذه المرأة ممن يؤمنون بالخرافات، وترى الملائكة تتراقص فوق كل مستنقع، ولكن ليب ليس لديها أحد آخر لتتحدث معه، ورأى الفتاة عن قرب بهذا الشكل. واصلت كلامها بهمس: «أعتقد أن هناك شيئًا خاطئًا في عقل آنا»!

حدّقت الراهبة، وظهر بياض عينيها في ضوء المصباح. قالت: «ليس مطلوبًا منّا أن نفحص عقلها».

قالت ليب بإصرار: «أنا أسجّل الأعراض. وهذا التفكير المضطرب بشأن أخيها هو واحدة منها».

رفعت الراهبة إصبعها مُحذرة:

-أنت تستنتجين يا سيدة رايت، لا يجب أن نخوض في هذا النوع من المناقشات.

-هذا مستحيل. كل كلمة نقولها تتعلق بآنا، كيف لا نتناقش في الأمر؟!

هزت الراهبة رأسها بحزم. قالت:

-هل تأكل أم لا؟ هذا هو السؤال الوحيد.

-ليس هو السؤال الوحيد بالنسبة لي. وإذا كنت تعتبرين نفسكِ ممرضة، فلا يمكن أن يكون هذا هو سؤالكِ الوحيد أيضًا.

احمرت وجنتا الراهبة. قالت:

-أرسلني رؤسائي هنا للعمل تحت إشراف الدكتور ماكبرارتي. ليلة سعيدة لكِ!

ثم طوت عباءتها على ذراعها وانصرفت.

بينما تجلس ليب وهي تراقب جفون آنا التي ترمش، وجدت نفسها في وقت لاحق، بعد بضع ساعات، تتوق للنوم الذي حُرمت من الحصول عليه في تلك الفترة بعد الظهر. ولكن هذه كانت معركة قديمة، ومثل أي ممرضة، تُدرك أنها لا يمكنها النجاح، إلا إذا انتقدت نفسها بقسوة كافية.

الجسم بحاجة إلى منحه شيئًا؛ إذا لم يكن النوم، فإنه بحاجة إلى الطعام، وإذا لم يتوفر ذلك، فإنه بحاجة إلى تحفيز من أي نوع. وضعت شالها والحجر الدافئ الذي يرفع قدميها عن الأرض جانبًا، ومشت في الغرفة ذهابًا وإيابًا، ثلاث خطوات في كل اتجاه.

شغل تفكيرها أن ويليام بيرن قام بالاستفسار عنها، لأنه عرف اسمها الكامل ومن قام بتدريبها. لكن ماذا تعرف هي عنه؟ فقط أنه يكتب لصحيفة لم تقرأها

أبدًا، وأنه أرسل للعمل في الهند، وأنه كاثوليكي، -ولكنه متشكك إلى حدٍ ما-. كان صريحًا ومباشرًا، ولكنه لم يكشف عن الكثير سوى نظريته حول السيد ثاديوس.. استنتاج جريء توصلت له ليب الآن، وجعلها غير مقتنعة تمامًا بهذه النظرية، وهي أن الكاهن لم يقترب من الكوخ منذ صباح الإثنين. إذن، كيف يمكنها أن تسأل آنا: «هل السيد ثاديوس هو الذي يمنعك من الأكل؟

وجدت نفسها تعد أنفاس الفتاة في أثناء النوم. تسعة عشر في الدقيقة الواحدة، لكن العدد سيكون مختلفًا، والتنفس أقل انتظامًا إذا كانت آنا مستيقظة.

هناك شيء ما يُطهى في القِدر. هل هو اللفت؟ هم يتركونه ينضج ببطء طوال الليل، حتى ملأ الكوخ برائحته. كان ذلك كافيًا لجعلها تشعر بالجوع، على الرغم من أنها تناولت عشاءً جيدًا في نزل «رايان»!

ما الذي دفعها لتنظر نحو السرير؟! التقت عيناها بعيون لامعة داكنة. سألت الفتاة: «منذ متى كنتِ مستيقظة؟

هزت آنا كتفها هزة صغيرة.

-هل تحتاجين إلى أي شيء؟ وعاء الفضلات؟ ماء؟

-لا، شكرًا لكِ يا سيدة إليزابيث.

هناك شيء في طريقة كلامها بشكل مهذب، تقريبًا بصورة متكلفة. سألتها:

-هل هناك ما يؤلمك

-لا أعتقد ذلك.

اقتربت ليب، وكانت تحوم فوق السرير. سألتها: «ما الأمر؟

همست آنا: «لا شيء»!

خاطرت ليب وسألتها: «هل أنت جائعة بأي شكل من الأشكال؟ هل أيقظتك رائحة اللفت؟

فقط ابتسامة خافتة، وتعبير بالشفقة تقريبًا من الفتاة.

أما معدة ليب كانت تصدر صوت قرقرة. الجوع هو الشيء المشترك الذي يُوقظ الجميع من النوم. الجسم كالطفل، يصرخ كل صباح: «أطعموني». ولكن ليس هذا هو الحال مع آنا أودونيل، ليس بعد الآن. قد يصفونها بأنها مُصابة بالهستيريا، أو مجنونة، أو مهووسة. لكن هذه الكلمات لا تنطبق عليها. هي ليست سوى فتاةٍ صغيرةٍ لا تحتاج إلى الطعام.

أوه، وبّخت ليب نفسها، فإذا كانت آنا تعتقد أنها واحدة من بنات الملكة الخمس، هل سيجعلها هذا الاعتقاد حقيقة؟ قد لا تشعر الفتاة بالجوع، ولكنها لا تزال تأكل، سواء كان المصدر من جسدها، أو شعرها، أو بشرتها.

بعد أن ظلت الفتاة صامتة لفترة طويلة، اعتقدت ليب أنها ربما تنام وعينيها مفتوحتين. لكن آنا قالت: «أخبريني عن الرجل الصغير».

-أي رجل صغير؟

-الرجل المجعد..

-أها، رومبلستيلتسكين..»

سردت لها الحكاية القديمة، فقط لكي يمر الوقت. استدعاء التفاصيل جعلها تفكر في مدى غرابة القصة. قصة الفتاة المكلّفة بمهمة مستحيلة لتحويل القش إلى نسيج من الذهب بسبب تباهي والدتها. والجني الذي ساعدها، كان عرضه للسماح لها بالاحتفاظ بطفلها الأول، مشروطًا فقط بنجاحها في

تخمين اسمه الغريب...

ظلت آنا هادئة لفترة بعد انتهاء القصة. تبادر إلى ليب بأنها قد تأخذ الأسطورة على أنها حقيقة. هل جميع المظاهر الخارقة للطبيعة تتساوى لديها بالحقيقة؟ قالت الفتاة:

-بت.

-بت ماذا؟

-هل بت، هو الاسم الذي كانت عائلتك تدعوك به؟

ضحكت ليب وقالت. «لا تدعينا نعود لهذه السفاسف مرة أخرى»!

-لا يمكن أن يكونوا ينادونكِ إليزابيث طوال الوقت، منذ يوم ولادتك. ربما ينادونكِ بيتسي؟ بيتي؟ بيسي؟

-لا، لا، ولا..

-ولكنها تأتي من إليزابيث، أليس كذلك؟ ليس اسمًا مختلف تمامًا، مثل چين؟

وافقتها ليب وقالت: «لا، سيكون ذلك غشًا»!

كان اسم ليب هو اسم التدليل، الذي يُطلق عليها في أيام كانت فيها محل اهتمام من الجميع. وهو الاسم الذي أطلقته عليها شقيقتها الصغرى؛ لأن اسم «إليزابيث» كان طويلًا بالنسبة لها وتجد صعوبة في نطقه. ليب كان الاسم الذي كانت تُدعى به من قبل عائلتها بأكملها، عندما كان لديها عائلة، وفي أثناء حياة والديها. قبل أن تقول شقيقتها إن ليب قد ماتت في نظرها!

وضعت يدها على يد آنا فوق البطانية الرمادية. كانت الأصابع المتورمة تتجمد من البرودة، لذا قامت بلفها وتدفئتها. سألتها: «هل أنت سعيدة لوجود شخص آخر معك في أثناء الليل؟

ظهرت على الفتاة تعبيرات الارتباك.

قالت ليب: «ليس لكوني وحيدة، أقصد أن..»

قالت آنا: «ولكنني لست وحيدة».

-حسنًا، ليس الآن، على الأقل منذ بدأت المراقبة.

-أنا لست وحيدة على الإطلاق.

-نعم، هناك اثنان من الحراس، يتناوبان، ليكونا معك في رفقة مستمرة.

-يأتي إليّ على الفور عندما أنام.

كانت جفونها الزرقاء بدأت تنغلق بالفعل، لذا لم تسأل ليب **(من هو)؟** الإجابة واضحة.

الآن، تتنفس آنا بعمق مرة أخرى. تساءلت ليب عمَّا إذا كانت الفتاة تحلم بمخلصها المسيح كل ليلة. هل يأتي في شكل رجل ذو شعر طويل، أو صبي ذو هالة نور، أو طفل؟ ما هو العزاء الذي يقدمه لها؟ وما هي الولائم التي قد تكون أشهى بكثير ممَّا على الأرض؟

النظر للطفلة النائمة يسبب النعاس بشدة. بدأت عينا ليب تصبح ثقيلة مرة أخرى. وقفت، وحركت رأسها من جانب إلى آخر لتخفيف التيبس في عنقها.

«يأتي إليّ على الفور عندما أنام». عبارة غريبة! ربما لم تقصد آنا المسيح من الأساس، بل رجلًا عاديًا؛ ملاخي أودونيل؟ السيد ثاديوس؟ الذي ربما يكون هو من يسكب السائل في فمها، عندما تكون في حالة غفوة بين النوم واليقظة. هل كانت تحاول أن تخبرها بالحقيقة التي بالكاد هي نفسها تفهمها؟

لتجد شيئًا تقوم به، نظرت ليب في صندوق الكنز الخاص بالفتاة. فتحت كتاب **«تقليد المسيح»** بحرص؛ حتى لا تزعزع البطاقات المقدسة من

مكانها. قرأت في أعلى الصفحة: **«إذا كنا نموت عمًا هو لأنفسنا، وغير مأسورين لشهوات قلوبنا، يمكننا تذوق الأشياء الإلهية».**

جعلتها الكلمات ترتجف. من يُعلِّم طفلًا أن يموت عمًا هو لنفسه؟ كم من الأفكار الجنونية التي تحتضنها آنا تأتي من هذه الكتب؟

أو من الصور الزاهية والمشرقة على البطاقات؛ في واحدة منها الكثير من النباتات، تصور زهرة عباد الشمس بوجوه متجهة نحو الضوء. وأخرى تصور يسوع فوق شجرة ويستظل بها جميع الناس. كما توجد عليها أقوال مكتوبة بخط قوطي، تصفه كأخ أو كعريس. وهذه بطاقة يظهر عليها سلمًا شديد الانحدار محفورًا في واجهة صخرية، مع قلب ضخم يشبه الشمس وقت الغروب، ويوجد صليب في القمة. أما البطاقة التالية كانت أغرب؛ حيث تصور الزواج الصوفي (البتولي) للقديسة كاترين، امرأة شابة جميلة، تظهر وكأنها تقبل خاتم زفاف من يسوع الطفل الجالس في حضن أمه!

لكن البطاقة التي أثارت قلق ليب أكثر من جميعهم؛ كانت تلك التي تُظهر فتاة صغيرة تنام مُمددة، في قارب بشكل صليب كبير، غير مدركة للأمواج العاتية التي تتصاعد حولها. وكُتب عليها« Je voguerai en paix sous la garde de Marie»، ربما «شيء في شيء تحت حماية مريم؟! عند قراءتها لاسم مريم، لاحظت ليب وجه امرأة حزينة وسط الغيوم، تراقب الفتاة الصغيرة.

أغلقت الكتاب وأعادته مرة أخرى. ثم فكرت في النظر مرة أخرى إلى البطاقة؛ لمعرفة أي مقطع كانت تشير إليه. لم تجد أي شيء عن مريم أو البحر. فقط كلمة «سفن» هي الكلمة الوحيدة التي لفتت

انتباهها: «**إن الرب يمنح بركاته هناك، حيث تكون السفن فارغة**». فارغة من ماذا تحديدًا؟ تساءلت ليب، هل يقصد الطعام؟ الفكر؟ الأفراد؟

على الصفحة التالية، بالقرب من صورة لملاك يبدو وجهه مكمدًا، «**أنت تشاء أن تعطني طعام السماء وخبز الملائكة لأتناوله**». بعد بضع صفحات، قرأت على صفحة مميزة بصورة للعشاء الأخير: «**ما أحلى وما أطيب الوليمة عندما أعطيت نفسك لتكون طعامنا!**» أو ربما كانت تلك البطاقة تتناسب مع عبارة «**أنت وحدك طعامي وشرابي، يا حبيبي**».

استطاعت ليب أن ترى كيف يمكن للطفل أن يفسر مثل هذه العبارات المنمّقة بشكل خاطئ. إذا كانت هذه هي نوعية الكتب الوحيدة التي كانت تقرأها آنا، وقد تم منعها من الذهاب إلى المدرسة منذ مرضها، وتفكر في محتواها طوال الوقت دون توجيه صحيح...

بكل تأكيد، لا يستطيع بعض الأطفال فهم كل ما هو رمزي!

تذكرت زميلتها في المدرسة، كانت شخصية جامدة لا تتحدث كثيرًا. وعلى الرغم من كل ذكاءها في الدراسة، كانت غبية فيما يتعلق بالأمور اليومية. لكن آنا لا تبدو كذلك! فماذا يمكن أن نسمي ما تفعله، عندما تأخذ اللّغة الشعرية على محمل الجد؟ إلا «غباء»!

شعرت ليب برغبة شديدة، في أن تهز الطفلة مرة أخرى لتوعيتها، وأن تقول لها: «**يسوع ليس لحمًا حقيقيًا، يا حمقاء!**»

لكن لا، «آن» ليست حمقاء. فهي لديها حس إدراك ممتاز؛ إنما فقط ضلت الطريق.

وتذكرت ليب الان، إحدى الممرضات في المشفى،

كان ابن عمها لديه قناعة تامة بأن علامات الترقيم في جريدة «ديلي تلغراف» تحمل رسائل مشفرة له!

كانت الساعة الخامسة صباحًا تقريبًا، عندما طلت كيتي برأسها في الغرفة، وأطالت النظر إلى الفتاة النائمة. خطر ببال ليب الآن، ربما كانت آنا هي قريبة كيتي الوحيدة التي نجت من المجاعة. لم تذكر عائلة أودونيل أي أقارب آخرين. فهل كانت آنا تثق في قريبتها؟

قالت الخادمة:

-الأخت مايكل هنا.

-شكرًا لك، كيتي.

ولكن روزالين أودونيل دخلت خلفها.

أرادت ليب أن تقول: «دعيها وشأنها»، لكنها أمسكت لسانها. انحنت روزالين لإيقاظ ابنتها بعناق طويل وتمتمة الصلوات. تبدو كما لو أنها تقدم عرضًا من الأوبرا، بتلك الطريقة التي تقتحم بها الغرفة لتظهر مشاعر الأمومة مرتين في اليوم!

دخلت الراهبة وأومأت بالتحية، وفمها مغلق. التقطت ليب أغراضها وغادرت.

خارج الكوخ، كانت الخادمة تسكب الماء من دلو حديدي في حوض كبير فوق النار.

-ما الذي تفعلينه، يا كيتي؟

-إنه يوم الغسيل.

لم يروق ليب وضع حوض الغسيل بالقرب من كومة الروث. قالت كيتي:

-عادةً ما يكون الغسيل يوم الإثنين، وليس الجمعة.. لكن أليس هذا الإثنين هو Lá Fhéile Muire Mór ؟

-معذرةً، ماذا تقصدين؟

-عيد السيدة العذراء مريم.

-حقًا؟

وضعت كيتي يديها حول خصرها، قالت وهي تحدق في ليب:

-في الخامس عشر من أغسطس، أُصعدت سيدتنا إلى السماء.

لم تستطع ليب أن تتشجع وتسأل عن معنى ذلك. أردفت الفتاة وهي تصور كلامها برفع الدلو:

-رُفِعت بجسدها إلى السماء.

-هل توفيت؟

قالت كيتي باستهزاء. «ألم يُشفق عليها ابنها الحبيب من ذلك؟

لم يكن هناك مجال للحديث مع هذا الكائن. أومأت ليب برأسها، واستدارت نحو القرية.

عادت ليب إلى دكّان المشروبات الروحية في أعقاب الظلام، والقمر يبدو باهتًا في الأفق. قبل أن تترنح صعودًا على السلالم لتذهب إلى سريرها في غرفتها فوق الدكّان، تذكرت أن تطلب من ماجي ريان أن تحتفظ ببعض طعام الإفطار لها.

استيقظت في الساعة التاسعة، بعد أن نامت قليلًا، مما أدى إلى إرباكها، لم تنم بالقدر الكافي لتصفية ذهنها. كان المطر يقرع على السقف مثل أصابع رجل أعمى.

لا إشارة على وجود ويليام بيرن في غرفة الطعام. هل عاد إلى دبلن بالفعل، على الرغم من أنه حثّ ليب على معرفة المزيد عن التورط المحتمل للكاهن في هذا الخداع؟

قدمت لها الفتاة فطائر باردة. مخبوزة مباشرةً على الجمر -استنتجت ليب ذلك من كسرها بسهولة-.

هل يكره الأيرلنديون الطعام؟! كانت على وشك أن تسأل عن الصحفي، ثم فكرت كيف يمكن أن يفكروا بها إذا سألت مثل هذا السؤال.

فكرت ليب في آنا أودونيل، التي استيقظت تشعر بفراغ أكثر في معدتها في اليوم الخامس. شعرت فجأة بالغثيان، دفعت الصحن بعيدًا، وصعدت إلى غرفتها.

ظلت تقرأ لساعات عدة - مجلد من المقالات المتنوعة - لكن وجدت نفسها في النهاية لا تتذكر شيئًا ممّا قرأت.

انطلقت عبر طريق صغير خلف دكّان المشروبات الروحية رغم الأمطار التي تتساقط على مظلتها. شعرت برغبة في المشي خارج المنزل. رأت بعض الأبقار النحيلة في الحقل. بدت التربة أقل خصوبة، كلما تقدمت نحو الأرض المرتفعة الوحيدة الموجودة في المكان، التي أسمتها آنا بالحوت.

تجاوزت تلة طويلة ذات قمة عريضة وأخرى ذات قمة مدببة. تابعت مسارًا حتى انتهى بها في أرض مستنقعات. حاولت أن تلتزم بالمناطق الأعلى والأكثر جفافًا، الملونة باللون الأرجواني من الغابات البرية. لاحظت شيئًا يتحرك من ركن عينها؛ هل هذا أرنب؟

كانت هناك حفر مليئة بما يشبه الكاكاو الساخن وأخرى تتلألأ بها المياه القذرة. لتتجنب بلل حذائها، قفزت من تلة على شكل فطر عيش الغراب إلى التالية. وفي بعض الأحيان، كانت توجه مقبض مظلتها نحو الأسفل وتطرق الأرض لتتحقق من ثباتها. اختارت طريقها عبر شريط واسع من عشب النجيلة لبعض الوقت، على الرغم من شعورها بالقلق عند سماع تدفق الماء من تحت الأرض؛

ربما يوجد مجرى مائي تحت الأرض؟ كان المشهد بأكمله مثل خلية النحل! مرّ بها طائر ذو منقار معوج وأطلق شكوى عالية النبرة! رأت رؤوس صغيرة، لها خصلات شعر بيضاء تظهر هنا وهناك عبر الأرض الرطبة.. عندما انحنت لتنظر إلى نبات الحزاز الغريب، اكتشفت أن له قرونًا، تشبه قرون الغزلان الصغيرة.

فجأةً، سمعت صوت يصدر من حفرة كبيرة في الأرض. عندما اقتربت ونظرت في الداخل، رأت الحفرة مليئة بالماء البني وهناك رجل بداخلها، تغطيه المياه حتى صدره، ويتشبث بذراعه بسلم بدائي. صاحت به، «انتظر»!

نظر إليها الرجل بدهشة. قالت له: «سأعود بالمساعدة بأسرع ما أستطيع»!

قال الرجل: «أنا بخير يا سيدتي».

أشارت إلى الماء الذي يغمره، وقالت، «ولكن..»

-أنا فقط أستريح قليلًا.

فهِمت ليب الأمور بشكل خاطئ مرةً أخرى. احمرّت وجنتاها.

تحرك الرجل وثبّت نفسه على السلم بذراعه الأخرى. قال لها:

-لا بد أنكِ الممرضة الإنجليزية!

-هذا صحيح.

-ألا يجرفون التربة هناك؟

عندها نظرت ليب إلى المجرفة المجنحة المعلّقة على السلّم. قالت:

-ليس في منطقتي. هل يمكنني أن أسأل، لماذا تنزل لأسفل بهذا القدر؟

أشار إلى حافة الحفرة وقال:

-أها، الأعشاب الضارة في الأعلى ليست جيدة.. مجرد طحالب لتربية الحيوانات وتضميد الجروح.

لم تستطع ليب تخيل وضع هذه المادة الفاسدة على أي جرح، حتى في وقت الحروب.

-للحصول على تربة تصلح للاستخدام في إشعال النار، يجب أن تحفري على عمق ما يقرب من طول رجلين أو اثنين.

-مدهش!

حاولت ليب أن تبدو عملية، لكنها بدت مثل سيدة بلهاء في حفلة!

-هل أنتِ تائهة يا سيدتي؟

-لا على الإطلاق. فقط أمارس رياضتي اليومية. ثم أضافت «التمارين»، هذا في حال كان حفّار التربة غير ملّم بالكلمة.

أومأ الرجل برأسه ثم سألها: «هل لديكِ قطعة خبز في جيبكِ؟

توترت وتراجعت للخلف. هل هذا الرجل متسول؟ قالت:

-لا، ليس لدي. ولا يوجد معي أي مال أيضًا.

-آه، المال لا يهُم. فقط تحتاجين إلى قطعة خبز، لشبعدي الجماعة عنكِ بعيدًا عندما تكونين في نزهة.

-جماعة أخرى؟!

-الكائنات الصغيرة.

مزيد من الخرافات بالتأكيد! استدارت ليب لتذهب.

-هل زرت الطريق الأخضر؟

إشارة أخرى للخوارق؟ عادت ليب. وقالت: «أخشى أنني لا أعرف ما معنى ذلك!

-بالتأكيد أنت على وشك الوصول إليه.

نظرت ليب في الاتجاه الذي أشار إليه حفار التربة، وأذهلها وجود طريق بالفعل. «شكرًا لك»!

-كيف حال الصغيرة؟

أجابته بطريقة عفوية تقريبًا، قالت: «هي بخير تمامًا..» لكنها توقفت في الوقت المناسب. ثم أردفت: «ليس مسموحًا لي مناقشة الأمر. طاب يومك»!

عند النظر عن قرب، يظهر الطريق الأخضر عبارة عن مسار مناسب للعربات، حيث كان معبّدًا بالصخور المتكسرة. يبدأ من منتصف المستنقعات بالضبط. ربما يصل إلى هنا من القرية المجاورة. والقسم النهائي منه -الذي سيمتد بالكامل إلى قرية أودونيل- لم يتم بناؤه بعد تقريبًا! لكن لا شيء أخضر في هذا الطريق، رغم أن الاسم يوحي بعكس ذلك. مشت ليب بخطى سريعة على الحافة الناعمة للطريق، حيث تزدهر بعض الزهور.

بعد حوالي نصف ساعة من المشي، تعرّج الطريق على جانب التلة، ارتفع قليلًا ثم انحدر مرة أخرى بدون سبب واضح. عضت ليب شفتيها من شعورها بالاستياء. هل مطلبًا كبيرًا أن يكون هناك مسارًا مستقيمًا للسير؟! في النهاية، بدا الطريق كأنه أنه يرتد إلى الخلف مرة أخرى، وبدأ السطح يتفكك. تلاشى الطريق المعبّد كما بدأ، وحجارته اختفت بين الأعشاب.

ماذا بهم هؤلاء الأيرلنديين! لا يبالون بالأمور، ولا يتدبرون حالهم، ليس لديهم أي طموح، وحظهم عاثر، وتفكيرهم محصور على أخطاء الماضي. طرقهم لا تؤدي إلى أي مكان، ويعلقون على أشجارهم الخرق البالية..

عادت ليب وهي تطأ الطريق بقوة، والضباب ينتشر تحت مظلتها، ورطوبة الجو تبلل عباءتها. كانت مصممة على التحدث مع الرجل الذي أرشدها إلى هذا المسار الذي لا ينتهي. لكن عندما وصلت إلى تلك الحفرة في الحمأة، لم تجد بها شيئًا سوى المياه فقط. فهل أخطأت بينها وبين حفرة أخرى؟ وجدت جانب الحفرة الكبيرة في الأرض، كتلًا من الطين موضوعة على رفوف التجفيف من المطر.

في طريقها إلى النزل، لاحظت زهرة ظنت أنها أوركيدة صغيرة. فكرت، ربما يمكنها أن تقطفها لأجل آنا. وضعت قدمها فوق شيء لونه أزرق لتصل إلى الزهرة، لكن بعد فوات الأوان، شعرت أن الطحلب ينهار تحت قدميها.

اندفعت ليب برأسها إلى الأمام، فوجدت نفسها واقعة على وجهها في الوحل، وعلى الرغم من أنها قامت على ركبتيها تقريبًا في الحال، إلا أنها ابتلّت تمامًا. عندما رفعت تنورتها ووضعت إحدى قدميها على الأرض، غاصت في الطين كحيوان وقع في الفخ، حفرت طريقها للخروج، وخرجت مُجهدة.

عادت وهي تترنح في الشارع، لكنها شعرت براحة كبيرة؛ لأن دكّان المشروبات الروحية كان قريبًا، بحيث لن تضطر إلى المشي عبر شارع القرية بهذه الحالة.

على عتبة الباب وقفت ليب، رفع مالك النزل حاجبيه الكثيفين. قالت له: «أراضيكم غادرة يا سيد رايان»! كانت تنورتها تقطر المياه.. ثم أضافت: «هل يغرق فيها الكثيرون؟

انفجر الرجل في الضحك، مما تسبب في نوبة كحة. قال عندما استطاع الكلام مرة أخرى: «فقط إذا كانوا في رفقتك.. أو إذا كانوا مخمورين في ليلة

مظلمة»!

بعدما جففت نفسها وارتدت زيها البديل، كانت الساعة الواحدة وخمس دقائق. ركضت مسرعة قدر ما استطاعت إلى منزل أودونيل. كانت ستجري لو لم يُحط ذلك من كرامتها كممرضة. كيف تتأخر عشرين دقيقة عن موعدها بعد كل إصرارها على تطبيق أعلى المعايير..

في المكان الذي ثُبِّت به حوض الغسيل صباح اليوم، كان هناك بركة رمادية، ودمية خشبية ذات أربعة أرجل مُلقاة بجانبها. أما الملاءات والملابس، كانت معلقة على الأشجار ومثبتة بمشابك على حبل مشدود بين الكوخ وشجرة مائلة.

في الغرفة الجيدة، كان السيد ثاديوس يحتسي الشاي، وفي صحنه رغيف مدهون بالزبد. اشتعل غضب ليب.

قالت لنفسها: «ولماذا الغضب؟ فهو لا يعتبر زائرًا، بما أنه كاهن الرعية وعضو في اللجنة». وعلى الأقل، كانت الأخت مايكل تجلس بجوار آنا. وهي تحل عباءتها، لفتت ليب نظر الراهبة وهمست بالاعتذار على تأخرها. كان الكاهن يقول:

-للإجابة على سؤالكِ يا صغيرتي، هو ليس فوق ولا تحت.

سألت آنا:

-إذن، أين؟ هل يطفو بينهما؟

-لا يجب أن نعتبر المطهر مكانًا فعليًا للعذاب، بقدر ما هو وقت مخصص لتطهير الروح.

-لكن ما مدة الوقت، يا سيد ثاديوس؟

كانت آنا تجلس مستقيمة جدًا، ولون بشرتها شاحبًا كالحليب. أردفت: «أعلم أنها سبع سنين لكل

خطية كبيرة نرتكبها، لأنها تسيء لسبعة مواهب الروح القدس(17) ولكني لا أعرف كم خطية ارتكبها بات، لذا لا أستطيع حساب الجملة»!

أنهى الكاهن كلامه بتنهيدة ولم يناقض كلام الطفلة.

انزعجت ليب بشدة من هذه الحسابات الرياضية المبهمة. هل تعاني آنا وحدها من الهوس الديني أم بلدها بأكملها؟!

وضع السيد ثاديوس فنجانه.

راقبت ليب طبقه لترى هل سيسقط منه أي فتات. لا تستطيع أن تتخيل آنا تخفيه وتبتلعه إذا سقط فعلًا. قال لآنا:

-هي أكثر من مجرد فترة زمنية محددة.. في فردوس الله المحِب القدير، ليس هناك حدود للزمن.

-ولكنني لا أعتقد أن بات موجود الآن في الفردوس مع الله.

انزلقت أصابع الأخت مايكل على يد آنا.

نظرت ليب للفتاة وتألمت لأجلها، وهي تفكر في أنهما كانا فقط اثنين من الإخوة، لا بد وأنهما تشبثا ببعضهما في أسوأ الأوقات. قال الكاهن:

-بالطبع لم يعد بمقدور الذين في المطهر أن يصلوا الآن، ولكن يمكننا نحن أن نصلي من أجلهم. للتكفير عن خطاياهم، كأننا نقدم توبة بالنيابة عنهم.. إنه مثل سكب الماء على لهيبهم.

أكدت آنا، وقد جحظت عيناها:

-أوه، لكنني فعلت ذلك سيدي ثاديوس؛ لقد أديت صلاة التسعة أيام من أجل الأرواح المقدسة، تسعة أيام من كل شهر لمدة تسعة أشهر. وأديت صلاة القديس غرتروود على قبره، وقرأت الكتاب

المقدس، وتناولت السر المقدس، ورفعت صلاة لطلب شفاعة جميع القديسين..

رفع يده ليسكتها، وقال:

-حسنًا، حسنًا.. هذه نصف الأعمال المطلوبة للتكفير بالفعل.

-ولكن ربما لا يكون هذا كافيًا لسكب الماء حتى ينطفئ لهيب بات!

لم تستطع ليب إلا أن تشفق على هذا الكاهن المتعثر.

حثّها «ثاديوس قائلًا»:

-لا تتخيلينها كنارٍ حقيقية، بقدر ما هي وعي مؤلم للروح؛ لإدراكها عدم الاستحقاق بالدخول إلى حضرة الله، إنها عقاب ذاتي، أتفهمين ذلك؟

أطلقت الطفلة صرخة واحدة مؤلمة. أخذت الأخت مايكل يدها اليسرى بكلتا يديها. قالت:

-هيا يا صغيرتي، ألم يقُل ربنا، «لا تخافوا؟

قال السيد ثاديوس:

-هذا صحيح، اتركي بات لرحمة ربنا السماوي.

انهمرت الدموع على وجه آنا المنتفخ، وكنت تمسحها بيدها.

همست روزالين أودونيل من وراء ليب التي تقف على عتبة الباب: «آه، يا الله، احفظها هذه الفتاة الحنون»!

كانت كيتي تحوم بجوارها.

شعرت ليب بالانزعاج فجأةً من وجودها ضمن هذا الحضور. هل يمكن أن يكون الكاهن والأم قد خططا هذا المشهد بأكمله؟ وماذا عن الأخت مايكل، هل كانت تواسي الفتاة أم تجرُّها أكثر داخل الخداع؟

ضمّ السيد ثاديوس يديه معًا. قال: «أنصلي يا آنا؟».

قالت الفتاة: «نعم».. ضمت يديها وراحت تهمس: **«أحبك أيها الصليب يا أثمن ما لديّ، الذي تزين بجسد يسوع مخلصي، وتلون بدمه الثمين. أعبدك يا إلهي، يا مَنْ رُفِعت على الصليب حبًا لي».**

هل هذه صلاة دوروثي، التي كانت تسمعها ليب على مدار الأيام الخمسة الماضية؟ بعد شعورها بالرضا لحل اللغز الذي يحيرها، بدأوا صلاةً أخرى؛ لكن ما الذي يميز الصلاة هذه المرة؟

قال السيد ثاديوس: «الآن، لنتكلم حول المسألة التي أتت بي إلى هنا يا آنا، وهي رفضك تناول الطعام».

هل كان الكاهن يحاول تبرئة نفسه من أي لوم في حضور السيدة الإنجليزية؟ قالت ليب في نفسها: **«ثم لندعها تأكل هذا الرغيف الضخم في الحال»!**

نبهته بهدوء: «أظن أن آنا قالت شيئًا بصوت خفيض جدًا».

قال الرجل: «تحدثي بصوت أعلى يا عزيزتي».

قالت آنا: «أنا لا أرفض يا سيدي ثاديوس. أنا فقط لا أتناول الطعام».

لاحظت ليب تلك العيون الجادة والمنتفخة. قال السيد ثاديوس:

-الله يرى قلبك.. وهو يعرف بنواياك الحسنة. لنصلي لكي يمنحك النعمة بتناول الطعام».

كانت الراهبة تومئ برأسها موافقة.

نعمة لتناول الطعام! كأنها قوة معجزية، رغم أن كل يرقة وكل كلب يولد بها.

صلّى الثلاثة معًا في صمت لبضع دقائق. ثم تناول

السيد ثاديوس رغيفه وبارك أفراد عائلة أودونيل والأخت مايكل، وودعهم ثم غادر.

عادت ليب بالفتاة إلى غرفتها، وهي لا تستطيع أن تقول أي كلمة، أو تجد أي طريقة للإشارة إلى كل هذا الحديث، دون احتمال أن يُسبب ذلك إهانة لعقيدة الطفلة. قالت في نفسها، الناس في جميع أنحاء العالم، يضعون ثقتهم في التمائم أو الأصنام أو كلام الشعوذة. ولهذا، لتؤمن بما تشاء دون أن يعنيني ذلك في شيء. شريطة أن، تأكل فقط.

فتحت مجلة «All the Year Round» وحاولت العثور على أي مقال مثير للاهتمام.

دخل ملاخي ليتحدث قليلًا مع ابنته. سألها: «ما هذه؟

أخبرته آنا بأنواع الزهور في المزهرية؛ زهور المستنقعات، زهور السوسن، زنابق متقاطعة الأوراق، عشب السهوب الأرجواني، نبتة الزبد..

وضع يده دون انتباه على أذنها. فهل لاحظ الشعر الدقيق عليها؟ والكدمات ذات القشور، والشعر الناعم على وجهها، والأطراف المتورمة؟ أم أن آنا دائمًا كما هي في عيون والدها؟

لم يطرق أحد باب الكوخ هذا العصر؛ ربما أبعد المطر المتواصل هؤلاء الفضوليين. أما آنا فقد ظلت صامتة لا تتحدث بعد لقائها مع الكاهن. فقط، جلست وفتحت كتاب ترتيل ووضعته على ركبتها.

خمسة أيام مضت حتى الآن. تساءلت ليب، وهي تحدّق بشدة حتى آلمتها عيناها: هل يمكن لطفل عنيد أن يستمر خمسة أيام على ملاعق من الماء؟!

أحضرت كيتي صينية الطعام في الرابعة إلا الربع. كان الطعام مكون من: الملفوف واللّفت وكعك

الشوفان الموجود دائمًا، لكن ليب كانت جائعة، لذا بدأت تأكل وكأنها أشهى وجبة تتناولها! كعك الشوفان محروق قليلًا هذه المرة، وغير ناضج في الوسط. لكنها أجبرت نفسها على ابتلاعه.

كانت قد التهمت نصف الطبق عندما تذكّرت آنا، التي لا تبعد عنها أكثر من ثلاثة أقدام، وهي لا تزال تهمس بما تعتبره ليب صلاة دوروثي. هذا ما يمكن أن يفعله الجوع، يعميك عن كل شيء آخر. وقفت لقمة من كعك الشوفان في حلق ليب. لكنها عادت وأكملت طعامها، عندما تذكرت ما قالته ممرضة، تعرفت عليها في سكوتاري، وكانت قد قضت بعض الوقت في مزرعة في ولاية ميسيسيبي. قالت: «أسوأ ما يمكن أن يحدث لإنسان، هو أن يتوقف عن إدراك الأغلال والسلاسل سريعًا؛ عندما يعتاد على أي شيء».

ركزت ليب نظرها على الطبق، وحاولت أن تتخيل الطعام كما تخيلته «آنا؛ حدوة حصان أو قطعة من الخشب أو حجر. وجدته أمرًا مستحيلًا! ثم حاولت مرة أخرى، وتخيلت الخضروات بطريقة مختلفة، كما لو كانت لحومًا. الآن، أصبح هذا مجرد صورة -في ذهنها- لطبق دسم. لكن في النهاية، لن يلعق الإنسان صورة بلسانه، أو يأخذ قضمة من ورقة. أضافت ليب سطحًا زجاجيًا، ثم إطارًا، وسطحًا زجاجيًا آخر، ليحجز الشيء بعيدًا. **قالت، هذا ليس للأكل**. ولكن الملفوف بالنسبة لها صديق قديم، رائحته الساخنة واللذيذة تغريها، فوضعته في فمها والتهمته.

كانت آنا تشاهد المطر، ووجهها يكاد يلتصق بالنافذة الملطخة.

تذكرت ليب الانسة «ن»، واراءها حول أهمية

أشعة الشمس للمرضى، وكيف أن النباتات تذبل بدونها. وهذا جعلها تفكر في ماكبرارتي ونظريته الغامضة حول إمكانية العيش على الضوء فقط.

أخيرًا، بدأت السماء تصفو في حوالي السادسة. قررت ليب أنه لا يوجد خطر كبير من وجود زائرين في هذا الوقت المتأخر، لذا تدثّرت جيدًا بشال هي وآنا، وأخذتها في جولة في ساحة المزرعة.

مدت الفتاة يدها المتورمة نحو فراشة بنية، ظلت تطير حولها ولا تستقر عليها. سألت، «أليست تلك الغيمة هناك، تبدو تمامًا مثل الفُقمة؟

حدّقت ليب بها. قالت: «أعتقد أنكِ لم ترِ فقمة حقيقية يومًا يا آنا»!

قالت الفتاة: «رأيته في الحقيقة في الصورة التي معي».

يحب الأطفال السحب بالطبع: لكن بلا شكل محدد، أو بالأحرى، متغيرة باستمرار، متعددة الأشكال. غريب عقل هذه الفتاة. ليس من العجب إذن، أنها سقطت فريسة لطموح خيالي بأن تعيش الحياة بدون شهية!

عندما عادتا، كان في المنزل رجل طويل القامة، ذو لحية، يدخن وهو جالس على أفضل مقعد في المكان. التفت ليبتسم لانا. سألت ليب روزالين أودونيل بلهجة حادة وصوت مرتفع:

-هل تدعين شخصًا غريبًا يدخل حالما أعطيت ظهري للبيت؟

لم تخفض الأم صوتها، قالت:

-بالطبع جون فلين ليس غريبًا.. لديه مزرعة كبيرة جيدة على الطريق. ثم، أليس معتادًا أن يتوقف في المساء ليحضر الجريدة لملاخي؟

ذكّرتها ليب:

-قلت لا زوار!

تحدث الرجل ذو اللحية بصوت عميق جدًا. قال:

-أنا عضو في اللجنة التي تدفع لكِ أجركِ يا سيدة رايت.

وقعت ليب في الحيرة مرة أخرى. قالت:

-المعذرة يا سيدي. لم أكن أعرف ذلك!

ذهبت السيدة أودونيل لتحضر الزجاجة الصغيرة المخصصة للزائرين، الموضوعة في الزاوية التي بجانب الموقد. سألت الرجل:

-هل ترغب في رشفة واحدة من الويسكي يا جون؟

-لن أتناولها الآن. آنا، كيف حالكِ هذا المساء؟

سألها فلين بصوت هادئ، وهو يومئ إلى الطفلة أن تقترب منه. أكدت آنا:

-أنا بخير تمامًا.

-كم أنتِ رائعة!

بدت عيون الرجل الفلاح زجاجية، كما لو كان يرى رؤية. مد يده الضخمة كأنه يرغب في تمريرها على رأس الطفلة. قال:

-أنتِ تعطينا جميعًا الأمل. وهو الشيء الذي نحتاج إليه في هذه الأوقات العصيبة. أنتِ منارة تضيء عبر هذه الحقول. بل عبر الجزيرة المعتمة بأكملها!

وقفت آنا على ساق واحدة، تتمايل. سألها:

هل يمكن أن تصلي معي؟

قالت ليب:

-هي بحاجة إلى الخروج من هذا الجو الرطب. صاح فلين بينما تسرع ليب بالطفلة نحو غرفة

النوم:

-إذن، صلي لأجلي عندما تذهبين للنوم.

قالت آنا وهي تنظر خلفها:

-بالطبع سوف أفعل ذلك يا سيد فلين.. ليُباركك الرب!

بدت غرفة النوم ضيقة ومظلمة بدون المصباح. قالت ليب: «سيحل الظلام قريبًا».

ردت آنا، وهي تحل سوار أكمامها: **«مَنْ يَتْبَعْنِي فَلاَ يَمْشِي فِي الظُّلْمَةِ»**.

-من الأفضل أن ترتدي ملابس النوم الآن.

-حسنًا، يا سيدة إليزابيث. أو ربما إليزا؟ جعل التعب الفتاة تتكلم بنصف ابتسامة.

ركزت ليب على أزرار آنا الصغيرة. بينما تسأل آنا:

-أم هو ليزي؟ أحب ليزي.

-لا، ليس ليزي.

-إيزي؟ إيبي؟ إيدلي، ديدلي!

انتاب آنا ضحكًا هستيريًا. قالت: «سأدعوكِ بهذا الاسم، ثم يا سيدة إيدلي- ديدلي».

-لن تفعلي ذلك، يا فتاة يا عفريتة.

كانت العائلة وصديقهم فلين يتساءلون عن سبب كل هذا الضحك الذي يأتي من خلف الجدار؟ قالت آنا:

-سأفعل ذلك حقًا!

-بل قولي ليب! خرجت منها الكلمة بشكل طبيعي، تشبه السعال. ثم أردفت: «كانوا ينادونني ليب».

ندمت قليلًا لأنها أخبرتها بذلك!

قالت آنا بإماءة رضا. ليب!

كم كان الاسم حلوًا منها! تمامًا مثل أيام الطفولة،

عندما كانت شقيقة ليب لا تزال تحترمها، وعندما كانتا تظنان أنهما ستظلان برفقة بعضهما دائمًا.

أبعدت الذكريات عن رأسها. سألتها:

وماذا عنكِ، هل لديك اسمًا آخر؟

هزت آنا رأسها وقالت: «يمكنك أن تناديني آني، ربما. هانا، نانسي، نان...» قالت الفتاة، وهي تنطق الصوت «نان».

-هل تحبين نان أكثر؟

-نعم، ولكنها لن تكون آنا!

-يمكن للمرأة أن تغير اسمها. على سبيل المثال، عند الزواج.

-هل كنتِ متزوجة يا سيدة ليب؟

أومأت، بحذر. «أنا أرملة».

-هل أنتِ حزينة طوال الوقت؟

أحست ليب بالضيق. قالت: «لم أعرف زوجي سوى لمدة عام، هل هذا يبدو عاديًا؟

-لا بد أنكِ كنتِ تحبينه.

لم تستطع ليب أن تجيب على ذلك. استحضرت رايت في ذهنها. ظهر الوجوم على وجهها. قالت: «في بعض الأحيان، عندما تحل الكوارث، لا يوجد شيء يمكن فعله سوى أن تبدأ من جديد».

سألت الفتاة: «تبدئين ماذا؟»

-كل شيء. حياة جديدة تمامًا.

قبلت الفتاة تلك الفكرة في صمت.

عندما أتت كيتي بالمصباح المشتعل، كانتا ليب وآنا تريان بعضهما بصعوبة بعد حلول الظلام. في وقت لاحق، دخلت روزالين أودونيل بصحيفة التايمز الأيرلندية، التي تركها جون فلين. بها صورة

انا التي التقطتها «رايلي» يوم الإثنين بعد الظهر. لكن تم تعديلها وصارت كأنها منقوشة على الخشب، وبدت الخطوط والظلال أكثر بدائية. أثّر هذا الأمر على ليب بشكل مزعج، وشعرت كأنها ستقضي أيامها ولياليها في هذا الكوخ المتواضع في قصة لا تنتهي من التحذيرات، لذ استولت على الصفحة المطوية قبل أن تراها أنا.

قالت الأم وهي تنتفض من السرور: «هناك مقال طويل أسفل الصورة».

بينما كانت آنا تمشط شعرها، ذهبت ليب عند المصباح واطّلعت على المقالة. أدركت أن هذا هو أول تقرير لويليام بيرن، والذي استشهد فيه بقول بطرس، وقد كتبه في صباح يوم الأربعاء، عندما لم يكن لديه أي معلومات موثوقة عن الموضوع على الإطلاق. كانت تتفق معه فيما يتعلق **(بالجهل المحلي)**.

أما الفقرة الثانية، كانت جديدة بالنسبة لها:

بالطبع، الامتناع عن المشاركة في أمور الحياة هو فن أيرلندي مميز. كما يقول المثل الأيرلندي القديم: «اترك الفراش وأنت نائم، واترك الطاولة وأنت جائع».

لم تكن هذه أخبارًا في رأي ليب، بل مجرد حديث عبثي. وتلك النبرة الساخرة، تركت لديها انطباعًا سيئًا.

ثم تناول المقال أصول الكلمات المستخدمة لتسمية أيام الأسبوع في اللغة الأيرلندية القديمة:

ربما يحتاج هؤلاء المتحضرون المتعلمون، الذين تخلوا عن اللغة الغيلية، إلى تذكيرهم بأن الأربعاء في لغتنا القديمة، يُعرف بكلمة تعني «الصوم الأول»، والجمعة بكلمة تعني «الصوم الثاني». (في

كلا اليومين، تقول التقاليد إنه يجب ترك الرضع الغير صابرين، يبكون ثلاث مرات قبل أن يحصلوا على زجاجة الحليب). أما الكلمة المستخدمة للخميس، فتعني «اليوم الذي بين الصومين» وعلى النقيض، تعبر عن البهجة.

هل يمكن أن يكون ذلك صحيحًا؟ لا تثق ليب في هذا الصحفي الساخر؛ صحيح أن بيرن لديه معرفة واسعة لكنه يجيد التلاعب بها للسخرية. أكملت القراءة:

كان لدى أسلافنا عادة تسمى في اللغة الأيرلندية القديمة (الصوم ضد المسيء أو المدين)، أي الإضراب بالصيام خارج بابه. ويُقال إن القديس باتريك نفسه صام ضد خالقه على جبل يحمل اسمه في Mayo، وحقق نجاحًا ملحوظًا: إذ أخجل القدير وحمله على منحه حق حكم الأيرلنديين في الأيام الأخيرة. في الهند أيضًا، أصبحت الاحتجاجات من خلال الإضراب بالصيام أمام باب الحاكم شائعة لدرجة أن نائب الحاكم اقترح حظرها. أما إذا كانت الآنسة الصغيرة أودونيل تعبر عن شكوى صغيرة من خلال تجاهل كل وجبات الإفطار والغداء والعشاء طوال أربعة أشهر، فهذا ما لم يتمكن كاتب المقال بعد من تحديده.

أرادت ليب أن تلقي الجريدة في النار. هل هذا الرجل بلا قلب؟ انا طفلة في مشكلة، وليست مزحة لتسلية قراء الصحف في فصل الصيف..

سألت الطفلة: «ماذا تقول الجريدة عني يا سيدة ليب؟

هزت رأسها، وقالت: «الأمر لا يتعلق بك يا انا».

ولإلهاء نفسها، ألقت ليب نظرة خاطفة على العناوين الرئيسية ذات الخط الأسود السميك.

وكانت مواضيع ذات شؤون عالمية. مثل: الانتخابات العامة. اتحاد مولدافيا ووالاشيا. محاصرة فيراكروز. استمرار الثوران البركاني في هاواي.

ولكنها غير مهتمة بأيٍّ منها؛ لأن احترافها لمهنة التمريض الخاص، كان يضع عليها الكثير من القيود والمحاذير دائمًا، ونتيجة لخصوصية هذه المهنة، اقتصر كل عالمها على غرفة واحدة صغيرة.

طوت الجريدة ووضعتها على صينية الشاي بجانب الباب. ثم فتشت كل شيء مرة أخرى. ليس لأنها لا تزال تعتقد أن هناك أشياء مخبأة، ما زالت آنا تأكلها في خلال وجود الراهبة، ولكن فقط لإلهاء نفسها.

جلست الطفلة تغزل جوارب من الصوف، وهي ترتدي ملابس النوم. تساءلت ليب، هل يمكن أن يكون بداخل آنا حزن لم تعبر عنه بعد؟

وضعت الوسائد بشكل سليم لتحافظ على رأس الفتاة في الزاوية الصحيحة. قالت لها: «حان وقت النوم الآن». ثم قامت بكتابة ملاحظاتها:

*** ارتفاع في السوائل.**

*** تورم في اللثة.**

*** نبض: 98 نبضة في الدقيقة.**

*** رئتين: 17 تنفسًا في الدقيقة.**

عندما دخلت الراهبة لبدء نوبة العمل، كانت آنا قد بدأت بالفعل في النعاس. رأت ليب أنها يجب أن تتحدث، على الرغم من مقاومة الراهبة لكل محاولاتها. قالت: «خمسة أيام وأربع ليالٍ، يا أخت مايكل، ولم أر شيئًا. من فضلك قولي لي، من أجل مصلحة الفتاة المريضة، هل رأيت شيئًا؟

ترددت الراهبة لحظة، ثم حركت رأسها بالسلب. قالت بصوت أكثر هدوءًا: «ربما لأنه لم يكن هناك شيء لترينه»!

-ما معنى ذلك؟ هل يعني هذا أنه لم يكن هناك تغذية سرية لأن آنا معجزة حية فعلًا، وتعيش على الصلاة فقط؟

كان الإيمان بالأشياء غير المرئية وغير المحسوسة ينتشر في هذا الكوخ -بل هذا البلد بأكمله - لدرجة تثير قلق ليب دائمًا.

حاولت أن تتحدث بأدب قدر الإمكان. قالت: «لديّ شيء أرغب في قوله. ليس عن آنا بقدر ما هو عنا».

استدركت الراهبة. بعد لحظة طويلة من الصمت، قالت: «عنا؟

-نحن هنا للمراقبة، أليس كذلك؟

هزت الأخت مايكل رأسها بالإيجاب. أردفت ليب:

-ومع ذلك، فإن دراسة شيء التدخل وفحصه، قد تعني التدخل فيه. مثلًا، إذا وضع الإنسان سمكة في حوض أو نبتة في وعاء بغرض المراقبة، فإنه يغير ظروفها. وأيًا كانت الطريقة التي تعيش بها آنا في خلال الأشهر الأربعة الماضية، إلا أن كل شيء أصبح مختلفًا الآن، ألا تتفقين معي في ذلك؟

كل ما فعلته الراهبة، هو أنها وضعت رأسها على أحد الجانبين. أوضحت ليب:

-هذا التغيير بسببنا نحن. لقد غيرت المراقبة وضع الفتاة التي نراقبها.

ارتفع حاجبي الراهبة مايكل واختفت وراء شريط الكتان الأبيض الذي على رأسها.

تابعت ليب:

-إذا كان هناك أي نوع من الخداع يحدث في هذا

المنزل في خلال الأشهر الماضية، لا بد بالضرورة أن مراقبتنا وضعت حدّا لذلك، بدءًا من يوم الإثنين. لذا هناك احتمالية كبيرة جدًا، أنك أنت وأنا نكون الشخصان اللذان يمنعان آنا من الحصول على الغذاء الآن.

-لكننا لا نفعل شيئًا!

-نحن نراقبها، في كل لحظة، ألا نحبسها كفراشة داخل قفص؟

تخيلت الراهبة الصورة كم هي قاسية جدًا! هزت رأسها، ليس لمرة واحدة وإنما مرّات ومرّات..

-آمل أن أكون مخطئة. ولكن إذا كان تصوري هذا صحيحًا، فهذا يعني أن الطفلة لم تحصل على أي طعام لمدة خمسة أيام حتى الآن...

لم تقل الراهبة: **«هذا لا يمكن أن يحدث، أو أن آنا لا تحتاج إلى طعام»**. كان ردها الوحيد هو، «هل لاحظتِ تغييرًا خطيرًا في صحتها؟

اعترفت ليب: «لا، لا شيء يمكنني تحديده».

-حسنًا، إذن!

-حسنًا إذن، ماذا سنفعل يا أخت مايكل؟ كانت ليب تود أن تسألها، «هل طالما الله على عرشه، إذن كل شيء على ما يرام في العالم؟» لكنها قالت: «ماذا سنفعل؟

-سنفعل المطلوب منا تمامًا يا سيدة رايت. لا أكثر ولا أقل!

ثم جلست الراهبة وفتحت كتابها المقدس ووضعته كالحاجز بينهما.

فكرت ليب أن هذه المرأة الريفية التي انتهى بها المطاف في دار الرحمة، ليست إلا إنسانة طيبة. وربما تظهر ذكائها، لو أطلقت لعقلها العنان، ليفكر

ويكتشف أبعد من تلك الحدود والقيود التي يضعها رؤسائها وسيدها في روما! **(لقد تعهدنا أن نكون نافعات للآخرين)**، هذا ما تتفاخر به الراهبة مايكل، ولكن ما نفعها الحقيقي هنا؟ تذكرت ليب ما قالته الآنسة نايتنجيل إلى ممرضة أرسلتها إلى لندن بعد أسبوعين فقط من العمل في سكوتاري: **«في جبهة القتال، أي شخص غير مفيد هو عائق».**

الآن، بدأت صلاة الوردية في المطبخ، كانت عائلة أودونيل، وصديق العائلة جون فلين والخادمة، راكعين بالفعل عندما مرت ليب بجوارهم. وكان الجميع يرددون» **«أعطنا خبزنا اليومي».** ألا يسمع هؤلاء الناس ما يقولونه؟ ماذا عن خبز آنا أودونيل اليومي؟!

دفعت الباب وخرجت في ظلمة الليل.

***

يقودها النوم مرات ومرات عند قاع ذاك الجرف المصور على البطاقة المقدسة، التي يظهر فيها الصليب في أعلى الجرف والقلب الأحمر الضخم تحته ينبض. كان على ليب أن تتسلق الدرج المنحوت في الصخرة. ترتعش وترتجف ساقيها، ومهما كان عدد الدرجات التي صعدتها لا تقترب أبدًا من القمة.

عندما استيقظت في الظلام، استوعبت أن هذا صباح السبت.

عند وصولها إلى الكوخ، رأت الملابس المعلقة على الشجيرات، تبدو مبللة أكثر من ذي قبل، بعد أمطار الأمس.

كانت الأخت مايكل بجوار السرير، تراقب صعود وهبوط الصدر الصغير تحت البطانية. ارتفع حاجبي ليب في سؤال صامت. فهزت الراهبة رأسها.

-كم كمية الماء التي تناولتها؟

همست الراهبة: «ثلاث ملاعق».

ليس المهم هو الكمية، بل لإنه فقط مجرد ماء. جمعت الراهبة أغراضها وخرجت بدون كلمة أخرى. مر جزء من الضوء عبر النافذة، انتقل ببطء فوق أنا؛ اليد اليمنى، الصدر، اليد اليسرى. تساءلت ليب، هل الأطفال في الحادية عشرة عادة ينامون طويلًا؟ أم أن جسم آنا يعمل بدون وقود؟

في تلك اللحظة، دخلت روزالين أودونيل من المطبخ، وأفاقت آنا. أفسحت ليب المكان لتترك المجال لتحية الصباح. وقفت المرأة بين ابنتها والشمس الليمونية الباهتة. عندما انحنت روزالين لتحتضن الطفلة كالعادة، وضعت آنا يدها عموديتان على صدر والدتها العريض.

تجمدت روزالين أودونيل.

هزت آنا رأسها دون أن تقول كلمة.

رفعت روزالين أودونيل رأسها ووضعت أصابعها على خد الفتاة. في طريقها للخروج، رمقت ليب بنظرة حقد.

شعرت ليب برعشة في جسدها؛ فهي لم تفعل شيئًا! هل هذا ذنبها إذا ضاقت الفتاة بأفعال أمها ذرعًا، ورفضت أخيرًا الاستمرار في أن تكون محاطة بتملق والدتها المنافقة؟ سواء كانت روزالين أودونيل وراء هذه الخدعة أو فقط تغض الطرف عنها، فعلى الأقل، ها هي تقف الآن وابنتها تبدأ يومها السادس من الصوم.

دونت ليب في دفتر الملاحظات: **«رفض تحية الأم».**

ثم تمنت لو لم تفعل ذلك، لأن هذا السجل يفترض

أن يكون مخصصًا للمعلومات الطبية فقط.

***

في طريق عودتها إلى القرية في تلك الظهيرة، فتحت باب المقبرة الصدئ. كانت متحمسة لرؤية قبر بات أودونيل. شواهد القبور لم تكن قديمة كما كانت تتوقع؛ لم تستطع أن تجد أي نقوش قبل عام 1850. يبدو أن رطوبة الأرض هي التي جعلت كثيرًا منها يميل، والهواء الرطب جعل الطحالب تنمو وتغطيها. قرأت المكتوب على بعض هذه الشواهد:

ارحم... في ذكرى غالية... في ذكرى محبة... هنا يرقد جسد... مخصص لـ... في ذكرى زوجته الأولى التي فارقت الحياة... شُيد لذريته... وأيضًا لزوجته الثانية... صلوا من أجل روح... التي توفيت في سرور ورجاء مؤكد في القيامة. (حقًا! تساءلت ليب، من يموت بسرور؟ إنها عبارة غبية لم يجلس من كتبها بجانب سرير لمريض، وهو يسمع بأذنيه النفس الأخير له).

توفي عن عمر ستة وخمسين عامًا... توفيت عن عمر ثلاثة وعشرين عامًا... توفيت عن عمر اثنان وتسعة أشهر... شكرًا للرب الذي أعطاها النصرة..

لاحظت وجود نقشًا صغيرًا على معظم القبور، استنتجت من ذاكرتها الضبابية بأنه ربما يعني **«لقد جاهدتُ»**. كما كان هناك قبر واحد يكفي لعشرين تابوت متجاورين؛ فهمت أنها لا بد وأن تكون مقبرة جماعية، مليئة بالأشخاص الذين لا يعرف أحد أسماءهم.

اقشعرت ليب من المشهد. فبحكم مهنتها، كانت معتادة على التعامل مع الموت، لكن هذا المنظر يشبه الدخول إلى منزل العدو! كلما رأت شاهد قبر

لطفل صغير فأبعدت نظرها. وقع نظرها على:

أيضًا ابن وابنتان... كما أن هناك ثلاثة أطفال... وأولئك الذين أطفالهم توفوا وهم صغار... عمره ثمانية أعوام... عمره اثنتان وعشرة أشهر. (مساكين هؤلاء الآباء المحطمين، يودعون أبناءهم كل شهر)!

رأت الملائكة الزهور تفتحت،

حملوها بفرح ومحبة،

منطلقين إلى دارٍ أجمل،

لتزهر في الفردوس الأعلى.

وجدت ليب نفسها تغرز أظافرها في جلد كفيها لا إراديًا.. إذا كانت الأرض موطنًا لا يستحق أفضل البشر، أحباب الله، لماذا زرعهم هناك؟ ما الهدف من هذه الحياة القصيرة القاسية؟

وعندما كانت على وشك التخلي عن البحث، وجدت قبر الصبي.

باتريك ماري أودونيل

3 ديسمبر 1843 - 21 نوفمبر 1858

رقد في المسيح

تأملت الكلمات المحفورة بشكل بسيط، حاولت أن تشعر بما تعنيه لانا. تخيلت صبيًا غضًا طويل القامة، يرتدي حذاءه المتشقق وسرواله المتسخ، مليئًا بالطاقة المرحة التي لطفل الأربعة عشر عامًا.

كان قبر بات الوحيد لعائلة أودونيل، مما يشير إلى أنه كان الأمل الوحيد ليحمل اسم ملاخي أودونيل، على الأقل في هذه القرية. وأيضًا يعني أنه إذا كانت السيدة أودونيل قد حبلت بأطفال اخرين بعد انا، فإنهم لم ينجحوا في الوصول إلى مرحلة الولادة.

نحت ليب كراهيتها للسيدة وفكرت فيما مرت به، وما الذي جعلها قاسية بهذا الشكل.

سبع سنوات من الجوع والوباء، كما وصفها بيرن بلهجة دينية. صبي وأخته الصغيرة، وقليل جدًا أو لا شيء إطلاقًا لإطعامهما في خلال تلك الأوقات الصعبة. ثم، بعد أن تجاوزت روزالين تلك السنوات القاسية، تُصدم بفقدان ابنها الذي كاد أن يصبح شابًا بين ليلة وضحاها.. ربما سبب لها هذا الفقدان تغيرًا غريبًا، فعوض أن تتشبث بابنتها الوحيدة، شعرت بأنه لم يعد لديها شيئًا في الحياة. تتفهم ليب هذا الشعور، الشعور بعدم وجود شيء آخر يمكن إعطائه. ربما هو الذي جعل السيدة الآن تتصرف بغرابة في تقديسها لابنتها، وأصبحت تفضل أن تصير آنا قديسة أكثر من أن تكون إنسانة؟

لفحت ليب نسمة باردة في ساحة الكنيسة، لفت عباءتها حولها. أغلقت البوابة التي أصدرت صوت صرير، وانعطفت يمينًا مرورًا بالكنيسة. بخلاف الصليب الحجري الصغير فوق سطحها الخشبي، بدت لها الكنيسة لا تختلف كثيرًا عن المنازل المجاورة. إذن، ما القوة التي يمتلكها السيد ثاديوس من هذا المبنى المتواضع!

عندما وصلت إلى القرية، كانت الشمس قد بدأت شرق مرة أخرى وكل شيء يلمع. أمسكتها امرأة ذات وجه أحمر، من معصمها عندما انعطفت إلى الشارع.

انتفضت ليب. قالت المرأة:

-المعذرة يا سيدتي! فقط أريد أن أعرف، كيف حال الفتاة الصغيرة؟

-لا أستطيع أن أتكلم. ثم تابعت لتوضح ذلك: «إنها مسألة سرية».

هل تفهم المرأة كلمة «سرية؟ لا يبدو ذلك واضحًا من نظرتها.

هذه المرة، اتجهت ليب يمينًا، في اتجاه مولينجار، لأنها لم تسلك تلك الطريق من قبل. لم تشعر أن لديها شهية، ولم تتحمل أن تحبس نفسها في غرفتها في نزل «رايان» الآن.

سمعت صوت دوي معدني لحافر حصان يأتي من وراءها. فقط عندما لحق بها الفارس، عرفت من أكتافه العريضة وشعره المجعد أنه ويليام بيرن. أومأت رأسها، وهي تتوقع أن يلمس قبعته لتحيتها ويستمر في الركض.

لكنه نزل عن الحصان ورحب بها: «السيدة رايت.. ما أجمل هذه الصدفة»!

«أحتاج إلى نزهتي اليومية» هذا كل ما فكرت أن تقوله.

قال: «وبولي وأنا بحاجة إلى رحلة». ثم سأل:

-هل تعافت إذن؟

-نعم، وتستمتع بالحياة في الريف.

-وماذا عنكِ، هل حدث وزرتِ أي معالم حتى الآن؟

-لا شيء، ولا حتى دائرة حجرية.. أتيت للتو من المقبرة، ولكن لم أجد شيئًا ذا أهمية تاريخية.

-حسنًا، لأنه في السابق كان من غير المسموح لنا أن ندفن موتانا هنا، لذا فإن المقابر الكاثوليكية القديمة موجودة جميعها في المقبرة البروتستانتية في المدينة المجاورة.

-آه، اعذر جهلي!

-بكل سرورا ثم قال وهو يرفع يده بحيوية: «من الصعب أن تقاومي سحر هذا المشهد الجميل»!

امتعضت ليب بشفتيها وقالت: «مستنقع لا نهاية له، مغمور بالمياه. سقطت فيه على وجهي بالأمس، وظننت أنني قد لا أخرج منه أبدًا»!

ابتسم قائلًا: «الشيء الذي يجب أن تخشيه حقًا، هو الأرض الطافية؛ فهي تبدو أرض صلبة ولكنها في الحقيقة مثل إسفنجة عائمة. إذا وضعت قدمك عليها، فسوف تمزقينها في الحال وتسقطين في المياه العكرة أسفلها».

عبست بوجهها. لكنها كانت تستمتع بالحديث عن أي شيء آخر غير موضوع المراقبة.

تابع قائلًا: «ثم هناك المستنقع المتحرك، وهو شيء مشابه للانهيار الجليدي..»

«هذا مجرد اختراع الآن»!

«أقسم لكِ! بعد الأمطار الغزيرة، يمكن لجزء كامل من الأرض أن ينفصل، مئات الأفدنة من التربة تنزلق بسرعة أكبر بكثير مما يستطع إنسان أن يركض».

هزت ليب رأسها.

فوضع يده على صدره وقال: «أقسم لكِ بشرفي الصحفي! اسألي أي شخص حولنا هنا».

ألقت نظرة من جانب عينيها، وهي تتخيل موجة بنية من الطين تتدحرج نحوهما.

قال بيرن: «أشياء غريبة تحدث في هذا المستنقع! ثم أردف: «الطبقة الناعمة في أيرلندا.. جيدة للحرق، أظن»!

«ما الذي جيد للحرق؟ أيرلندا؟»

ضحكت ليب بشكل هستيري عندما قالت ذلك.

«أعتقد أنك ستضرمين نارًا في كل المكان، إذا كان بالإمكان تجفيفه أولًا»!

«أنت تقول كلامًا على لساني الآن»!

قال ويليام بيرن بابتسامة سخيفة. «هل تعلمين أن الطحالب تمتلك قوة خيفة للحفاظ على الأشياء كما كانت في لحظة انغمارها؟ انتشلوا كنوزًا كثيرة

من هذه الأحواض؛ سيوف وقدور وكتب مضيئة.. ناهيك عن الجثث التي تغرق بين الحين والاخر، تظل محفوظة بشكل ملحوظ»!

جفلت ليب قالت، لتحاول تغيير الموضوع، «بالتأكيد تفتقد المتعة في الأماكن المتحضرة في دبلن أكثر.. هل لديك عائلة هناك؟

«والديَ وثلاثة إخوة».

لم يكن هذا ما قصدته، لكنها حصلت على الإجابة التي تريدها: الرجل أعزب. بالطبع، فهو لا يزال شابًا!

قال بيرن: «في الحقيقة يا سيدة رايت، أنا أعمل بجِد مثل الكلب. فأنا مراسل أيرلندي لعدة صحف إنجليزية، وبالإضافة إلى ذلك، أكتب مقالات نقدية لاذعة ضد الإتحاد لصالح صحيفة دبلن ديلي إكسبرس، وأكتب عن حماس ثوار الفينيان في الجريدة القومية، وعن الأمور الدينية الكاثوليكية في صحيفة فريمانز جورنال..»

«إذن أنت مثل كلب على مسرح العرائس»!

قالت ليب هذا وجعله يضحك. لكنها تذكرت رسالة الدكتور ماكبرارتي عن آنا، التي بدأت كل هذا الجدل حولها. فسألته: «وبالنسبة لصحيفة التايمز الأيرلندية، هل تكتب مقالات ساخرة؟

قال بيرن بصوت مرتجف كصوت امرأة عجوز: «لا، لا. فقط آراء معتدلة حول القضايا الوطنية والمسائل ذات الاهتمام العام». ثم أردف: «وفي أوقات الفارغة، أدرس لامتهان المحاماة، بالطبع»!

ذكاؤه وحسه الفكاهي يجعلان من غروره أمرًا محتملًا بالنسبة لها. تذكرت ليب المقالة التي أرادت التخلص منها في النار مساء الأمس. وافترضت أن الرجل فقط يقوم بوظيفته بالوسائل المتاحة لديه،

تمامًا كما تفعل هي. فإذا لم يُسمح له حتى برؤية انا، فماذا يمكن أن يكتب عنها إلا تافهات تبدو علمية؟

بدأت ليب تشعر بحرارة الجو؛ فحلّت عباءتها وحملتها فوق ذراعها، مما سمح للهواء بالدخول أسفل فستانها من خلال بطانة التويد.

سألها بيرن: «أخبريني، هل سبق لك أن اصطحبت الصغيرة للنزهة؟

رمقته ليب بنظرة حادة. ثم قالت: «هذه الحقول تتموج بشكل غريب»!

قال لها: «لقد كانت مزروعة في شكل أحواض مبعثرة بطريقة عشوائية. ثم وضعت بذور البطاطا في خط، وفوقها طبقة من الروث».

«لكنها مغطاة بالحشائش»!

هز كتفيه، وقال: «حسنًا، أصبح هناك عدد أقل من الأفواه التي يمكن إطعامها هنا منذ وقت المجاعة».

فكرت في تلك المقبرة الجماعية التي رأتها في باحة الكنيسة. سألته: «لا يمكن إلقاء اللوم على نوع من فطريات البطاطا. أليس كذلك؟

قال بيرن بعصبية شديدة، لدرجة جعلت ليب تتخذ خطوة بعيدًا: «بالتأكيد الأمر أكثر من مجرد فطر.. نصف البلاد كانوا لن يموتوا، إذا لم يستمر أصحاب الأرض في شحن الذرة للخارج والاستيلاء على الماشية، وإخلاء وإحراق البيوت.. أو إذا لم تكن الحكومة في وستمنستر تعتقد أن الإجراء الأكثر حكمة، هو الجلوس على مؤخراتهم وترك الأيرلنديين يتضورون جوعًا»!

مسح جبهته التي لمعت من العرق.

سألته ليب: «لكنك لم تتضور جوعًا. أليس؟ كان سؤالها كعقاب له على أسلوبه الفظ.

تقبل الأمر بصدر رحب، قال وهو يبتسم بسخرية: «نادرًا ما يتضور ابن صاحب المتجر جوعًا».

«كنت في دبلن في خلال تلك السنوات؟

«حتى بلوغي سن السادسة عشرة وحصولي على أول وظيفة كمراسل خاص»، ثم قال عبارته بسخرية خفيفة: «أي أنّ أحد المحررين وافق على إرسالي إلى قلب العاصفة -على حساب والدي-، لوصف آثار فساد البطاطا. حاولت أن أبقي توجهي محايدًا وإلا أوجه اتهامات لأي طرف. ولكن بعد تقديم تقريري الرابع، شعرت أن عدم القيام بأي شيء هو الخطيئة الأكثر فتكًا».

نظرت ليب إلى وجه بيرن المتوتر.

كان يحدق بعيدًا نحو الطريق الضيق. أردف: «لذلك كتبت عنوان التقرير على النحو التالي: **«ربما أرسل الله البلاء، لكن الإنجليز هم من صنعوا المجاعة».**

أصابها ذلك بالدهشة، سألته: «هل وافق المحرر على طبع ذلك؟!

قالتها ضاحكًا وعيناه منتفختان. **«الفتنة»!** ولذلك هربت إلى لندن.

«للعمل مع نفس هؤلاء الإنجليز الأشرار؟

قال هو يقلد طعنة في القلب: «يا لك من موهوبة في وضع يدك على المواضع المؤلمة، يا سيدة رايت! نعم، في غضون شهر كنت أكرس مواهبي التي وهبها الله لي للكتابة عن سيدات المجتمع من الطبقات الراقية وسباقات الخيل».

قالت بسخرية: «لقد بذلت قصارى جهدك»!

«نعم، لفترة وجيزة. وفي السادسة عشرة أغلقت فمي وأخذت أوراق البنكنوت»!

ساد بينهما الصمت وهما يمشيان. توقفت «بولي» لتقضم العشب.

«هل ما زلت رجلًا مؤمنًا؟ ألقت ليب هذا السؤال الشخصي بشكل مفاجئ، لكنها شعرت كما لو أنهما قد تجاوزا تلك التفاهات القديمة.

أومأ بيرن، وقال: «بطريقةٍ ما، لم تتمكن كل المآسي التي رأيتها أن تزعزع الإيمان من داخلي. وأنت، يا إليزابيث رايت.. ألا تؤمنين على الإطلاق؟

رفعت ليب رأسها بغضب. لقد جعلها سؤاله تبدو وكأنها ساحرة مجنونة تستحضر الشيطان لوسيفر فوق الأودية. قالت: «ما الذي يخوّل لك افتراض.. »

قاطعها. «لقد سألت نفس السؤال يا سيدتي. المؤمنون الحقيقيون لا يسألون هذا السؤال».

الرجل لديه وجهة نظر بالفعل. قالت: «أؤمن بما أراه».

رفع أحد حاجبيه الأحمر، وقال: «إذَن، لا شيء سوى الذي تؤكده حواسكِ؟

قالت: «التجربة والخطأ. العلم فقط، هو كل ما يمكننا الاعتماد عليه».

«هل جعلكِ الترمّل تفكرين بطريقة مثل هذه؟»

غلى الدم في رأسها.. «من قدّم لك معلومات عني؟ ولماذا يجب دائمًا افتراض أن آراء المرأة مبنية على اعتبارات شخصية؟!

«الحرب، إذن؟

ذكاؤه جعله يدخل إلى الصميم.

قالت ليب: «في سكوتاري.. وجدت نفسي أفكر، إذا لم يكن الخالق قادرًا على منع مثل هذه الشرور، فما نفعه؟

قال: «وإذا كان قادرًا ولكنه لا يريد، فإنه غير

صالح؟

«لم أقل ذلك أبدًا»!

«هيوم قال ذلك»!

لم تكن تعلم اسمه.

أخبرها: «فيلسوف توفي منذ زمن بعيد.. عقول أكثر ذكاءً منك واجهت نفس الطريق المسدود. إنه لغز كبير»!

في أثناء سيرهما، كانت الأصوات الوحيدة هي صوت خطوات أحذيتهم على الوحل الجاف، وصوت ركلات «بولي» الخفيفة.

«إذَنْ، ما الذي دفعكِ للذهاب إلى القِرم في المرة الأولى؟

أجابت ليب وهي تبتسم بنصف ابتسامة: «بسبب مقال في الصحيفة، كما يحدث دائمًا».

«هل هو راسل؟ في صحيفة التايمز؟

«لا أعرف الشخص..»

قال بيرن: «إنه بيلي راسل، من دبلن مثلي. تقاريره التي كان يرسلها من الجبهة غيّرت كل شيء. جعلت من الصعب تجاهل الأمر».

قالت ليب، مؤكدةً: «جميع هؤلاء الرجال يختفون وقت الحاجة، ولا أحد يساعد».

«ما هو أسوأ شيء واجهتِه؟

جعلتها صراحة بيرن تتراجع. لكنها أجابت: «الأوراق والإجراءات».

«كيف ذلك؟»

«للحصول على سرير لجندي، على سبيل المثال، كان عليك أن تأخذ قسيمة ملونة إلى ضابط القسم، ثم إلى المورد ليقوم بالتوقيع عليها، ثم بعد أن يتم

ذلك فقط، يقوم قسم الإمدادات بإصدار تصريح بالحصول على السرير.. وبالنسبة للنظام الغذائي سواء كان سوائل أو لحوم. والدواء، حتى لو كان أدوية تخدير مطلوبة بشكل عاجل، كان عليك أن تحضر نموذجًا ذو لون مختلف إلى الطبيب وتقنعه بأن يجد الوقت لطلب الأشياء من أمين المخازن ذو الصلة، والحصول على توقيع اثنين آخرين من الضباط. وعند ذلك الحين، من المرجح جدًا أن يكون المريض قد مات»!

قال بيرن: يا إلهي»!

لا تتذكر ليب آخر مرة أصغى فيها أحدهم إليها باهتمام مثل هذا.

تابعت حديثها، كان تعبير **«أشياء غير ضرورية»** هو المصطلح الذي تستخدمه إدارة الإمدادات لتلك الأشياء التي - بحسب تعريفهم- لا يمكن توفيرها لأنه من المفترض أن يجلبها الرجال في حقائبهم: قمصان، شوك، وما إلى ذلك. ولكن في بعض الحالات، لم يكن يتم تفريغ حقائب الظهر أبدًا من السفن».

تمتم بيرن: «بيروقراطيون! كتيبة من ذوات الدم البارد، هم أبناء بيلاطس(18) الصِغار، يغسلون أيديهم من كل ذلك»!

قالت ليب: «كان لدينا ثلاث ملاعق فقط لإطعام مائة رجل». اهتز صوتها عند ذكر كلمة ملاعق. تابعت: «كانت هناك شائعات عن أنه تم تخزين بعض الملاعق في مخزن الإمدادات، لكننا لم نجدها أبدًا. وفي النهاية، وضعت الانسة نايتنجيل النقود في يدي وأرسلتني إلى السوق لشراء مائة ملعقة».

ضحك الأيرلندي نصف ضحكة.

ذلك اليوم، كانت ليب في عجلة من أمرها لتسأل نفسها لماذا، من بين الجميع، قامت الآنسة «ن». بإرسالها هي بالذات؟ لكنها فهمت الآن، أن الأمر لم يكن متعلقًا بمهاراتها في التمريض، بل بثقتها فيها. أدركت ليب مدى الشرف الكبير في أن يتم اختيارها لتلك المهمة. إنه أمر أفضل حتى من أي وسام شرف تعلقه على زيها في العمل.

سارا كلاهما في صمت، وأصبحا الآن بعيدين جدًا عن القرية.

قال ويليام بيرن: «ربما أنا طفل، أو أحمق، لأنني ما زلت أؤمن. هناك الكثير من الأمور في السماء والأرض.. وما إلى ذلك..».

«لم أقصِد أن ألمّح..»

«لا، أنا أعترف أنني لا أستطيع مواجهة الأمور المرعبة بدون درع العزاء».

قالت ليب بصوت خافت: «آه، لو أستطيع أن أجد العزاء»!

الآن لا صوت سوى، صوت خطواتهما، وخطوات «بولي»، وطائر يصدر صوتًا معدنيًا في الشجيرات.

سأل بيرن: «ألم يصرخ الناس في كل زمان ومكان لصانعهم؟

تمتمت ليب: «وهذا يثبت أننا فقط نرغب في وجوده»! ثم أردفت. إن شدة هذا الشوق تجعل الأمر أكثر احتمالًا لأن يكون مجرد حلم»!

«أوه، هذا قاسٍ جدًا»

امتصت ليب شفتها.

سأل بيرن: «وماذا عن موتانا؟ الشعور بأنهم لم يرحلوا تمامًا؟ هل هذا مجرد تمنٍ؟

اجتاحت ليب الذكرى كالأخطبوط. جعلتها ترى

طفلها بين ذراعيها؛ لحمه الأبيض، لا يزال دافئًا، لكنه لا يتحرك. حاولت الهرب، تعثرت إلى الأمام، لم تر الطريق لأن الدموع أعمت عينيها.

لحق بها بيرن وأمسك بذراعها.

لم تقوَ على الكلام. عضت شفتها وامتصت الدماء.

قال، كما لو فهم الأمر: «أنا آسف جدًا».

أبعدت ليب ذراعها عنه وعانقت نفسها. انهمرت الدموع بغزارة من فوق المريلة البلاستيكية إلى ذراعها.

قال بيرن: «سامحني. الكلام مهنتي! ولكن يجب عليّ أن أتعلم كيف أغلق فمي».

حاولت ليب أن تبتسم. خشية أن يكون تأثير ما فعلته غريبًا.

أبقى بيرن فمه مغلقًا لبضع دقائق، وهم يسيران، كما لو أراد أن يثبت لها أنه يعرف كيف يفعل ذلك.

قالت ليب أخيرًا، بصوت متهدّج: «لست على طبيعتي.. هذا الأمر.. جعلني غير مستقرة».

لم يفعل بيرن شيئًا سوى أن يومئ برأسه.

من بين جميع الأشخاص الذين لا ينبغي لها أن تثرثر معهم.. اختارت صحفي. ومع ذلك، من آخر غيره في العالم سيفهمها؟ قالت ليب: «لقد راقبت الفتاة حتى كلّت عيناي، هي لا تأكل، لكنها على قيد الحياة. وهي أكثر حيوية من أي شخص آخر أعرفه».

سألها: «إذن، هل أقنعتك؟ يبدو أنها أقنعتك، هل هي عنيدة مثلك؟

لم تعرف ليب أن تحدد إلى أي مدى كان هذا السؤال ساخرًا. كل ما استطاعت قوله هو، «أنا فقط لا أعرف ماذا أفعل بشأنها»!

«دعيني أحاول، إذن».

«سيد بيرن..»

«اعتبريني عينًا جديدة -إذا بإمكاني أن أقول ذلك عن نفسي-، فأنا أعرف كيف أتحدث إلى الناس. ربما أستطيع الحصول على بعض الحقيقة من الفتاة».

حركت ليب رأسها بالسلب بينما كانت تنظر إلى الأسفل. الرجل يعرف بالفعل كيف يتحدث إلى الناس، هذا شيء لا يمكن إنكاره؛ هو لديه موهبة في الحصول على المعلومات من أولئك الذين يعرفون أفضل من غيرهم.

قال بصوت أكثر خشونة: «لقد مرت خمسة أيام وأنا أتسكّع هنا. وماذا أنجزت؟

جرت الدماء في عروق ليب. بالطبع، سيعتبر الصحفي كل هذا الوقت الذي قضاه في المحادثة مع الممرضة الإنجليزية مهدرًا ومملًا. فهي ليست جميلة، ولا ذكية، ولم تعد شابة. كيف لليب أن تنسى أنها كانت مجرد وسيلة للوصول إلى هدف معين؟

وجدت نفسها ليست ملزمة بالتفوه بكلمة أخرى مع هذا المُحرِّض. استدارت حول نفسها وتوجهت بخطى سريعة في اتجاه القرية.

(17)مواهب الروح القدس، هي صفات يجب أن تظهر في سلوك المسيحي، وهي: محبة، فرح، سلام، طول أناة، لطف، صلاح، إيمان، وداعة، تعفف (المترجمة).

(18)بيلاطس هو الحاكم الروماني الذي غسل يديه وقال: «إني بريء من دم هذا البار» بعدما سلّم أمر صلب المسيح لليهود (المترجمة).

الفصل الرابع

اليقظة

شعائر تعبّدية

مناسبة للسهر لأجل غرض معين

مراقبة مستمرة طوال عشية الاحتفال

بحلول المساء، كان الغسيل قد انتزع من فوق الشجيرات، وعبَقت رائحة البخار والمعدن الساخن كل أرجاء الكوخ؛ لا بد أن النساء كنّ يقمن بكيّ الملابس طوال الظهيرة. يبدو أنه لن يكون هناك صلاة الوردية هذا المساء، حيث جلس ملاخي أودونيل يدخن الغليون، بينما كانت كيتي تطارد الدجاج حتى يدخل إلى النملية. سألتها ليب: «هل سيدتكِ في الخارج؟

قالت كيتي: «هي في اجتماع أخوية النساء الذي تذهب إليه أيام السبت».

سألتها: «ما هذا؟

لكن الخادمة ذهبت لتجري خلف دجاجة متمردة.

ما زالت ليب لديها أسئلة أكثر إلحاحًا لتوجهها إليها، إنها تلك الأسئلة التي خطرت على بالها بينما كانت مستلقية، وهي مستيقظة ظهر اليوم.

من بين هذا الطاقم بأكمله، تعتبر كيتي هي الشخص الذي تميل للثقة به أكثر من غيرها، على الرغم من أن رأس الشابة كان مليئًا بأفكار الجان والملائكة. في الحقيقة، تمنت ليب لو كانت بذلت المزيد من الجهد، لتكوين صداقة مع الخادمة منذ اليوم الأول!

اقتربت منها بضع خطوات. سألتها: «كيتي، هل تتذكرين ولو بالصدفة، اخر طعام تناولته ابنة عمك قبل عيد ميلادها؟

قالت الفتاة بنبرة بها تردد: «أنا.. أتذكر بالطبع؛ كيف يمكنني أن أنسى؟ وانحنت لتغلق النملية. أضافت شيئًا يبدو وكأنه «توست»!

سألتها ليب: «توست؟

«تقول لك خبز القربان المقدس».

ألقى ملاخي أودونيل الكلمة، وهو ينظر إلى الخلف، ثم أردف وهو ينظر إلى النار مرة أخرى «جسد ربنا، في القربان المقدس».

تخيلت ليب الطفلة وهي تفتح فمها لتتلقى ذاك القرص المخبوز الصغير، الذي يعتقد الكاثوليك أنه جسد إلههم الفعلي.

أومأت الخادمة موافقةً على كلام سيدها، وهي ترسم نفسها بعلامة الصليب. قالت: «كانت هذه أول مرة لها تتناول القربان المقدس. ليبارك الرب الفتاة»!

همس الرجل «لم تكن ترغب في تناول طعامًا أرضيًا في وجبتها الأخيرة. أليس كذلك يا كيتي»! عاد بعينيه ينظر إلى النار مرة أخرى.

«نعم».

وجبتها الأخيرة! مثل سجين محكوم عليه. إذن أخذت آنا القربان المقدس للمرة الأولى والأخيرة، ثم أغلقت فمها. تساءلت ليب، ما هو هذا التشويه الغريب للعقيدة، الذي دفعها لذلك؟ هل تحولت بطريقة ما إلى الاعتقاد بأنه بعدما تناولت الغذاء الإلهي، لم تعد بحاجة إلى غذاء من النوع الأرضي؟

ظهرت تجاعيد ونتوءات وجه الأب في وهج اللّهب. ذكّرت ليب نفسها، بأنه لا بد أن يكون أحد الأشخاص الكبار هنا، مستمرًا في إطعام آنا طوال هذه الأشهر. فهل يمكن أن يكون ملاخي هو هذا الشخص؟ لا تستطيع التأكد من ذلك تمامًا.

بالطبع، هناك منطقة رمادية بين البريء والمذنب. ماذا لو اكتشف الرجل -أن زوجته أو الكاهن أو كلاهما - وراء هذه الخدعة، ولكن عند اكتشافه للأمر، كان قد ذاع صيت صغيرته بالفعل لأماكن بعيدة، فلم يتمكن من التّدخل؟

في غرفة النوم، بجانب الفتاة النائمة، كانت الأخت مايكل قد بدأت بربط عباءتها. همست قائلة: «دخل الدكتور ماكبرارتي إلى آنا عصر اليوم».

هل تمكن الطبيب أخيرًا من استيعاب كل ما قد قلته ليب؟ سألتها:

-ما هي التعليمات التي أعطاها؟

-لا شيء.

-ولكن ماذا قال؟

-لا شيء بشكل خاص.

كان تعبير الراهبة غير قابل للقراءة. من بين جميع الأطباء الذين خدمت ليب تحت إشرافهم، كان هذا الرجل اللطيف العجوز هو الأكثر صعوبة.

غادرت الراهبة، وظلت آنا نائمة.

كانت نوبة العمل الليلية هادئة جدًا، لدرجة أن ليب اضطرت إلى التجول لتبعد نفسها عن النُّعاس. في لحظةٍ ما، أمسكت باللعبة التي من بوسطن. كان الطائر المغرد على جانب والقفص على الجانب الآخر، وعندما شدّت ليب الأوتار بأقصى استطاعتها، اندمج الاثنان في جانب واحد: وسمعت تغريد وطنين الطائر بداخل القفص.

مرت الساعة الثالثة، واستفاقت آنا وفتحت عينيها.

سألتها ليب وهي تميل فوقها:

-هل يمكنني فعل أي شيء لك؟ هل أغير وضعك

لتشعري براحة أكثر؟

-قدمي..

-ماذا بهما؟

همست آنا: «لا أشعر بهما»!

كانت أصابع قدميها الصغيرتين تحت البطانية باردة جدًا. إنه ضعف شديد في الدورة الدموية لشخص في مثل هذا العمر. - تعالي، اخرجي لبضع دقائق لتحريك الدم مرة أخرى.

فعلت الفتاة ذلك ببطء وصعوبة. ساعدتها ليب على السير في الغرفة. وهي تشجعها: «شمالًا.. يمينًا، هيا كالجندي..»

استطاعت آنا أن تمشي بشكل مترنح في الغرفة. بينما عينيها على النافذة المفتوحة. قالت:

-يوجد الكثير من النجوم الليلة.

قالت ليب وهي تشير إلى مجموعات نجوم الدب الأكبر، والنجم الشمالي وكاسيوبيا:

-هناك دائمًا نفس العدد من النجوم، فقط، لو استطعنا رؤيتها.

سألتها آنا، بتعجب: «هل تعرفينها كلها؟

«حسنًا، نستطيع أن نرى الذين في منطقتنا بسهولة.. أي أن النجوم تختلف في نصف الكرة الأرضية الشمالي، عنه في الجنوبي».

«حقًا؟» كانت أسنان الفتاة تصتك من البرد، لذا ساعدتها ليب على العودة إلى الفراش.

لفتها في الصوف، وأخذت الحجر الذي لا يزال يحتفظ بالحرارة، بسبب وجوده في النار طوال المساء. ووضعته تحت قدمي الطفلة.

قالت الفتاة وهي ترتعش: «لكنه لك».

«لا أحتاج إليه في ليلة صيفية دافئة. هل تشعرين بالدفء الآن؟

هزت آنا رأسها وقالت: «متأكدة أنني سأشعر به بعد قليل».

نظرت ليب إلى الجسم الصغير المستلقي مستقيمًا كالصليب فوق قبر. قالت: «الآن ارقدي يا عزيزتي».

ولكن عيون آنا كانت لا تزال مفتوحة. همست بصلاة دوروثي الخاصة بها، تلك الصلاة التي ترددها كثيرًا، حتى أن ليب لم تعد تلاحظها.

ثم غنت بعض التراتيل، بصوت خفيض جدًا.

الظلام حالك

وأنا بعيدٌ عن وطني

لكنك تقودوني

في صباح يوم الأحد، كان من المفترض أن تستريح ليب وتعوض عدم النوم، ولكن صوت أجراس الكنيسة الصاخب، جعل ذلك مستحيلًا. ظلت مستلقية في الفراش، متصلبة الأطراف، تستعرض كل ما عرفته عن آنا أودونيل.

كان هناك العديد من الأعراض الغريبة، ولكنها لم تكن معروفة بالنسبة لها كمرض معين. ستضطر إلى التحدث مرة أخرى إلى الطبيب ماكبرارتي وتراجعه في هذا الأمر.

في الساعة الواحدة، أفادت الراهبة أن الفتاة منزعجة بسبب عدم السماح لها بالذهاب لحضور القداس، ولكنها وافقت على ترديد الصلوات الطقسية من كتاب التسبيح مع الأخت مايكل بدلًا من ذلك.

في أثناء تجول ليب مع آنا، تعمدت ليب أن تسيران بخطوات بطيئة جدًا؛ حتى لا تُرهق آنا مثلما

حدث في اليوم السابق. وقبل أن تخرجا من المنزل، فحصت المكان على المدى البعيد، لتتأكد من عدم وجود متطفلين.

اختارتا طريقهما عبر ساحة المزرعة، وكانت أحذيتهما تنزلق. قالت ليب وهي تشير إلى الغرب: «إذا كنت أقوى.. كنا ذهبنا حوالي نصف ميل في ذاك الاتجاه.. إلى شجرة زعرور غريبة جدًا وجدتها هناك، وبها شرائط من القماش معلّقة في كل مكان».

أومأت آنا وقالت بحماس: «شجرة الأشرطة البالية عند بئرنا المقدسة؟

قالت ليب: «أعتقد أنه ليس بئرًا بالضبط، فقط بركة صغيرة». لقد تذكرت رائحة الماء النتنة، لكن ربما لها قوة تطهير في ظنهم! فلا جدوى من البحث عن بذرة علم في عالم الخرافة.

سألت ليب: «هل هذه الأشرطة نوع من التقدِمة؟

أجابت آنا: «هذه الأشرطة تُغمر في الماء وتُفرك على مكان الألم أو الصداع، بعد ذلك، تربط نفس القطعة من القماش على الشجرة، أتفهمين؟

هزت ليب رأسها.

«كأنكِ تضعين الشر على قطعة القماش، وتتركينها وراءكِ. وعندما تتحلل القماشة، ستختفي المشكلة التي كنت تعانين منها أيضًا». فكرت ليب أن هذه الأسطورة خبيثة جدًا؛ لأن الوقت يشفي جميع الأمراض تقريبًا. وعندما تُبلى قطعة القماش مع مرور الوقت، تكون معاناة المريض قد انتهت بالفعل»!

توقفت آنا لتمرر يدها فوق مجموعة زاهية من الطحالب على جدار، أو ربما لتلتقط أنفاسها. كان هناك زوج من الطيور يقتنص الكرز الأحمر من

السياج.

أمسكت ليب بحفنة من تلك الكُرات اللامعة وقرّبتها من وجه الطفلة. سألتها «هل تتذكرين طعم هذه؟

«أعتقد ذلك.» كانت شفاه آنا على بُعد كف يد من الكرز.

سألتها ليب، بطريقة مغرية: «ألا يسيل لُعابك لتأكلينه؟

هزت الفتاة رأسها.

«أليس الله هو الذي خلق هذا الكرز؟ كادت ليب أن تقول **«إلهكِ».**

«خلق الله كل شيء».

طحنت ليب الكرز الأحمر بين أسنانها، فملأ فمها فيضٌ من العصير بسرعة شديدة، وكاد أن يتسرب من فمها. لم تذق شيئًا بمثل هذا السحر من قبل!

اختارت آنا كرة حمراء صغيرة من بين الكرز.

دقّ قلب ليب بصوتٍ عالٍ يكاد يكون مسموعًا. هل هذه هي اللحظة؟ هل يمكن أن يكون الأمر بهذه السهولة؟ الحياة العادية، قريبة مثل هذه الثمار المتدلية!

لكن الفتاة مدت يدها مسطحة تمامًا، وكانت ثمرة الكرز في الوسط، وانتظرت حتى انقض عليها طائر جريء.

في طريق العودة إلى الكوخ، تحركت آنا ببطء كأنها تخوض في المياه.

***

بعد التاسعة من مساء ذلك الأحد، كانت ليب متعبة جدًا، وتتعثر في طريق العودة إلى دكّان المشروبات الروحية. كانت واثقة تمامًا أنها ستنام حال أن

تلمس رأسها الوسادة.

لكن بدلًا من ذلك، انطلق عقلها إلى الحياة مثل نحلة مُزعجة. فكرت بأنها ربما أساءت فهم موقف «وليام بيرن» بعد ظهر الأمس؛ فماذا فعل الرجل سوى أنه ألحّ مرة أخرى في طلب مقابلة آنا؟ هو لم يهاجم ليب فعليًا، بل هي من قفزت إلى استنتاجات سريعة جدًا. إذا كان حقًا يجد رفقتها مملة، فلماذا لم يجعل أحاديثهم قصيرة وتركز فقط على آنا أودونيل؟

غرفته توجد على الجانب الآخر من الممر. وربما لم يذهب للنوم بعد. تمنت لو يمكنها التحدُّث معه - كرجل كاثوليكي ذكي - حول وجبة الطعام الأخيرة للطفلة، والتي كانت القربان المقدس فقط. لكنها في الحقيقة، يئست من أن تجد شخص آخر لتشاركه الرأي حول الفتاة. شخص تثق في عقله؛ وهو بالطبع ليس ستانديش بعدوانيته، ولا ماكبرارتي بتفاؤله الغريب، ولا الراهبة ضيقة الأفق أو الكاهن المراوغ، ولا الآباء المفتونون أو على الأرجح فاسدون. هي تبحث عن شخص يمكنه أن يخبرها إذا كان حكمها على الأمور سليمًا.

تسمع بيرن يرددها مرة أخرى في رأسها، بطريقة مثيرة، ساحرة: «دعيني أحاول»!

هل يمكن أن يكون الأمران صحيحان في ذات الوقت؛ أن يكون صحفيًا مدفوع الأجر لكشف خبايا القصة، ولكنه يرغب أيضًا في المساعدة؟

مضى أسبوع كامل منذ وصول ليب من لندن. كانت مليئة بالثقة - ثقة زائدة في قدراتها الشخصية-، واتضح أنها كانت ثقة مضّللة. اعتقدت أنها الآن ستكون قد عادت إلى المشفى، وتعرّف رئيسة الممرضات قدرها. لكن بدلًا من ذلك، وجدت

نفسها محاصرة هنا، دون أن تُحرز أي تقدم في فهم مسألة آنا أودونيل، أكثر مما كانت عليه قبل أسبوع. فقط صارت أكثر تشتتًا، وإرهاقًا، وانشغالًا بدورها في هذه الأحداث.

قبل فجر يوم الإثنين، تركت ليب رسالة تحت باب غرفة بيرن ومضت.

عندما وصلت إلى الكوخ، في تمام الساعة الخامسة، كانت كيتي لا تزال مستلقية في فراشها. قالت الخادمة إنها لن تقوم بأي عمل اليوم سوى الأمور الضرورية فقط، نظرًا لأنه يوم الواجب الديني.

وقفت ليب وفكرت؛ هذه فرصة نادرة للتحدث إلى كيتي على انفراد. سألتها بصوت خفيض:

-أعتقد أنكِ تحبين ابنة عمكِ؟

-بالتأكيد، لماذا لا أحب الصغيرة المحبوبة؟

قالتها بصوتها عالي جدًا. جعل ليب تضع إصبعها على شفتيها. «هل ألمحت إليكِ.. «ثم قالتها بكلمة أبسط»: هل قالت لكِ في أي وقت، لماذا لا تأكل؟

هزت الفتاة رأسها.

-هل شجّعتِها في أي وقت على تناول شيء؟

-لم أفعل شيئًا. ثم جفلت بعينيها وقالت وهي تنهض بفزع: «كُفي عن اتهاماتك»!

-لا، لا، أنا فقط أقصد..

كيتي! أتى صوت السيدة أودونيل من الزاوية.

حسنًا، لقد أفسدت هذه الغبية كل شيء. دخلت ليب الغرفة على الفور.

كانت الطفلة لا تزال نائمة، فغطاه بثلاث بطانيات. همست الراهبة مايكل: «عمت صباحًا». وأظهرت لليب سجل الملاحظات الفارغ عن ليلة الأمس:

* تم إعطاءها حمامًا باستخدام إسفنجة.
* تم تناول ملعقتي شاي من الماء.

قالت الراهبة:

-تبدين مُتعبة يا سيدة رايت!

قالت ليب بانزعاج:

-هل أبدو هكذا بالفعل؟!

-لقد رأوك تجوبين في أنحاء البلدة.

هل تعني الراهبة؟ أنهم رأوها بمفردها أم مع الصحفي؟ هل يثرثر الناس هنا؟ قالت ليب كذبًا: «التمرين يساعدني على النوم»!

عندما غادرت الراهبة مايكل، قرأت ليب ملاحظاتها لبعض الوقت. بدت الصفحات البيضاء الناعمة تستهزئ بها. لم تضف الأرقام شيئًا جديدًا؛ لم تنجح سوى في أن تروي حكاية آنا. فهي كانت ولا تزال آنا وليست أي شخص آخر. فتاه ضعيفة البنية، ذات وجه ممتلئ، هزيلة، لكن مفعمة بالحيوية، حرارتها منخفضة، لكن مبتسمة. تواصل القراءة، وفرز البطاقات، والحياكة، والصلاة، والترتيل.. إنها تتحدى كل القوانين. فهل هي معجزة حقًا؟!

تحاول ليب تجنب هذه الكلمة، لكنها بدأت ترى لماذا يمكن للبعض أن يطلقوا عليها هذا الاسم. كانت عيون آنا واسعة، لونها بني مختلط بالكهرمان. انحنت وسألتها:

-هل أنت بخير، يا فتاة؟

-أكثر من جيدة يا سيدة ليب. إنه عيد انتقال السيدة العذراء!

-نعم فهمت ذلك، عندما زفعت إلى السماء، هل أنا على حق؟

أومأت آنا بعينيها، بينما تحدق في النافذة. قالت:

«الضوء ساطع جدًا اليوم، يوجد هالة من الأضواء الملونة حول كل شيء.. ورائحة تلك الأزهار»!

بدت الغرفة رطبة وعفنة بالنسبة لليب، وحتى الزهور البنفسجية في المزهرية كانت بلا رائحة. ولكن الأطفال خيالهم خصب، وبخاصة هذه الطفلة. راحت تسجل ملاحظاتها الطبية:

الإثنين، 15 أغسطس، الساعة 6:17 صباحًا.

*** نوم جيد.**

*** درجة الحرارة تحت الإبط لا تزال منخفضة.**

*** نبضات القلب: 101 نبضة في الدقيقة.**

*** الرئتين: 18 تنفسًا في الدقيقة.**

كانت القراءات تتذبذب، لكنها في المجمل تتجه نحو الارتفاع. فهل يعني ذلك وجود خطورة؟ ليب لم تكن متأكدة. هذا واجب الأطباء، هم الذين عليهم مسؤولية تقدير مثل هذه الأمور. على الرغم من أن ماكبرارتي يبدو غير مؤهل لهذه المهمة!

دخل الأب والأم وكيتي في وقت مبكر، ليخبروا آنا بأنهم ذاهبون إلى الكنيسة. سألتهم آنا، وعينيها تلمع:

-لتقديم باكورة المحاصيل؟

قالت والدتها:

-بالطبع!

سألت ليب، من باب المجاملة:

-ماذا ستأخذون بالضبط؟

قال ملاخي:

-خبز مصنوع من باكورة محصول القمح. و.. اه، قليل من الشوفان والشعير أيضًا.

تدخلت كيتي في الحديث:

-لا تنس أننا سنقدم التوت البري أيضًا!

قالت روزالين:

-وبضعة حبات من البطاطا الجديدة.. صحيح لا تتجاوز حجم رأس الإصبع، لكن ليبارك الله فيها!

من خلف النافذة الملطّخة، راقبت ليب أعضاء هذا الحفل وهم ينطلقون، الرجل المزارع يسير بضع خطوات خلف النساء. كيف يمكنهم الاهتمام بأعيادهم في الأسبوع الثاني من هذه المراقبة؟ تساءلت، هل يعني ذلك أنهم لا يشعرون بأي ذنب في ضمائرهم، أم أنهم وحوش بلا رحمة؟ كيتي لم تبدُ قاسية في وقت سابق، كانت قلقة بشأن ابنة عمها أكثر من ذلك. لكنها شعرت بتوتر شديد من الممرضة الإنجليزية، عندما فهمت سؤالها بشكل خاطئ، وظنت أنها تتهمها بإطعام الفتاة سرًا.

لم تأخذ ليب الطفلة للخارج حتى العاشرة صباحًا اليوم. هذا هو الوقت الذي دونته في دفتر الملاحظات. كان اليوم جميلًا، بل الأفضل منذ وصولها؛ فالشمس ساطعة كشمس إنجلترا. تأبطت الطفلة ومشت بحذر شديد.

كانت آنا تتحرك بطريقة غريبة على ليب، حيث كانت تمد ذقنها إلى الأمام. لكنها بالرغم من ذلك، بدت مستمتعة بكل شيء. تستنشق الهواء كأنه معطر برائحة الزهور بدلًا من رائحة الأبقار والدجاج. تلمس كل صخرة مغطاة بالطحالب مرّا بها في طريقهما. سألتها ليب:

-ماذا بك اليوم يا آنا؟!

-لا شيء. أنا فقط سعيدة!

نظرت إليها ليب بريبة.

-تنثر سيدتنا العذراء كمية كبيرة من النور على كل

شيء، يمكنني تقريبًا أن أشم رائحة عبيرها..

تساءلت ليب، هل تناول القليل من الطعام أو عدم تناول أي شيء يزيد الاستيعاب؟ هل يمكن أن يحسّن الحواس؟

قالت آنا:

-أرى قدمي، لكن كأنهما تنتميان لشخص آخر. ونظرت إلى حذاء أخيها المهترئ.

زادت ليب من قبضتها على الفتاة.

ظهر ظل رجل من بعيد، بسترة سوداء في نهاية الطريق، بعيد عن مدى الرؤية لكنه قريب من المنزل. قالت ليب:

-آهه.. ويليام بيرن!

رفع قبعته وترك شعره المجعد. قال:

-السيدة رايت!

حاولت ليب أن تتصرف على طبيعتها بأكبر قدر ممكن. قالت:

-آهه، أعتقد أنني أعرف هذا السيد! بينما كانت تفكر (سرًا) إذا كانت تعرفه حقًا!

من الممكن أن تقوم اللجنة بفصلها إذا علم أحد أعضائها، أنها رتبت هذا اللقاء. عرّفته بالطفلة:

-سيد بيرن، هذه آنا أودونيل.

قال وهو يصافح يدها:

-عمت صباحًا يا آنا!

لاحظت ليب أنه ينظر إلى أصابعها المتورمة.

بدأت ليب بحديث عادي عن الطقس، بينما ينشغل ذهنها تحت السطح، وهي تفكر؛ إلى أي مكان يمكن للثلاثة أن يمشوا لتقليل خطر اكتشافهم؟ ومتى ستعود العائلة من القداس؟ قادت ليب بيرن وانا

بعيدًا عن القرية، واتجهت نحو طريق لسير العربات، لكن يبدو أنه قليل الاستخدام.

سألتها آنا:

-هل السيد بيرن زائر، يا سيدة ليب؟

هزت ليب رأسها مذعورة من سؤال الطفلة. لا يمكن أن تسمح للطفلة بأن تخبر والديها، أن الممرضة هي التي خرقت القواعد التي وضعتها!

قال بيرن:

أنا هنا لبعض الوقت، فقط لرؤية المعالم السياحية.

سألته آنا:

-مع أطفالك؟

-للأسف، ليس لدي أطفال حتى الآن!

-هل لديك زوجة؟

هتفت بها ليب:

-آنا!

قال بيرن:

-لا بأس، ثم التفت إلى آنا وقال، «لا، يا عزيزتي، فقط لمرة واحدة، كاد أن يكون لديّ زوجة، ولكن في اللحظة الأخيرة، قررت السيدة تغيير رأيها».

نظرت ليب بعيدًا، نحو مستنقع مليء بالبرك المتلألئة في ضوء الشمس.

قالت بأسف:

-أوه!

هز بيرن كتفيه قائلًا:

-استقرت في كورك. حمدًا لله خلّصني منها!

أعجب ليب هذا الأمر.

اكتشف بيرن أن آنا تحب الزهور، وهذه كانت مصادفة رائعة جدًا، كما أخبرها؛ لأنه هو أيضًا يحبها.

قطع ساقًا حمراء من القرنفل مع زهرة بيضاء أخرى وأهداهما لها.

قالت له:

-في خدمة الإرسالية، تعلمنا أن الصليب مصنوع من خشب القرانيا، لذلك تنمو الشجرة الآن قصيرة وملتوية بسبب الحزن.

انحنى بيرن ليسمعها بوضوح. قالت آنا»:

هذه الزهرة مثل الصليب، أترى؟ ورقتان طويلتان وورقتان قصيرتان.. وهذه البقع البنية هي آثار المسامير، وهذا هو تاج الشوك في الوسط.

قال بيرن:

-رائع!

كانت ليب سعيدة بسبب هذا اللقاء في نهاية الأمر. فهو في السابق، كان فقط يمزح ويقدم النكات عن القضية، أما الآن، فقد حصل على فرصة لفهم الفتاة على الحقيقية.

روى بيرن قصة عن ملك فارسي توقف بجيشه لعدة أيام؛ فقط ليتأمل جمال شجرة.. فجأةً قطع الحديث ليشير إلى فرخ دجاج بري، مرَّ بجسمه البني وألوانه الزاهية في تناقض مع لون خلفية العشب الأخضر. قال لها:

-انظري إلى حاجبيه الحمراون، يُشبهان حاجبيّ!

ضحكت آنا وقالت:

-بل أكثر حمرةً من حاجبيك..

أخبرها إنه زار بلاد فارس ومصر أيضًا. قالت ليب:

-يبدو أن السيد بيرن يسافر كثيرًا حقًا!

-أوه، لقد فكرت في الذهاب إلى أماكن أبعد..

نظرت ليب بطرف عينيها. أردف بيرن:

-ربما استقر في كندا، أو الولايات المتحدة، أو حتى أستراليا أو نيوزيلندا. أريد آفاقًا أرحب.

-لكن قطع كل علاقتك، سواء المهنية أو الشخصية... سيكون مثل الموت الصغير، أليس كذلك! تعثرت ليب وهي تقول ذلك. أوما بيرن مؤكدًا:

-أعتقد أن الهجرة عمومًا هي كذلك. ثمن لحياة جديدة.

سألته آنا فجأة:

-هل تود أن تسمع لغزًا؟

-نعم، أحب ذلك كثيرًا!

أعادت له الألغاز حول الرياح والورق واللهب؛ كانت تنظر إلى ليب فقط لتأكيد بعض الكلمات. فشل بيرن في تخمين أيًا منها، وكان يضرب رأسه عند سماع الإجابة في كل مرة.

اختبر بيرن بدوره معرفتها بأصوات الطيور. فعرفت بدقة صوت الكروان، وصوت الطنين الذي تصدره أجنحة ما سمته «ثغاء المستنقع»، وتبين أنها تعني طائر الشنقب في اللغة الأيرلندية.

أخيرًا، اعترفت آنا بأنها متعبة قليلًا. رمقتها ليب بنظرة فاحصة، ومسحت جبينها الذي ما زال باردًا مثل الحجر، على الرغم من حرارة الشمس والإجهاد. سألها بيرن:

-هل تودين قسطًا من الراحة هنا، لتستعيدي قوتك قبل العودة؟

-نعم، من فضلك.

أزال معطفه بحركة سريعة وفرشه على صخرة مسطحة كبيرة للطفلة.

قالت ليب لها: «اجلسي»، وانحنت لتربت على

البطانة البنية، التي لا تزال دافئة مكان ظهره.

استقرت آنا على أحد جانبيها وأمسكت الساتان بإصبعها.

وعدت ليب الفتاة قائلة: «سألاحظكِ طوال الوقت»، ثم تباعدت هي وبيرن.

تجول الاثنان حتى وصلا إلى جدار مكسور. وقفا قرب بعضهما بما يكفي، لأن تشعر ليب بالحرارة الخارجة من قميصه مثل البخار. قالت: «حسنًا»!

«حسنًا ماذا يا سيدة ليب؟ كان صوته غريبًا.

«ما رأيك فيها؟

«إنها رائعة». تكلم بيرن بصوت هادئ لدرجة جعلتها تضطر للانحناء لتتمكن من سماعه.

«أليس كذلك؟ إنها طفلة رائعة تحتضر»!

شعرت ليب بالضيق فجأة. نظرت خلفها إلى آنا، التي كانت ترقد على حافة سترة الرجل الطويلة.

قال بيرن بصوت هادئ: «أأنتِ عمياء»! كأنه يقول شيئًا لطيفًا. «الفتاة تحتضر أمام عينيكِ».

تلعثمت ليب:

-سيد بيرن. كيف، كيف..

-ظننت أنكِ قريبة جدًا لتري ذلك بنفسكِ!

-كيف يمكنك.. ما الذي يجعلك متأكدًا؟

ذكّرها بيرن بصوت غاضب ولكنه هادئ:

-لقد أُرسلت لأقدم تقارير عن المجاعة، عندما كنت أكبر منها بخمس سنوات فقط.

جادلته ليب بضعف:

-آنا ليست.. هي بطنها مستديرة..

-بعض الناس يتضورون بسرعة والبعض الاخر ببطء.. النوع البطيء يبدو ممتلئًا، لكنه مجرد ماء،

ليس هناك شيء في معدتهم.

ظل يحدق في الحقول الخضراء، أردف: «تلك الخطوات المترنحة، والشعر المخيف على وجهها. ثم هل شممتِ نفسها مؤخرًا؟

حاولت ليب أن تتذكر. لكنها أدركت أن لم تكن تسجل شيئًا عن رائحة الفم. أردف بيرن:

-تتحول رائحة الفم إلى رائحة خل عندما ينقلب الجسم على نفسه؛ يأكل نفسه، أعتقد ذلك!

نظرت ليب ورأت الطفلة قد طوت نفسها كورقة متجعدة. ركضت نحوها.

«أنا لم أفقد الوعي»، كانت آنا تُصر على ذلك، بينما يحملها ويليام بيرن إلى المنزل، متدثرة بسترته. «أنا فقط أرتاح».. عيونها تبدو عميقة كحفر العنكبوت.

اختنقت حنجرة ليب من الخوف. **«طفلة رائعة تحتضر»**. كان محقًا، اللعنة على هذا الرجل!

قال بيرن خارج الكوخ: «دعيني أدخل، يمكنك أن تخبري عائلتها أنني مررت صدفةً وأتيت لمساعدتكِ».

انتزعت آنا من ذراعيه قائلةً: «ابتعد من هنا.».

فقط عندما تحول نحو الطريق، قربت ليب أنفها إلى وجه الفتاة واستنشقت. إنها هي، رائحة ضعيفة حمضية مروعة.

***

عندما استيقظت ليب بعد ظهر ذلك الإثنين، على صوت المطر، الذي كان يقرع سقف نزل «رايان»، كانت مثقلة بالنوم. انتبهت لوجود مستطيل أبيض في أسفل الباب، احتارت في أمره؛ اعتقدت أنه ضوء، لكن عندما سحبت نفسها من السرير وانتبهت، وجدت صفحة مكتوبة بخط اليد، بعجلة ولكن

بدون أخطاء.

«لقاء عابر ومقابلة مع الفتاة الصائمة نفسها، أعطى لهذا المراسل أخيرًا، فرصةً لتكوين رأي شخصي في هذا الموضوع الأكثر جدلًا، بشأن ما إذا كانت هذه الفتاة يتم استغلالها للاحتيال على الشعب.

أولًا، يجب أن يقال، إن آنا أودونيل فتاة عذراء استثنائية. فعلى الرغم من أنها تلقت تعليمًا محدودًا فقط في المدرسة المحلية في القرية، على يد معلم يضطر لأجل زيادة دخله أن يعمل بإصلاح الأحذية. إلا أنها تتحدث بلطف وهدوء وصراحة. وبالإضافة إلى التدين الذي تشتهر به، تُظهر مشاعر كبيرة تجاه الطبيعة وتعاطفًا غير مألوف في هذه السن المبكرة.

لقد كتب الحكيم المصري قبل خمسة آلاف: «كلمات الحكمة أثمن من اللآلئ، ولكنها قد تنبع من فم أمَة مسكينة».

ثانيًا، يقع على عاتقي كمراسل، أن أكشف عن كذب التقارير الخاصة بصحة آنا أودونيل. شخصيتها الرزينة ومعنوياتها المرتفعة قد تحجبان الحقيقة، ولكن طريقة المشي غير المتزنة، والتوتر، وأصابع اليدين المتورمة والمتشنجة، والعيون الزائغة، وقبل كل شيء، النفس ذو الرائحة الحادة المعروفة برائحة الجفاف، كلها تشهد على حالتها الصحية المتدهورة، وأنها تعاني من سوء التغذية.

دون التكهن بالطرق الخفية التي ربما تم استخدامها للحفاظ على حياة آنا أودونيل لمدة أربعة أشهر، حتى بدأت المراقبة في الثامن من أغسطس، يمكن القول - بل ويجب القول، وبدون تردد -إن الطفلة الآن في خطر شديد، وأن مراقبيها يجب أن يحذروا.

كرمشت ليب الورقة وكورتها حتى اختفت في

قبضة يدها، كيف كانت كل كلمة فيها تطعنها بشدة!

في دفتر الملاحظات الخاص بها، سجلت العديد من العلامات والمؤشرات. لماذا كانت تقاوم الاستنتاج الواضح بأن صحة الفتاة تتدهور؟ هل لأنها كانت متغطرسة؟ تشبثت برأيها الخاص وبالغت في تقدير معرفتها؟ كل ما فعلته هو التمني، كانت ترغب في حماية الفتاة من الضرر، واستمتعت فقط طوال الأسبوع بوضع افتراضات حول إطعامها ليلًا، بدون دليل يدعم ذلك. ولكن بالنسبة لشخص من الخارج مثل ويليام بيرن، كان من الواضح له وضوح النهار أن آنا مجرد مريضة بالجفاف!

(مراقبيها يجب أن يحذروا).

كان ينبغي أن يجعلها الشعور بالذنب ممتنة للرجل. فلماذا، عندما تتخيل وجهه الوسيم، تشعر بالغضب؟

سحبت وعاء الفضلات من تحت السرير، وتقيأت به اللحم المسلوق الذي تناولته في العشاء.

***

غابت الشمس قبل وصولها إلى الكوخ بقليل، وظهر القمر مكتملًا، ككرة بيضاء منتفخة. أسرعت ليب، مرت بالوالدين وكيتي، اللذين يحتسون الشاي، دون أي تحية تُذكر. كان عليها أن تحذّر الراهبة. فكرت أن الطبيب ماكبرارتي قد يستمع إلى الحقيقة بشكل أفضل من خلال الراهبة مايكل إذا تمكنت من الحديث معه.

ولكن هذه المرة، وجدت آنا مستلقية على السرير والراهبة جالسة على الحافة. كانت الطفلة منشغلة تمامًا بقصة تسردها الراهبة، لدرجة أنها لم تلق نظرة على ليب.

كانت الراهبة مايكل تقول: «مائة عام وظلت تتألم

باستمرار».

التفتت عيناها إلى ليب ثم عادت إلى آنا. تابعت: «اعترفت العجوز أنها عندما كانت طفلة صغيرة في القداس، تناولت القربان المقدس ولم تغلق فمها في الوقت المناسب، فانزلق القربان على الأرض. كانت مستحيَة جدًا لتخبر أي شخص بذلك، لذا تركته هناك».

شهقت آنا بقوة.

لم تسمع ليب زميلتها الممرضة تتحدث بكثرة من قبل.

قالت الراهبة: «هل تعرفين ما فعله الكاهن؟

سألت آنا: «عندما سقط من فمها الخبز المقدس؟

«لا، الكاهن الذي كانت تعترف إليه العجوز عندما بلغت مائة عام، عاد إلى نفس الكنيسة وكانت عبارة عن حطام، ولكن هناك كانت شجيرة تزهر من بين الأحجار المدمرة الواقعة على الأرض. بحث بين الجذور، وما وجد إلا القربان المقدس نفسه، طازجًا كما سقط من فم الفتاة الصغيرة قبل ما يقرب من قرن من الزمان».

أصدرت آنا صوتًا صغيرًا لتعبر عن دهشتها.

اجتاح ليب رغبة عارمة بأن تسحب الراهبة من مرفقيها وتخرجها من الغرفة. وتسألها، أي نوع من القصص هذا لترويه للطفلة؟!

أردفت الراهبة: «حملها الكاهن ووضعها على لسان العجوز، وانكسرت اللعنة وتحررت العجوز من آلامها».

رسمت الطفلة علامة الصليب. وقالت وهي مرتبكة: **«لتمنحها الراحة الأبدية يا رب، ولتشرق عليها بالنور الدائم، حتى ترقد في سلام».**

فكرت ليب، التحرر من الألم يعني الوفاة؟ فقط في أيرلندا يعتبرون ذلك نهاية سعيدة!

نظرت آنا إليها بخفقان وقالت: «عمت مساءً، يا سيدة ليب. لم أرك هناك»!

«عمتِ مساءً يا آنا».

وقفت الراهبة مايكل وجمعت أغراضها. تقدمت وهمست في أذن ليب: «هي متحمسة للغاية طوال العصر، ترتل ترنيمة بعد ترنيمة».

«وتعتقدين أن القصة المشوقة التي قصيتيها عليها ستهدئها؟

كمد وجه الراهبة واختفى داخل إطار الكتان. قالت: «أعتقد أنكِ لا تفهمين قصصنا يا سيدتي».

قالت الراهبة مايكل هذه الكلمات بطريقة عدائية، وانسلّت من الغرفة قبل أن يتسنى لليب أن تقول ما كانت تنتظر قوله طوال الظهيرة: أنه في رأيها -وبالطبع لا يمكنها أن تذكر بيرن - آنا في خطر حقيقي.

شغلت نفسها بإعداد المصباح، وعبوة الوقود، ومقص الفتيل، وكأس الماء، والبطانيات، كل شيء جاهز لليلة. أخرجت دفتر المذكرات الخاص بها ورفعت معصم آنا. تذكرت «**طفلة رائعة تحتضر**». سألتها: «كيف تشعرين؟

«راضية وسعيدة تمامًا يا سيدة ليب».

كانت عيون آنا غائرة، يمكن لليب أن ترى الآن، أنها غارقة في الأنسجة المنتفخة. سألتها: «ولكن أعني في جسدك؟

قالت الفتاة بعد لحظة طويلة:

-أنا أطفو..

-دوار؟ كانت ليب تسجل.

ثم سألت:

-هل هناك أي شيء أخر يزعجك؟

-الطفو لا يزعجني.

-هل هناك أي شيء أخر مختلف اليوم؟» كنت تعد قلمها المعدني لتكتب.

انحنت آنا نحوها كأنها تكشف سرًا كبيرًا. قالت:

-مثل أصوات الأجراس من بعيد..

كتبت ليب:

***طنين في الأذن،**

***نبض: 104 نبضة في الدقيقة.**

***رئتين: 21 تنفسًا في الدقيقة.**

لاحظت ليب أن حركة الفتاة صارت أكثر بطئًا بالتأكيد. الآن ماذا بعد؟ لقد كانت تبحث عن دليل!

يديها وقدميها أبرد وأكثر زُرقة قليلًا مقارنة بأسبوع مضى. قلبها ينبض بسرعة، مثل أجنحة طائر صغير. الدم غير واضح في خدي آنا الليلة. بشرتها خشنة مثل حبات الرمل في بعض الأماكن. رائحتها حمضية قليلًا. كانت ليب تود أن تعطيها حمامًا بإسفنجة، لكنها خشيت أن تجعلها تشعر بالبرودة أكثر.

«أعشقك أيها الصليب يا أثمن ما أملك...» راحت آنا تهمس بصلاة دوروثي، وتحدق في السقف.

فجأة، فقدت ليب صبرها، سألتها: «لماذا ترددين هذه الصلاة بهذا التكرار؟ توقعت أن تخبرها مرة أخرى أنها صلاة خاصة. لكنها قالت:

-ثلاثة و ثلاثين.

-معذرةً؟

-ثلاث وثلاثين مرة في اليوم فقط.

دخل عقل ليب في دوامة من التفكير، راحت تسأل نفسها، ماذا سيسأل بيرن إذا كان هنا؟ كيف سيكشف أجزاء القصة؟

سألت الفتاة:

-هل أخبركِ السيد ثاديوس أن عليك القيام بذلك؟

هزت آنا رأسها. قالت:

-هكذا كان عمره.

استغرقت ليب لحظة لتفهم. سألتها: «المسيح؟

أومأت برأسها وقالت: «عندما مات وقام من الموت».

-ولكن لماذا يجب أن تكرري تلك الصلاة ثلاثًا وثلاثين مرة في اليوم؟

-لإخراج بات من...» انقطع حديثها فجأةً.. إذ على عتبة الباب المفتوح، وقفت السيدة أودونيل ومدت ذراعيها. قالت الفتاة: «تصبحين على خير يا أمي».

يا له من وجه قاسٍ! تتفهم ليب أن ذلك سببه حزن المرأة. أو ربما غاضبة بسبب حرمانها من أصغر شيء مثل العناق؟ أليست الطفلة مدينة لأمها التي ولدتها بهذا العناق؟!

غادرت روزالين وأوصدت الباب وراءها بقوة.

رأتها ليب، غاضبة؛ ليس فقط من الفتاة التي تُبعد والدتها عنها، ولكن من الممرضة التي تقف كشاهد على الموقف أيضًا.

خطر ببالها أن آنا ربما تحاول - حتى دون أن تكون واعية بذلك - أن تجعل المرأة تعاني. «**الصوم ضد**»، ضد أم حوّلتها إلى راقصة في سيرك.

ارتفع صوت صلاة الوردية من خلف الجدار. لاحظت ليب أنهم لم يطلبوا من انا المشاركة هذه الليلة؛ هذه علامة أخرى على أن قوتها بدأت

تتلاشى.

انكمشت الطفلة على جانبها الآن. تساءلت ليب، لماذا يقول الناس، لتنم مثل طفل. أليس لأن الأطفال ينامون بسلام؟

وضعت البطانيات حول آنا وأضافت بطانية رابعة؛ لأن الفتاة لا تزال ترتجف. وقفت وانتظرت حتى دخلت آنا في النوم وانتهت التراتيل في الجانب المجاور.

«سيدة رايت». وقفت الأخت مايكل مرة أخرى، على عتبة الباب. سألتها ليب:

«ما زلتِ هنا؟»، شعرت بارتياح لحصولها على فرصة أخرى للحديث معها.

«بقيت للصلاة الوردية. هل يمكنني..»

«تعالي، تعالي» هذه المرة ستشرح ليب كل شيء بوضوح بما يكفي لكسب رضا الراهبة.

أغلقت الأخت مايكل الباب بحرص. قالت بهمس: «الأسطورة، تلك القصة القديمة التي كنت أقصّها على آنا..»

قطّبت ليب حاجبيها وقالت: «نعم؟»

قالت الراهبة: «إنها عن الاعتراف. الفتاة في القصة لم تُعاقب على سقوط القربان المقدس من فمها، ولكن بسبب أنها أخفت خطأها سرًا طوال حياتها».

كان هذا مجرد تفاصيل لاهوتية، وليب ليس لديها وقتا لذلك.

«أنت تتحدثين بألغاز».

ألقت عباءتها، قالت: «عندما اعترفت العجوز أخيرًا، ارتاحت من العبء، كما ترين»، كانت الراهبة تهمس، وعيونها تتجه نحو السرير.

ذهشت ليب، هل يمكن أن تعني هذه التلميحات،

أن الراهبة تعتقد أن آنا لديها سرًا فظيعًا يجب أن تعترف به، وأن الفتاة بعد كل هذا ليست معجزة؟!

حاولت أن تتذكر أحاديثهما القصيرة في خلال الأسبوع الماضي. هل قالت الراهبة حقيقةً، أنها تعتقد أن آنا تعيش بدون طعام؟ لا، فقط افترضت ليب عنها ذلك، بسبب التحيز الديني الذي يعمي عينيها. لكن الأخت مايكل لم تكشف عن آرائها الشخصية، بل حافظت على حكمتها، والتحدث بعبارات عامة وهادئة طوال الوقت.

اقتربت ليب منها كثيرًا وهمست:

-كنتِ تعرفين كل شيء منذ البداية.

رفعت الأخت مايكل يديها وقالت:

-كنت فقط...

-أنتِ مثلي، على علم بالحقيقة. كلانا نعرف من البداية أن هذا كله ما هو إلا خدعة.

همست الراهبة:

-لم نعلم.. لا نعلم شيئًا بالتأكيد.

-آنا تحتضر بسرعة يا أخت مايكل. كل يوم تصير أضعف من ذي قبل، أكثر برودة، تفقد الشعور بالتدريج. هل شممتِ نفسها؟ معدتها تأكل نفسها.

جحظت عيون الراهبة.

قالت ليب وهي تمسك معصمها:

-يجب علينا أن نكتشف الحقيقة، أنا وأنت، ليس فقط لأننا مكلّفات بهذه المهمة، ولكن لأن حياة الطفلة تعتمد على كشف الحقيقة.

استدارت الأخت مايكل على كعب قدميها وفزت من الغرفة.

لم تتمكن ليب من متابعتها؛ كانت مقيدة هنا. تأوهت غيظًا. ولكن في الصباح، ستضطر الراهبة

للعودة، وستكون ليب في انتظارها.

ظلت آنا مستيقظة طوال تلك الليلة. تحوّل رأسها أو تنقلب على الاتجاه الاخر. ستة أيام متبقية حتى نهاية المراقبة. لا، هذا فقط إذا استمرت الفتاة على قيد الحياة ستة أيام أخرى. كيف يمكن للطفل أن يتشبّث بالحياة ببضع قطرات من الماء؟

طفلة محبوبة تحتضر. كان من المفيد أن تعرف ليب الحقيقة. قالت لنفسها؛ الآن يمكنها العمل. ولكن من أجل آنا، يجب عليها أن تتصرف بأقصى درجات الحذر، بدون أي غطرسة ودون أن تفقد أعصابها مرة أخرى. قالت لنفسها، تذكري، **أنتِ غريبة هنا.**

الصوم لا ينتهي سريعًا؛ إنه أبطأ ما يكون. الصوم يعني غلق الباب سريعًا، بإحكام وثبات، كحصن. الصوم يعني التمسك حتى إفراغ المعدة، والثبات على قول لا ولا ولا آلاف المرات.

كانت آنا تحدق بلامبالاة في الظلال التي يعكسها المصباح على السقف.

سألتها ليب: «هل هناك أي شيء ترغبين به؟

فقط هزت رأسها.

«بَنُو الغُرَبَاءِ يَبْلَوْنَ وَيَزْحَفُونَ مِنْ حُصُونِهِمْ». جلست ليب وهي تراقب الفتاة. ترمش بعينيها الجافة.

عندما أطلّت الراهبة برأسها من الباب، بعد الخامسة صباحًا، قفزت ليب بسرعة، فآلمتها عضلة في ظهرها. أغلقت الباب تقريبًا في وجه روزالين أودونيل. بالكاد استطاعت أن تنطق الكلام:

-اسمعي يا أخت مايكل، يجب أن نخبر الطبيب ماكبرارتي أن الطفلة تنتحر تدريجيًا بسبب حزنها المفرط على شقيقها. حان الوقت لإنهاء المراقبة.

قالت الراهبة بصوت خافت، كأن كل مقطع يأتي من حفرة عميقة تحت الأرض:

-لقد قبلنا هذا التكليف.

أشارت ليب إلى الفتاة النائمة في السرير:

-ولكن هل فكرت يومًا أننا سنصل إلى هذه النقطة؟

-آنا فتاة مختلفة ومميزة جدًا.

-ليست متميزة لدرجة تجعلها لا تموت.

تلوّت الأخت مايكل وهي تقول:

-أنا ملتزمة بنذر الطاعة. التعليمات واضحة جدًا.

-وقد اتبعنا التعليمات حرفيًا، مثلما يفعل الجلادون.

راقبت ليب وجه الراهبة وهي تستوعب هذه الصدمة. انتابها الارتياب. قالت:

-هل لديكِ تعليمات أخرى، يا أخت مايكل؟ ربما من السيد ثاديوس، أو من رؤسائكِ في الدير؟

-ماذا تقصدين؟!

-هل تلقيتِ أوامر بأن لا ترين شيئًا ولا تسمعين شيئًا، ولا تقولين شيئًا، بغض النظر عمّا تعتقدين حقًا بأنه يحدث في هذا الكوخ؟ ثم أردفت بصوت متسلط تقريبًا: «أمروكِ بالشهادة على وجود معجزة مثلًا؟

ظهر الغضب الشديد على وجه الراهبة:

-السيدة رايت!

-أرجو المعذرة، إذا كنت مخطئة!

ظهر الوجوم على وجه ليب لكنها تثق بالمرأة. سألتها:

-إذن لماذا لا تتحدثين معي إلى الطبيب؟

-لأنني فقط ممرضة.

هاجمتها ليب:

-لقد تعلمت معنى هذه الكلمة بكل ما تعنيه.. ألم تتعلميها أنتِ كذلك؟

فجأةً ذفع الباب بقوة. قالت روزالين أودونيل: «هل يمكنني أن أقول صباح الخير لابنتي على الأقل؟

قالت ليب، وهي تستدير نحو السرير: «آنا لا تزال نائمة».

لكن وجدت عيون الفتاة كانت مفتوحةً عن آخرها. تُرى ماذا سمعت؟!

قالت ليب، بصوت مهتز: «عمتِ صباحًا يا آنا».

بدت الفتاة واهنة تمامًا، كأنها رسمة على رقة قديمة. قالت: «عمتِن صباحًا يا سيدة رايت، يا أخت مايكل، يا أمي».» كانت تنشر ابتسامتها الواهنة في جميع الاتجاهات.

في تمام الساعة التاسعة - بعد أن انتظرت ليب طويلًا، من باب الأدب -اتجهت إلى منزل ماكبرارتي.

قالت مدبرة المنزل:

-الطبيب في الخارج.

-خرج إلى أين؟

كانت تترنح من التعب، لدرجة أنها لم تستطع صياغة السؤال بشكل أكثر تأدبًا.

-هل هي فتاة أودونيل، أليست بخيرا!

حدقت ليب في وجه المرأة اللطيفة تحت قبعتها المنشّاة. أرادت أن تصرخ في وجهها: **آنا لم تتناول وجبة غذاء جيدة منذ أبريل، كيف يمكن أن تكون بخير؟** لكنها قالت: «يجب أن أتحدث إليه بشأن مسألة عاجلة».

-تم استدعاؤه في زيارة طبية منزلية عند السير أوتواي بلاكت.

-من هو ذاك؟

-البارون. قالتها المرأة باندهش لأن ليب لا تعرف الرجل. أردفت: «وقاضٍ مقيم».

-أين مقره؟

تيبّست مدبرة المنزل، عندما فكرت أن الممرضة قد تلاحق الطبيب هناك. قالت لها:

-إنه بعيد جدًا؛ كان من الأفضل بكثير أن تعودي في وقت لاحق يا سيدة رايت.

تركت ليب نفسها تترنح أمام السيدة؛ لتلمّح بأنها قد تنهار على عتبة الباب. قالت المرأة:

-أو يمكنكِ الانتظار في غرفتي بالأسفل!

فكرت ليب إذا كان من المناسب لمكانتها كممرضة نايتنجيل، أن تطلب توجيهها إلى المطبخ!

جلست أمام فنجان شاي بارد لمدة ساعة ونصف. ليتها كانت تحظى بدعم تلك الراهبة البائسة! قطع شرودها صوت مدبرة المنزل وهي تقول:

-عاد الطبيب، وسيستقبلكِ الآن.

نهضت ليب من مكانها بسرعة، ولم ترَ أمامها سوى ظلال سوداء!

كان الدكتور ماكبرارتي منهمك في دراسة أوراقه، ينقل الأوراق بشكل عشوائي، عندما دخلت إليه ليب.

-السيدة رايت، أهلًا بك!

ذكرت ليب نفسها أن الهدوء أمرًا ضروريًا؛ لأن صوت المرأة المتهكمة يجعل الرجال يصمون آذانهم. فكرت أن تبدأ بالسؤال عن أحوال البارون المريض. أخبرها ماكبرارتي:

-يعاني من صداع مؤلم؛ ليس أمرًا خطيرًا، الحمد لله.

-دكتور، لقد جئت إلى هنا بسبب قلقي الشديد على صحة آنا.

-آوه، عزيزتي!

-فقدت وعيها بالأمس. نبضها يتسارع، والدورة الدموية أصبحت بطيئة لدرجة تجعلها لا تشعر بقدميها. تنفسها..

رفع ماكبرارتي يده ليوقفها. قال:

-سيدتي، لقد أوليت آنا الصغيرة الكثير من الاهتمام، وبذلت قصارى جهدي في البحث في سجلات التاريخ طلبًا للاستنارة.

-سجلات التاريخ؟

كررت ليب كلامه بذهول!

-هل تعلمين.. حسنًا، ما الذي يهُمكِ في معرفة ذلك؟ في العصور المظلمة، أصيب العديد من القديسين بفقدان تام للشهية لسنوات، وحتى لعقود. كان يُطلق عليها Inedia prodigiosa، أي الصوم العجيب.

هل حقًا كان لديهم تسمية خاصة لذلك! يتعاملون مع هذا المشهد الغريب، كما لو كان شيئًا حقيقيًا مثل حجر أو حذاء! تذكرت ليب ما يسمى «الفقير» في لاهور، فكّرت، أن العصور المظلمة لم تنته بعد؛ كل بلد له قصص طويلة مثل هذه القصص الخارقة للطبيعة.

واصل الرجل العجوز حديثه بحماس، «كانوا يطمحون أن يكونوا مثل سيدتنا العذراء، أتعلمين؟ في طفولتها، يقال إنها كانت ترضع مرة واحدة فقط في اليوم. أما القديسة كاثرين، فبعد أن أجبرت

نفسها على ابتلاع قليلًا من الطعام، أدخلت غصنًا في حلقها لتستفرغه».

اقشعرت ليب، عندما فكرت في هؤلاء الذين يرتدون الأقمصة المصنوعة من الوبر، ويربطون الأحزمة المسننة، وفي الرهبان الذين يجلدون أجسادهم حتى النزف في الشوارع...

أوضح الرجل: «كان غرضهم الوصول إلى قمع الجسد حتى تسمو الروح».

تساءلت ليب: **(ألسنا روح وجسد؟ ألسنا كليهما معًا؟ فلماذا يجب الانتصار لأحدهما دون الآخر؟).** قالت:

-حضرة الطبيب، نحن الآن في زمن الحداثة، وآنا أودونيل مجرد طفلة صغيرة.

-هذا مسلّم به، مسلّم به.. لكن أليس من الجائز أن يكون هناك سر فيزيولوجي وراء تلك القصص القديمة؟ البرودة المستمرة التي ذكرتها بخصوص آنا، على سبيل المثال.. يمكن وضع فرضية مؤقتة حول ذلك. بأنه من الجائز أن تكون عملية الأيض لديها أقل حرقًا. ولذلك، ربما تتشابه أكثر مع طبيعة الزواحف عن طبيعة الثدييات».

تشبه الزواحف؟ أرادت ليب أن تصرخ!

-في كل عام، في أقاصي العالم، يكتشف رجال العلم ظواهر تبدو غامضة.. ربما تمثل الفتاة ظاهرة نادرة اليوم، وقد تصبح شائعة في الأزمنة المستقبلية. كان صوت ماكبرارتي يهتز من الإثارة. أردف، «وربما تقدم أملًا للجنس البشري بأكمله»!

هل هذا الرجل مجنون؟ سألته ليب: «أي أمل؟

-التحرر من الحاجات الضرورية، يا سيدة رايت! إذا أصبح من الممكن أن تستمر الحياة بدون طعام..

فلماذا يكون هناك سبب للقتال من أجل الخبز أو الأرض؟ هذا يمكن أن يضع حدًا لاحتجاجات الطبقة العمالية والاشتراكية والحروب..

فكرت ليب، كم سيكون ذلك رائعًا لجميع طغاة العالم، أن تعيش شعوبهم بالكامل على لا شيء!

لكن تعبير الطبيب كان مبهزًا. **«لا شيء يستحيل على الطبيب العظيم»!**

استغرقت ليب لحظة لتفهم من يقصد بالضبط. إنه دائمًا (الله)، هو الطاغية الحقيقي في هذا العالم. بذلت مجهودًا للرد بنفس أسلوبه. قالت:

-بدون الطعام الذي يمنحه لنا.. نموت!

«لنعيش فقط اليوم ونموت غدًا»!

وأخيرًا، رأت ليب بوضوح الطبيعة البائسة لحلم رجل عجوز.

-ولكن بخصوص آنا.. كان عليها أن تعيد ماكبرارتي إلى الموضوع. قالت: «صحتها تتدهور بسرعة، مما يعني أنها كانت تتناول طعامًا، حتى أحبطنا نحن ذلك. نحن المسؤولون».

قطّب حاجبيه، قال وهو يلملم أذرع نظارته:

-لا أفهم كيف يحدث ذلك!

-الطفلة التي قابلتها يوم الاثنين الماضي كانت قوية ومفعمة بالحياة.. والآن، هي بالكاد تستطيع الوقوف. ماذا يمكنني أن استنتج، سوى أنه يجب عليك إنهاء المراقبة وبذل كل جهدك لإقناعها بتناول الطعام؟

رفعت يديه الهشة وقال:

-يا سيدتي الصالحة، أنت تتجاوزين حدود مهامك. لم يُطلب منك استنتاج أي شيء. على الرغم من أن حمايتك للطفلة هو أمر طبيعي». ثم أضاف

بلطف أكثر: «أتفهّم أن واجبات الممرضة، خاصةً مع مريضة صغيرة مثلها، لا بد أن تحفز غريزة الأمومة الكامنة لديك. طفلك ميت، هل ما أفهمه صحيح؟

نظرت بعيدًا حتى لا يتمكن من قراءة تعابير وجهها. إنه جرح قديم نكأه هذا الطبيب، لكنه فعل ذلك دون سابق إنذار. كانت تشعر بالدوار من الألم. والغضب أيضًا؛ فهل كان من الضروري أن تشارك رئيسة الممرضات تاريخ ليب مع هذا الرجل؟!

رفع ماكبرارتي إصبعًا معوجة، وكان يلعب في ذقنه، قال:

-ولكن لا يجب أن تسمحي لخسارتكِ الشخصية أن تؤثر على حكمكِ للأمور.. إذا أطلقت العنان لذلك، يمكن أن يؤدي هذا القلق الأمومي إلى حالة ذعر غير منطقية.

ابتلعت «لب» ريقها، وتحدثت بصوت ناعمًا وأنثويًا قدر المستطاع. قالت: «أرجوك يا حضرة الطبيب. ربما إذا استدعيت لجنتك معًا وحذرتهم من تدهور حالة آنا..»

قاطعها بحركة يده. قال: «سأذهب إليها مرة أخرى بعد ظهر اليوم، هل سيطمئن ذلك؟

اندفعت «لب» نحو الباب.

لقد أفسدت هذه المقابلة. كان يجب أن تقنع ماكبرارتي تدريجيًا بالموضوع، حتى يصل للنقطة التي عندها يعتقد أن إلغاء المراقبة هي -فكرته هو وقراره هو-، تمامًا كما بدأها. منذ وصولها إلى هذا البلد قبل ثمانية أيام، ارتكبت ليب خطًا تلو الآخر. كم كانت ستشعر بالخزي في مواجهة الآنسة «ن»!

في الواحدة ظهرًا، وجدت أنا في السرير والطوب الساخن يُبعد البطانيات حول قدميها.

همست الأخت مايكل وهي تربط عباءتها: «كانت بحاجة إلى قيلولة صغيرة بعدما تجولت في الفناء».

لم تستطع ليب التحدث. لكن هذه هي المرة الأولى التي تذهب فيها الطفلة إلى السرير في منتصف النهار. فحصت وعاء الفضلات، وجدت به القليل من البول، ملعقة صغيرة على الأكثر، وداكنة جدًا. هل يمكن أن يكون هذا دمًا في البول؟

عندما استفاقت من قيلولتها، تحدثت هي وليب عن أشعة الشمس. كان معدل ضربات القلب 112، وهو الأعلى الذي سجلته ليب. سألتها:

-كيف تشعرين يا آنا؟

قالت بصوت ضعيف:

-أنا بخير!

-هل تشعرين بالجفاف في حلقكِ؟ هل ترغبين في شرب بعض الماء؟

-نعم، إذا سمحتِ!

جلست آنا وأخذت رشفة.

تركت خطًا صغيرًا من اللون الأحمر على الملعقة.

-افتحي فمك، من فضلكِ.

نظرت ليب، وهي تميل فك آنا نحو الضوء. وجدت اللون القرمزي يحيط بعدة أسنان. حسنًا، على الأقل يأتي النزيف من اللثة وليس المعدة. كان أحد الأضراس في زاوية غير سليمة. دفعته ليب بأظافرها، فانحرف إلى الجانب. عندما سحبته، بين إصبعها وإبهامها، وجدت أنه ليس سنًا لبنيًا ولكن واحد من الأسنان الدائمة.

أغمضت آنا عينيها وهي تنظر إلى السن ثم ليب. كأنها تحث الممرضة لتقول شيئًا.

وضعته ليب في جيب مئزرها. ستنتظر حتى

تعرضه على ماكبرارتي. ستتبع التعليمات وتستمر في جمع المعلومات لتعزيز موقفها، وتنتظر الوقت المناسب.. ولكن لن تنتظر طويلًا.

سجلت كل شيء في دفتر الملاحظات:

يوجد لون داكن حول الشفتين وتحت العينين. الشعر الخفيف المشابه لزغب القرود ينتشر على الخدين وينمو أيضًا على الرقبة. توجد مجموعة الكدمات البنية القشرية حول عظمة الترقوة. وحتى في الأماكن التي كانت البشرة فيها لا تزال شاحبة، بدأت تتحول إلى الخشونة مثل ورق الصنفرة. زادت حدقة العيون اتساعًا، مثل ثقوب سوداء تكبر يومًا بعد يوم، وتبتلع اللون البني الفاتح.

-كيف حال عينيك؟ هل ترين كما كنت ترين قبل؟»

قالت آنا:

-أرى ما أحتاج إلى أن أراه..

أضافت ليب إلى الملاحظات:

*** يوجد ضعف في البصر.**

-هل هناك أي شيء آخر.. هل تشعرين بألم في أي مكان؟

أجابت آنا بحركة غامضة وهي تشير حول خصرها:

-فقط.. يمرُ من خلالي

-يمرُ من خلالك؟

-ليس من خلالي..

قالت بصوت خافت جدًا، بحيث لم تكن ليب متأكدة مما سمعته بشكل صحيح. سألتها:

-ألم ليس لانا؟ الفتاة التي يمر الألم من خلالها ليست انا؟ هل انا ليست انا؟ ربما بدأ عقل الفتاة في الانهيار. وربما ليب أيضًا!

بدأت الطفلة تطوي الصفحات في كتاب المزامير وتهمس بشكل عشوائي بين الحين والاخر: **«إِرْحَمْنِي يَا رَبُّ. انْظُرْ مَذَلَّتِي مِنْ مُبْغِضِيَّ، يَا رَافِعِي مِنْ أَبْوَابِ الْمَوْتِ»**. لم تعرف ليب ما إذا كانت أنا لا تزال تستطيع رؤية النص أم أنها تتلوه من الذاكرة.

«خَلِّصْنِي مِنْ فَمِ الأَسَدِ، وَمِنْ قُرُونِ بَقَرِ الْوَحْشِ اسْتَجِبْ لِي».

بقر الوحش؟ لم تتخيل هذه المخلوقات الخيالية كحيوانات مفترسة!

مدت أنا يدها لتضع الكتاب على خزانتها. ثم انزلقت في السرير، بسرور، كما لو أنها ستبدأ ليلة جديدة.

في خلال هذا الصمت، فكرت ليب في قراءة شيئًا لآنا.

الأطفال في أغلب الأحيان، يفضلون أن يتم سرد القصص لهم بدلًا من قراءتها، أليس كذلك؟ لكن ليب لم تستطع التفكير في أي شيء، حتى لم تتذكر أي أغانٍ. عادةً ما تغني آنا لنفسها؛ تُرى متى توقفت عن الغناء؟

عينا الفتاة تتحركان من حائط إلى آخر، كأنها تبحث عن سبيل للخروج. لا تستقر عيناها إلا على أربعة زوايا الغرفة ووجه ممرضتها المتوتر.

نادت ليب الخادمة من الباب، وهي تمد لها المزهرية:

-كيتي، فراش نظيف من فضلك، وهل يمكنك ملء هذه المزهرية ببعض الزهور أيضًا؟

-أي زهور الان؟

-أي شيء ملون.

عادت كيتي بعد عشر دقائق، مع زوج من

الشراشف، وحفنة من الحشائش والزهور. أدارت رأسها جانبًا لتنظر إلى الفتاة الصغيرة في السرير.

فحصت ليب ملامح كيتي العريضة. هل كان ذلك مجرد حنؤ أم شعورًا بالذنب؟ هل يمكن أن تكون كيتي على علم، بكيف كانت آنا تتناول الطعام حتى وقت قريب، حتى لو لم تفعل ذلك بنفسها؟ حاولت ليب التفكير في طريقة تطرح بها السؤال دون إثارة الذعر في الخادمة؛ كيف تقنعها بالكشف عن أي معلومات لديها، إذا كان ذلك قد ينقذ آنا.

كيتي! صاحت روزالين أودونيل ويبدو أنها متضايقة.

«قادمة». عادت الخادمة بعجالة إلى سيدتها.

ساعدت ليب الفتاة في الجلوس على كرسي لتتمكن من تغيير الفراش.

تكورت آنا فوق المزهرية، ترتب السيقان. كان من بين الزهور واحدة على شكل صليب؛ كانت أصابع ليب تطوق لنزع هذه الزهرة، والعلامات البنية على شكل المسامير الرومانية.

ذهشت الطفلة بزهرة عادية. قالت: «انظري يا سيدة ليب، حتى الأسنان الصغيرة لديها أسنان صغيرة أصغر فوقها»!

تذكرت ليب الضرس المتساقط في جيبها. أحكمت الشراشف الجديدة بشدة حول السرير. **(لأن كرمشة الفراش يمكن أن تؤذي الجلد بنفس الطريقة التي يفعلها السوط)** دائمًا ما كانت الآنسة «ن» تقول ذلك. بعد أن انتهت، أعادت آنا مرة أخرى في السرير وغطتها بثلاث بطانيات.

أتى العشاء، في الرابعة؛ عبارة عن طبق من يخنة السمك. كانت ليب تمسح الصحن بخبز الشوفان،

عندما دخل الطبيب ماكبرارتي. نهضت بسرعة شديدة، كادت أن تقلب كرسيها، من شعورها الغريب بالحرج؛ لأنها أمسكت وهي تتناول الطعام!

قالت الفتاة بصوت متهدّج، وهي تحاول النهوض: «أسعد الله يومك أيها الطبيب»!

وسارعت ليب بوضع وسادة أخرى وراء ظهرها.

قال: «حسنًا يا آنا. لون بشرتك جيد اليوم».

هل يمكن أن يخطئ الرجل العجوز في تفسير هذا الاحمرار المفاجئ؟ على أي حال، كان لطيفًا مع الفتاة. يتحدث معها بينما يقوم بفحصها، عن الطقس الجميل. وفي ذات الوقت، يشير إلى ليب بطريقة هادئة مطمئنة، بأن السيدة رايت الصالحة موجودة هنا.

قالت ليب: «آنا فقدت سنًا للتو».

قال: «رأيت ذلك! هل تعلمين ماذا جلبت لكِ، يا صغيرتي؟ لقد أرسل لكِ البارون أوتواي بلاكيت نفسه، كرسي استحمام، ذو عجلات، حتى تتمكنين من الاستمتاع بالهواء دون إرهاق نفسكِ».

قالت الفتاة: «شكرًا لك»

بعد دقيقة أخرى، غادر، لكن ليب تبعته إلى خارج باب الغرفة.

همس قائلًا: «إنها رائعة»!

جعلتها الكلمة تفقد القدرة على الكلام!

أردف الرجل: «انتفاخ الأطراف، اسمرار الجلد، كذلك اللون الأزرق في شفتيها وأظافرها.. وما إلى ذلك، أعتقد أن آنا تتغير على مستوى الجسم كله بطريقة منتظم». ثم قال بثقة في أذنها. «من المنطقي أن الغذاء الذي تعتمد عليه، شيء آخر غير الطعام لذلك سيعمل بشكل مختلف».

اضطرت ليب للنظر بعيدًا حتى لا يرى ماكبرارتي غضبها.

كان كرسي البارون موضوعًا أمام الباب الأمامي؛ شيء ضخم مغطى بغطاء أخضر باهت وثلاث عجلات وقابل للطي. وكانت تقف كيتي عند المنضدة الطويلة، وعيناها الحمراوان تدمعان بينما تقطع البصل.

تابع ماكبرارتي، وهو يفرك شاربيه: «ولكنني لا أرى أي خطر حقيقي بسبب درجة الحرارة المنخفضة أو الشحوب المستمر»

شحوب! هل درس الرجل الطب من خلال قراءة الروايات الفرنسية؟!

قالت له ليب، وقد ارتفع صوتها على الرغم من جهودها:

-لقد رأيت رجالًا على فراش الموت كان لون بشرتهم أصفر أو أحمر أكثر منه أبيض!

-حقًا؟ لكن آنا ليس حالتها مختلفة كما تلاحظين، ولا يوجد هذيان». ثم اختتم كلامه قائلًا: «من الواضح، بالطبع، أنه يجب عليكِ أن ترسلي إليّ إذا ظهرت أي علامة على الإجهاد الشديد».

-لكنها طريحة الفراش بالفعل!

-فقط ينبغي لها بضعة أيام من الراحة وستكون في حالة أفضل. لن أفاجأ لو تحسنت حالتها بحلول نهاية الأسبوع!

لذا كان ماكبرارتي أكثر غباءً مما تعتقد. قالت ليب: «أيها الطبيب، إذا لم تلغ هذه المراقبة..»

نبرة التهديد في صوتها جعله يقترب بوجهه. قال بغضب: «للأسف، مثل هذه الخطوة ستتطلب موافقة اللجنة بالإجماع».

«إذن اسألهم».

اقترب ليتحدث في أذن ليب، مما جعلها ترتجف. «إذا قررت أن ألغي المراقبة على أساس أنها تعرض صحة الطفلة للخطر، بسبب منع بعض الطرق السرية لتغذيتها، كيف سيبدو ذلك؟ ألا يعني هذا أنني أعلن أن أصدقائي القدامى -عائلة أودونيل- مخادعون أشرار»!

همست ليب بدورها في أذنه: «كيف سيكون الموقف إذا ترك أصدقاؤك القدامى ابنتهم تموت؟

كتم ماكبرارتي نفسه. وقال: «هل هكذا علمتكِ الآنسة نايتنجيل أن تتحدثي مع مرؤوسيكِ؟

-علمتني أن أقاتل من أجل حياة مرضاي.

-سيدة رايت، من فضلكِ اتركي يدي، أنتِ تمسكين بأكمامي..

لم تدرك ليب حتى أنها كانت تمسك به!

شد الرجل العجوز يده وتوجه خارج الكابينة.

ظل فم كيتي مشدوهًا.

عندما عادت ليب بعجلة إلى الغرفة، وجدت آنا قد عادت للنوم مرة أخرى. الأنف الصغير، يصدر شخيرًا خفيفًا. لا تزال الطفلة جميلة بشكل غريب، على الرغم من كل ما فيها من خطأ.

يحق لليب أن تحزم حقيبتها وتطلب من سائق عربة التجول أن يأخذها إلى محطة أثلون. طالما تعتقد أن هذه المراقبة لا يمكن إلغاؤها، فلا ينبغي أن يكون لها أي دور آخر فيها.

ولكنها لم تستطع المغادرة.

في الساعة العاشرة ونصف ليلًا في ذلك الثلاثاء، في نزل رايان، مشت ليب بخطوات خفيفة عبر الممر، وطرقت باب غرفة ويليام بيرن.

لم يكن هناك أي رد.

ماذا لو كان قد عاد إلى دبلن الآن، مستاءً مما كانت تسمح هي به أن يحدث لآنا أودونيل؟ ماذا لو خرج ضيف آخر إلى الباب؛ كيف يمكنها أن تبرر موقفها؟ فجأة، تخيلت كيف سيراها الآخرون: امرأة يائسة تقف خارج غرفة رجل!

سوف تنتظر حتى تعد إلى ثلاثة، وبعد ذلك..

فُتح الباب بقوة. ويليام بيرن، بشعره الأشعث ويرتدي قميصه، قال: «أنتِ»!

احمر وجه ليب بسرعة لدرجة جعلتها تشعر بالألم. العزاء الوحيد هو أنه لم يكن في ملابس النوم. «أرجو المعذرة»!

«لا، لا. هل هناك مشكلة؟ ألا تريدين..» التفت بعينه إلى السرير وعاد.

غرفته الصغيرة أو غرفتها؟ كانت كلتاهما مستحيلة للحديث. لم تستطع ليب أن تطلب منه النزول إلى الطابق السفلي؛ لأن ذلك سيلفت المزيد من الانتباه في هذا الوقت من الليل.

همست: «أنا مدينة لك بالاعتذار. أنت على حق تمامًا بشأن حالة آنا». ثم أردفت: «هذه المراقبة أمر فظيع»! خرجت الكلمة بصوت مرتفع جدًا؛ كانت ستجلب «ماجي رايان» تركض إليها على الدرج.

أومأ بيرن، بدون الزهو بالانتصار.

«لقد تحدثت مع الأخت مايكل ولكنها لن تتخذ أي خطوة من دون إذن صريح من سادتها.. طلبت من الدكتور ماكبرارتي إيقاف المراقبة والتركيز على إقناع الطفلة بعدم تجويع نفسها، ولكنه اتهمني بالذعر غير المنطقي».

«مخاوفك منطقية تمامًا، يمكنني أن أراها كذلك».

صوت بيرن الهادئ جعل ليب تشعر بتحسن طفيف. كم كان الحديث مع هذا الرجل ضروريًا بالنسبة لها، وبأسرع وقت!

اتكأ بيرن على إطار الباب. سألها: «هل الممرضات تؤدين قسمًا، مثل قسم أبقراط القديم الذي يقسم به الأطباء، بأن يُعالجوا ولا يقتلوا؟

«قسم المنافقين، بالأحرى»!

جعل ذلك بيرن يبتسم. أخبرته: «ليس لدينا قسم. كمهنة، ما زال التمريض في بداياته».

«إذن بالنسبة لكم، هي مسألة ضمير».

«نعم».

فقط الآن بدأت تدخل في الأمر بعمق. أيًا كانت الأوامر، هناك واجب أعمق.

قال: «وأكثر من ذلك، أعتقد أنكِ تهتمين بمريضتكِ بشكل خاص».

لماذا يصدقها بيرن لو نفت ذلك؟ أجابته بصراحة: «أعتقد أنني كنت سأكون في إنجلترا الآن لو لم أفعل ذلك»!

(من الأفضل عدم التعلُّق بالأشياء كثيرًا)، هذا ما قالته آنا ذاك اليوم. كما حذّرت الآنسة «ن» دائمًا من التعاطف الشخصي خشية الوقوع في الحب. لقد تعلّمت ليب أن تبقى حذرة تجاه أي تعلّق بأي شكل لتقتلعه من جذوره. فما الذي حدث هذه المرة؟!

سألها بيرن: «هل سبق وتحدثت إلى آنا، بوضوح وبساطة بأنها يجب أن تأكل؟

صارعت ليب لتتذكر ذلك.. قالت: «لقد تكلمت في الموضوع بالتأكيد. ولكن بشكل عام، لأنني حاولت أن أبقى موضوعية، ومحايدة».

قال بيرن: «لقد انتهى وقت الحياد».

صوت وقع أقدام على السلالم، هناك شخص قادم!

فرّت ليب إلى غرفتها وأغلقت الباب بهدوء قدر ما استطاعت حتى لا تصدر صوتًا.

الوجنتان ساخنتان، الرأس مُثقل، اليدان باردتان. فكرت ليب، إذا ضبطت ماجي رايان الممرضة الإنجليزية تتحدث مع الصحفي في وقت متأخر من الليل، في ماذا ستفكر؟ وهل ستكون مخطئة؟

حقًا، الجميع لديهم مستودعًا للأسرار!

وحالة ليب تبدو متوقعة. لأنها كانت ستلاحظ خطر الانجذاب في وقت سابق، لو لم تكن منشغلة جدًا بـ مسألة آنا. أو ربما لم تكن ستلاحظ، لأن بيرن شخص مختلف تمامًا بالنسبة لها. فهي لم تختبر هذا الشعور تجاه زوجها، أو أي رجل آخر.

تُرى كم عام كان بيرن أصغر من ليب، بحماسته الفاتنة وبشرته البيضاء؟ تكاد تسمع الآنسة «ن» تلخص موقفها: «**هو مثل العشب الأخضر الذي نبت في الأرض البور لحياة ممرضة**». هل ليب ليس لديها أي احترام لنفسها على الإطلاق؟

كانت تترنح بشدة من كثرة التعب، لكن استغرقت وقتًا طويلًا لتتمكن من النوم.

في الحلم، وجدت ليب نفسها على (الطريق الأخضر) مرة أخرى، تتشبّث بيد صبي، يبدو شقيقًا لها. فجأة، تحول العشب الأخضر إلى برية من مليئة بالمستنقعات، وتلاشى الطريق من أمامها. لم تستطع مواصلة السير، وعلقت في الوحل الرطب.. وعلى الرغم من اعتراضاتها، ترك هذا الأخ يديها وركض أمامها. عندما لم تعد تستطيع سماع نداءاته أو التمييز بينها وبين أصوات الطيور في الأعلى، وجدت أنه قد وضع علامات على الطريق بفتات الخبز. ولكن أسرعت الطيور والتقطت

الخبز بمناقيرها الحادة. ولم تتمكن من متابعة الطريق. والآن، لم يعد هناك أي علامة على الطريق، وأصبحت ليب بمفردها.

في صباح الأربعاء، رأت ليب وجهها متعبًا في المرآة.

وصلت إلى الكوخ قبل الخامسة. وجدت كرسي الاستحمام قد نقل خارج باب الكوخ، ومبلل بالندى.

آنا كانت غارقة في النوم، ووجهها مليئًا بالخطوط مكان الوسادة. أما وعاء الفضلات، فكان يحتوي فقط على بضع قطرات سوداء.

«السيدة رايت»! بدت الأخت مايكل، كأنها تبرر نفسها.

نظرت ليب إليها في عينيها.

ترددت الراهبة، ثم خرجت دون أن تقول كلمة أخرى.

في الليل، قررت تنفيذ خطتها. ستختار السلاح الوحيد القادر على زعزعة الفتاة: **(الكتاب المقدس)**. أخذت كل مجموعة كتب آنا الدينية في حجرها وبدأت في مراجعتها، ووضع علامات على المقاطع التي تريدها، بشرائط مقصوصة من الصفحة الخلفية لدفتر مذكراتها.

عندما استيقظت الفتاة بعد قليل، لم تكن ليب مستعدة بعد لها، لذا قامت بوضع الكتب مرة أخرى في صندوق الكنز الخاص بالطفلة. قالت: «لديّ لغز لك».

بالكاد تمكنت آنا من الابتسام وأومأت بالرأس.

تكلّمت ليب بصوت واضح:

رأيتكِ حيث لم تكوني أبدًا،

وحيث لن تكوني أبدًا،

ولكنكِ في ذات المكان،
أستطيع أن أراكِ.

قالت آنا على الفور، تقريبًا: «المرآة»!

قالت لها ليب: «لقد صرت ذكية جدًا.. نفذت من عندي الألغاز». وفي أثناء الكلام، قامت برفع المرآة إلى وجه آنا.

تجمّدت الطفلة. ثم نظرت إلى صورتها مرة أخرى بثبات.

سألتها ليب: «هل رأيتِ كيف تبدين هذه الأيام؟

قالت آنا: «نعم أرى». رسمت علامة الصليب على نفسها ونهضت عن الفراش.

لكنها ترنحت كثيرًا، لذا جعلتها ليب تجلس على الفور. قالت لها: «دعيني أغير لكِ ملابس النوم». وأخذت آخر نظيفًا من الدرج.

تعثرت الطفلة في فتح الأزرار الصغيرة، لذا كان على ليب أن تفكها. زُكمت أنفاسها وهي ترفع ثياب النوم عن رأس آنا، عندما رأت البقع البنية على البشرة، والبقع الحمراء كأنها عملات تتناثر على جسدها. بالإضافة إلى كدمات جديدة أيضًا، في أماكن غريبة، كما لو قام معتدي غير مرئي بضرب الفتاة في أثناء الليل.

بعدما ارتدت آنا ملابسها وتدثرت باثنين من الشالات؛ لإيقاف رعشة البرد، حثّتها ليب على تناول ملعقة من الماء. ثم صاحت من الباب، «كيس مخدة آخر، من فضلك يا كيتي».

كانت يدي الخادمة غارقة حتى مرفقيها في دلو الصحون. قالت: «ليس لدينا غير ذلك، لكن يمكن أن تأخذ الفتاة هذا الخاص بي».

«وماذا ستفعلين؟

قالت كيتي بنبرة يائسة: «سأجد شيئًا آخر بحلول وقت النوم. لا يهُم»!

ترددت ليب ثم قالت: «حسنًا، هل يمكنني الحصول أيضًا على شيء ناعم لوضعه في الأعلى؟

مسحت الخادمة حاجبها بذراعها الأحمر. وسألت: «بطانية؟

«لو أمكن شيء أكثر نعومة من ذلك؟

سحبت البطانيات الثلاث من فوق السرير ونفضتها بقوة. تذكرت ليب، كلام الأم: **«وضعنا كل البطانيات التي في المنزل فوق سريره»**، لا بد أن يكون هذا سرير بات؛ فليس هناك سوى هذا السرير، باستثناء الغرفة الجانبية حيث ينام الوالدان. مزقت الخادمة الشرشفة السفلية المتسخة، فانكشف أسفلها. تتبعت عينا ليب آثار البقع القديمة. إذن، مات بات هنا، وهو يرتجف من البرد، في حضن أخته الصغيرة الدافئ.

في الكرسي، بدت آنا كأنها مطوية على لا شيء تقريبًا، مثل تلك القفازات في قشرة الجوز. سمعت ليب صوت جدال في المطبخ.

دخلت روزالين أودونيل مندفعة بعد ربع ساعة، تحمل معها فراشة النوم الخاصة «بكيتي» وأيضًا جلد خروف استعارته من جيرانها في كورك. قالت لابنتها: «هادئة هذا الصباح، يا كسولة»! أمسكت يديها الهشة المشوهة بين يديها.

تعجبَت ليب، كيف يمكن لهذه المرأة أن تفكر بأن **(كسولة)** هي الكلمة المناسبة لهذا المنظر؟ ألا تستطيع أن ترى آنا وهي تذوب مثل الشمعة؟

«آه، حسنًا. الأم تفهم ما لا يقوله طفلها، كما يقول المثل. إليك يا صغيرتي، ها هو بابا هنا الآن»!

قال ملاخي وهو يقف على عتبة الباب: «عمت

صباحًا يا حبيبتي»!

حمحمت آنا: «عمت صباحًا يا بابا».

اقترب ولمس شعرها. «كيف حالك اليوم؟

«بخير»!

فكرت ليب، هؤلاء البؤساء يعيشون اليوم بيومه، عدم قدرتهم على التحكم بظروفهم، يجعلهم يتعلمون الابتعاد عن المتاعب، بعدم النظر أبعد مما أسفل أقدامهم!

أو ربما يكون هذان الزوجان مجرمان، ويعرفان بالضبط ما كانا يفعلانه بابنتهما.

عندما غادرا الغرفة، أعادت ليب ترتيب السرير مرة أخرى، بوضع زوج المراتب، ثم وضع القطعة الصوفية تحت الملاءة السفلية. ثم قالت لها: «هيا، هوب هوب.. عودي إلى السرير الآن واسترخي قليلًا».

لكن كلمة (هوب.. هوب)، غير مناسبة تمامًا للطريقة التي كانت آنا تتسلل بها إلى السرير.

همست الفتاة، وهي تطرق السطح الإسفنجي للسرير. «إنها ناعمة»!

أوضحت لها ليب: «إنها لمنع تقرحات الفراش».

«كيف بدأت مرة أخرى يا سيدة ليب؟ جاءت الكلمات منها خافتة وضعيفة.

أمالت ليب رأسها متسائلة. فأوضحت الفتاة:

«عندما أصبحت أرملة. **(بدأتِ حياة جديدة تمامًا)،** كنت تقولين ذلك».

تأثرت بشدة؛ لأن الفتاة تستطيع الارتقاء فوق معاناتها الخاصة لتهتم بماضي ليب! قالت لها: «كانت هناك حرب ضروس في الشرق، وأردت مساعدة المرضى والجرحى».

«وهل استطعت ذلك؟»

كان الرجال يتقيؤون وتتسرب من أجسادهم السوائل، ويلطخون ما حولهم بالدماء.. وما إلى ذلك. ورجال ليب، الذين عهدت بهم الانسة «ن» إليها. بعضهم كانوا يموتون في حضنها، ولكن في كثير من الأحيان يموت البعض الاخر في أثناء اضطرارها للتواجد في غرفة أخرى، بينما تطعم الحساء لأحدهم أو تغير الضمادات لآخر.

قالت: «أعتقد أنني ساعدت بعضهم. إلى حد ما»!

لقد كانت ليب هناك، على الأقل حاولت. لكن تُرى، ما مدى أهمية ذلك؟

قالت معلمتي: «إن الحرب هي مملكة الجحيم، وواجبنا جذبها أقرب قليلًا نحو السماء».

أومأت آنا برأسها، كما لو كان هذا مفهومًا لها بدون قول أي شيء. راحت ليب تسجل ملاحظاتها:

الأربعاء، 17 أغسطس، 7:49 صباحًا، اليوم العاشر من المراقبة.

*** نبض القلب: 109 نبضة في الدقيقة.**

*** الرئتين: 22 تنفسًا في الدقيقة.**

*** غير قادرة على المشي.**

أخرجت الكتب مرة أخرى وراحت تفتش حتى حصلت على ما تحتاج إليه. كانت ليب تتوقع أن تسألها آنا عمّا كانت تفعله، لكن لا. الفتاة مستلقية في هدوء، عينيها تراقب حبيبات الغبار التي تتراقص في أشعة الضوء الصباحية.

أخيرًا، سألت ليب:

-هل ترغبين في لغز آخر؟

-أوه نعم!

لديّ جسمان

رغم أن كلاهما متحد في واحد.
كلما وقفت ثابتًا،
كلما جريت أسرع.

كررت آنا كأنها تهمس: «"كلما كنتُ أقفُ ثابتًا... لديّ جسمان»!

أومأت ليب بالرأس، انتظرت. ثم قالت: «أتستسلمين؟

«فقط لحظة»!

نظرت ليب إلى نحو الساعة في يدها الأخرى. سألتها: «لا إجابة؟

هزت آنا رأسها.

قالت ليب: «ساعة الرمل.. الوقت يتساقط كالرمل من خلال الزجاج، ولا شيء يمكن أن يبطئه».

نظرت الطفلة إلى ليب دون أن تتزعزع.

سحبت ليب مقعدها، واقتربت من السرير بشدة. حان وقت المعركة الآن. سألت الطفلة: «آنا. هل أقنعتِ نفسكِ بأن الله اختاركِ، من بين جميع الناس في العالم، بأن لا تأكلي؟

أخذت آنا نفسًا عميقًا لتتحدث. عاجلتها ليب قائلة: «اصغي إليّ من فضلكِ. هذه الكتب المقدسة التي لديك، مليئة بتعليمات ووصايا مخالفة لذلك».

فتحت ليب كتاب «روضة النفس» ووجدت السطر الذي وضعت عليه علامة. قالت: «انظر إلى طعامك وشرابك كأدوية، ضرورية لصحتك».

أو هنا، في المزامير. قلبت الصفحات حتى وصلت إلى الصفحة الصحيحة. **«مَلفوحٌ كالعشبِ ويابِسٌ قَلبِي، حتى سَهوْتُ عَنْ أكلِ خُبزِي»**. وماذا عن هذا: **«وأقولُ لِنفسِي: يَا نَفسُ لَكِ خيرَاتٌ كثيرَةٌ، مَوضوعةٌ لِسنينَ كثيرَةٍ. إستَرِيحِي وَكُلِي واشرَبِي**

وَالْمَرَجِي»! أو هذا السطر الذي أسمعك تقولينه طوال الوقت: **«خُبزَنا كَفافَنا أعطِنا اليَومَ؟**

همست أنا: «ليس خبز حقيقيًا».

قالت لها ليب: «الطفل الحقيقي يحتاج إلى خبز حقيقي. لقد أطعم يسوع الخبز والأسماك لخمسة آلاف شخص، أليس كذلك؟

ابتلعت آنا ريقها ببطء، كما لو كان هناك حجر في حلقها. قالت: «كان رحيمًا لأنهم كانوا ضعفاء».

«تقصدين، لأنهم كانوا بشرًا. لم يقل، تجاهلوا معدتكم واستمروا في الاستماع إليّ بينما أبشركم. إنما أعطاهم الطعام». ارتجف صوت ليب من الغضب. أردفت: «في العشاء الأخير، كسر الخبز وأعطى حوارييه، صحيح؟ ماذا قال لهم؟ ما هي الكلمات التي قالها بالضبط؟

قالت آنا بصوت خفيض جدًا: **«خذوا وكلوا».**

«ها هي»!

قالت آنا بسرعة: «ما أن باركه وقدّسه، لم يعد الخبز خبزًا فيما بعد، بل أصبح هو».

لامست ليب غلاف كتاب المزامير كما لو كان الكتاب شيئًا غير مهم. قالت: «مثل المنّ؟ تغذيت لشهور على المنّ من السماء؟

آنا! سحبت ليب الكتاب بعيدًا عنها بقوة، فسقط على الأرض وتناثر ما به بطاقات ثمينة.

أتت روزالين أودونيل مسرعة، تطل بوجهها وتنظر حول الباب. سألت: «ما هذا الضجيج؟

«لا شيء»!

قالت ليب ذلك وهي تجثو على ركبتيها، ضربات قلبها تتسارع وهي تلتقط البطاقات الصغيرة.

كان وقتًا رهيبًا!

ظلت ليب لا تنظر إلى أعلى. لم تستطع أن تواجه عين المرأة حتى لا تُظهر مشاعرها.

سألت روزالين ابنتها: «هل كل شيء على ما يرام، حبيبتي؟

«نعم، يا أمي».

لماذا لم تقل آنا أن المرأة الإنجليزية ألقت كتابها، وكانت تتنمَّر عليها لتكسر صومها؟ حينها، بالتأكيد، ستقدم عائلة أودونيل شكوى ضد ليب، ويتم إرسالها لبلادها.

لكن آنا لم تقُل شيئًا آخر، وانسحبت روزالين من الغرفة.

بمجرد أن أصبحتا وحدهما مرةً أخرى، نهضت ليب ووضعت الكتاب في حجر الطفلة، وكوَّمت البطاقات الصغيرة فوقه. قالت: «أنا آسفة لأنها خرجت من مكانها».

«أعرف أين أضعهم جميعًا.» أصابع آنا السميكة لا تزال ماهرة، استطاعت أن تُعيد كل واحدة إلى مكانها بالفعل!

ذكَّرت ليب نفسها، بأنها مستعدة تمامًا لخسارة هذه الوظيفة. ألم يتم فصل ويليام بيرن من العمل وهو في سن السادسة عشرة بسبب الحقائق التي قالها عن رعايا بلاده ومعاناتهم وقت المجاعة؟ ربما كان ذلك عاملًا في تشكيل شخصية الرجل. ليس فقدان الوظيفة نفسها بقدر تمكنه من مواصلة الطريق، هذا هو الذي جعله يدرك أنه من الممكن أن يفشل ثم يبدأ من جديد.

أخذت آنا نفسًا طويلًا، وسمعت ليب صوت خشخشة خافت جد. فهمت أنها السوائل في الرئتين. وهذا يعني أنه لم يتبقى الكثير من الوقت.

راحت الفتاة تهمس..

رأيتك حيث لم تكوني أبدًا.. وحيث لن تكوني أبدًا..

«هل تستمعين إليّ، من فضلك؟ كادت ليب أن تضيف (يا حبيبتي).. لكن هذه لغة الأم الحانية؛ يجب أن تتحدث ليب بوضوح وحسم، قالت للطفلة: «يجب أن تفهمي أن صحتك تتدهور».

هزت آنا رأسها للإنكار.

انحنت ليب وضغطت حيث كان البطن أكثر انتفاخًا. سألتها: «هل يؤلمكِ هنا؟

ظهر الألم على وجه الفتاة.

«أنا آسفة». رفعت غطاء الرأس عن آنا وقالت: «انظري إلى كمية الشعر الذي تفقدينه كل يوم».

همست الفتاة: **«حتّى شُعورُ رُؤوسِكُم جَميعُهَا مُحصَاةٌ».**

العلم هو أعظم قوة سحرية تعرفها ليب. هو الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يكسر السحر الذي يؤثر على هذه الفتاة.. قالت في أذنها: «الجسم مثل المحرِك»، حاولت أن تستدعي نبرة الآنسة «ن». الأكثر تأثيرًا. تابعت: «الهضم هو حرق الوقود. عندما يُمنع الجسم من الوقود، سيقوم الجسم بتدمير أنسجته الداخلية». جلست ووضعت يدها على بطن آنا مرة أخرى، هذه المرة برفق. ثم تابعت: «هذه هي القوة المحركة. الطعام الذي كان لديك عندما كنت في العاشرة من عمرك، الكمية التي كانت بداخلك تلك السنة.. لقد استخدمتها كلها في الأشهر الأربعة الماضية».

«فكري بما أكلته عندما كنت في التاسعة، وفي الثامنة. تخيليه وقد أصبح محترقًا وتحول إلى

رماد بالفعل. عندما كنت في السابعة، والسادسة، والخامسة. كل وجبة تعب والدك لتوفيرها على المائدة، كل لقمة طهتها والدتك، قد تم استهلاكها لتمد جسدك بالطاقة. آنا في عامها الرابع، والثالث، وقبل أن تنطق جملتها الأولى. وفي الثانية، وهي تتعثر في خطواتها الأولى، وفي عامها الأول، وبالعودة حتى أول يوم لها، أول قطرة من حليب أمها.. لكن المحرك لا يمكن أن يستمر طويلًا بدون وقود مناسب، هل تفهمين ذلك؟

الهدوء الذي كانت فيه آنا كان مثل طبقة من كريستال صلب لا يُكسر.

قالت ليب: «كل يوم تتلاشين عمّا قبل.. مثل الآلة، رويدًا رويدًا جميع أعضاءكِ ستتوقف، وتبدأ في التشنج».

«أنا لست آلة».

«عندما أقول أنكِ مثل آلة، لا أقصد إهانةً لخالقكِ، بل فكري فيه كأنه أكثر المهندسين براعة»!

رفضت آنا برأسها. قالت: «أنا ابنته».

وقفت روزالين أودونيل عند الباب، ذراعيها الطويلة مشدودة إلى الجانبين. قالت: «هل يمكنني التحدث إليك في المطبخ، يا سيدة رايت؟

تُرى ماذا سمعت المرأة؟ قالت ليب: «الوقت ليس مناسبًا».

«يجب عليك أن تأتي، يا سيدتي»!

قامت ليب وتنهدت تنهيدة قصيرة.

ستكون هذه مخالفة للقواعد بخصوص ترك آنا وحدها في الغرفة، ولكن ما الذي يهم الان؟

لا يمكنها أن تتخيل الطفلة وهي تنهض من السرير لتبحث عن بعض الفتات المخبأ. وصراحةً، إذا كان

ذلك سيحدث، فستكون ليب سعيدة. لتخدعني، لتغشني، طالما ستأكل!

أغلقت الباب خلفها حتى لا تسمع أنا أي كلمة.

كانت روزالين أودونيل تقف بمفردها، تنظر من أصغر نافذة بالمطبخ. استدارت وهي تحمل بيدها جريدة. قالت: «حصل جون فلين على هذا في مولينجار صباح اليوم».

هدأت ليب. إذنْ الموضوع ليس بخصوص الأشياء التي كانت تقولها للفتاة للتو.

طالعت ليب الورقة المطوية المفتوحة في صفحة داخلية. كان الشعار في الأعلى يوضح أنها جريدة التايمز الأيرلندية، وسرعان ما لفتت نظرها مقال بيرن الذي يُفيد بتدهور صحة آنا. **لقاء عابر وسريع مع الفتاة الصائمة نفسها...**

طالبتها روزالين بالرد: «كيف استطاع هذا المخادع أن يقابل طفلتي، هل لي أن أسأل؟

فكرت ليب في مقدار ما يجب الاعتراف به.

واصلت المرأة استجوابها: «ومن أين حصل على هذا الهراء حول خطورة حالتها؟ لقد سمعت كيتي تبكي وتنوح هذا الصباح لأنها سمعتكِ تقولين شيئًا للطبيب عن **فراش الموت**»!

قررت ليب البدء بالهجوم. سألتها: «وماذا تسمينه، يا سيدة أودونيل؟

«ما هذه الوقاحة»!

«هل نظرت إلى ابنتك مؤخرًا؟

«أوه، وهل أنت الشخص الذي سيعرف أفضل من الطبيب الخاص بالفتاة؟ أنت التي لم تستطع حتى تمييز إذا كان الطفل ميت أم حي»!

سخرت منها روزالين، وهي تشير إلى الصورة أعلى

المدفأة.

أصعق ليب هذا الكلام. قالت: «يتصور ماكبرارتي أن ابنتكِ تتحول إلى شيء شبيه بالسحلية. هذا هو العجوز الذي تثقين به لينقذ حياتها».

ضمت المرأة كف يديها بشدة، فتحولت يدها البيضاء إلى اللون الأحمر. قالت بغيظ شديد: «لو لم تكن اللجنة هي التي قامت بتعيّنكِ، لطردتك من بيتي في هذه اللحظة»!

«لماذا؟ حتى تموت آنا أسرع؟!

اندفعت روزالين أودونيل نحوها.

فُزعت ليب وانحرفت بعيدًا لتفادي اللكمة.

هتفت بها المرأة: «أنتِ لا تعرفين شيئًا عنا»!

«ما أعرفه أن آنا جائعة جدًا لدرجة أنها لا تستطيع النهوض من الفراش».

«إن كانت الطفلة... تعاني قليلًا، فهذا فقط بسبب الضغط العصبي من كونها تُراقب كالسجين».

حبست ليب أنفاسها، اقتربت من المرأة، وجسدها بأكمله كان متيبسًا. هتفت بها، «أي أم أنتِ حتى تسمحين بحدوث هذا؟

فعلت روزالين أودونيل شيئًا آخر لم تتوقعه ليب: انهارت في البكاء!

حدّقت بها.

صرخت المرأة، والدموع تنهمر على وجهها: «ألم أبذل قصارى جهدي؟ أليست هي من لحمي ودمي، أملي الأخير في الحياة؟ ألم أحضِرها إلى هذا العالم وربيتها بحنوٍ، وأطعمها طالما سمحت لي بذلك؟

ساد الصمت لحظة، نظرت إليها ليب، فكرت كيف حدث الأمر، ذلك اليوم في الربيع الماضي، عندما بلغت الفتاة الصغيرة للعائلة سن الحادية عشرة.. ثم،

بدون أي سبب واضح، رفضت أن تتناول أي وجبة أخرى. ربما مثل ذلك رعبًا مدمِّرًا لوالديها، مثلما فعل بهما المرض الذي أخذ ابنهما في الخريف السابق. ربما الطريقة الوحيدة التي استطاعت روزالين أودونيل أن تجد من خلالها معنى لهذه الكوارث، هي أن تقنع نفسها بأن ما حدث كان جزءًا من خطة الله.

بدأت ليب، في الحديث: «سيدة أودونيل، اسمحي لي أن أؤكد لك..»

لكن المرأة هربت، واندفعت إلى الزاوية الصغيرة خلف الستارة المصنوعة من أشولة الدقيق.

عادت ليب إلى غرفة النوم، ترتجف. وشعور التعاطف الذي انتابها حيال المرأة التي تكرهها، كان مربكًا لها.

أما آنا، فلم تُظهر أي علامة على سماعها للمشاجرة. كانت مستندة إلى الوسائد، مستغرقة في النظر إلى بطاقاتها الدينية.

حاولت ليب أن تستجمع نفسها، نظرت من فوق كتف آنا إلى صورة الفتاة التي تطفو فوق قارب على شكل صليب. قالت: «أتعلمين، البحر شيء مختلف تمامًا عن النهر»!

سألت الفتاة: «أكبر؟ لمست بإصبعها البطاقة كأنها تشعر بالبلل.

«أكبر بكثير، بلا حدود.. ففي حين يتدفق النهر في اتجاه واحد فقط، يبدو البحر كأنه يتنفس، داخلًا وخارجًا، داخلًا وخارجًا».

استنشقت آنا، الهواء لتملأ رئتيها.

نظرت ليب إلى ساعتها: الوقت كاد يحين. **(بعد الظهر)** هذا كل ما كتبته في الورقة التي تركتها

أسفل باب بيرن قبل الفجر.

لا تُحب ليب شكل السحب الرمادية الكئيبة، ولكن ليس هناك ما يمكن القيام به لتفادي ذلك. علاوةً على هذا، الطقس في أيرلندا يتغير كل ربع ساعة.

في تمام الساعة الثانية عشرة، ارتفع صوت تلاوة صلاة «بشارة الملائكة» في المطبخ. واعتمدت ليب على ذلك كمشتت لانتباه العائلة. سألت الطفلة: «ما رأيك في أن نذهب لنزهة صغيرة، يا آنا؟

كانت روزالين أودونيل والخادمة تجثوان على ركبتيهما، ترددان: «بشر الملاك العذراء مريم..»، بينما تُسرع ليب في إحضار كرسي المرضى المتهالك من خارج الكوخ. تتابع كلاهما الصلاة: «الآن وفي ساعة موتنا، آمين..».

دفعته من داخل المطبخ، فأحدثت العجلة الخلفية صوت صرير. كانت آنا في ذلك الوقت قد تمكنت من النهوض من الفراش وتجثو بجانبه، تتلو: «ليكن لي حسب قولك».

غطت ليب الكرسي ببطانية واحدة، ثم ساعدت الفتاة على الجلوس فيه وأضافت ثلاث أخرى، وثبتت قدميها المتورمتين. دفعت الكرسي بسرعة مرورًا بالسيدتين الفصليتين، وخرجت بها من الباب.

كان طقس الصيف قد بدأ يتغير بالفعل؛ بعض تلك الزهور الصفراء المتوهجة على سيقانها الطويلة، بدأت تتحول إلى اللون البرونزي. وكتلة كبيرة من الغيوم انتشرت في الأفق، تتدفق أشعة الشمس من خلالها. قالت آنا: «ها هي الشمس»، ثم أسندت رأسها إلى مسند الكرسي.

أسرعت ليب في الطريق، تدفع الكرسي عبر الحُفر وفوق الحجارة. ثم استدارت في المسار الممهد، وكان ويليام بيرن على بعد أمتار قليلة. لم يبتسم،

بل تساءل: «هل الفتاة فاقدة الوعي؟

فقط في هذه اللحظة رأت ليب أن آنا قد انزلقت للتو في الكرسي، واستلقت برأسها لجانب واحد. ربتت على خدها برفق فرمشت بجفنها. قالت له: «مجرد غفوة».

بيرن لم يكن لديه مواضيع للكلام اليوم. قال: «حسنًا، هل أحدث نقاشك معها أي تحسن؟

«كلامي كلا شيء بالنسبة لها»، أقرت بذلك وهي تحول الكرسي بعيدًا عن القرية، وتواصل دفع الفتاة للحفاظ عليها نائمة. أردفت: «هذا الصوم، هو صخرة آنا. مهمتها اليومية، دعوتها».

هز بيرن رأسه بجدية، وسأل: ‹إذا استمرت في الانهيار بهذه السرعة.. فما الذي سيحدث؟ ماذا ستفعلين؟

أصبحت عيون بيرن أغمق، تقريبًا بلون البحر الأزرق الداكن، وهو يقول: «هل تفكرين في.. في إطعامها بالقوة؟

حاولت ليب أن تتصوّر إجراء هذه العملية، حيث تقوم بتثبيت آنا، ثم تدخل أنبوبًا في حلقها، وتطعمها بالإكراه. رفعت عينيها نحوه، فتلاقت بنظرته الحارقة. حاولت أن تطمئنه، فقالت: «لا أعتقد أنني قادرة على فعل ذلك. الأمر ليس مجرد قضية حساسية زائدة».

«أنا أعرف كم سيكلفك هذا الأمر»!

فكرت ليب، بأن ذلك لم يكن السبب، أو على الأقل ليس كله. لم تستطع تفسير الأمر تمامًا.

ساروا معًا لدقيقة، ربما دقيقتين. لاحظت ليب فجأةً، أن الناس إذا رأوا ثلاثتهم، يمكن أن يخطئوا ويظنون بأنهم عائلة تتجول في الهواء الطلق.

بدأ بيرن يتحدث من جديد، بلهجة أكثر حيوية واهتمامًا، قال: «حسنًا، يبدو أن الكاهن ليس وراء هذه الخدعة على الإطلاق».

«السيد ثاديوس؟ كيف تتأكد من ذلك؟

«أوفلاهيرتي، معلم المدرسة، ذكر أنه ربما يكون ماكبرارتي هو الذي أقنع الجميع بتشكيل هذه اللجنة، لكن الكاهن هو الذي أصر على وضع حراسة رسمية حول الفتاة، من ممرضات ذوات خبرة».

فكرت ليب في ذلك. وجدت أن بيرن على حق؛ إذا كان الرجل متورطًا، فلماذا يطلب وضع آنا تحت المراقبة؟ ربما تسرعت في الحكم عليه، بسبب اندفاعها وراء شكوك بيرن تجاه السيد ثاديوس وبسبب حذرها من الكهنة.

أضاف بيرن: «كما اكتشفت المزيد عن هذه الإرسالية التي ذكرتها آنا.. في الربيع الماضي، انطلق المخلِّصون من بلجيكا..»

«المخلِّصون؟

«كهنة مبشرين. يرسِلهم البابا إلى أرجاء العالم المسيحي، مثل الصيادين، لضم المؤمنين واقتلاع أي فكر منافي للعقيدة السليمة من جذوره. يذكّرون الناس البسطاء بالشريعة الدينية مجددًا، ويعيدون مخافة الله في نفوسهم.. لثلاثة أسابيع، ثلاث مرات يوميًا، قام هؤلاء المبشرين بالوعظ لسكان المنطقة». أشار بإصبعه عبر المناطق المحيطة. ثم أردف: «وبحسب ما قالته ماجي رايان، كانت إحدى العظات قوية جدًا: تحدثت عن نار جهنم وكبريت يمطر من السماء.. كان الأطفال يصرخون، ووقفت طوابير طويلة للاعتراف بعد ذلك، لدرجة أن أحد الرجال ذهس في الزحام وتكسرت أضلاعه. في النهاية، اختتمت الإرسالية بـ «كوارانتور» ضخمة..»

«كوارانتور؟» سألت ليب، بعد أن شعرت بالضياع مرة أخرى.

«الصلاة المتواصلة طيلة أربعين ساعة، هذا معناها.. وهي نفس مدة وجود المسيح في القبر..» ثم قال بيرن: «ألا تعرفين شيئًا، يا وثنية؟!

جعلها ذلك تبتسم. ثم أردف: «لمدة أربعين ساعة، يتم عرض القربان المقدس في جميع الكنائس التي تبعد مسافة قريبة عن بعضها، كنيسة تسلِّم كنيسة، وجموع المؤمنين يتدفقون عبر الطرق ليسجدوا أمامه. ويصل الاحتفال الكبير لذروته في وقت تأكيد الإيمان لجميع الأولاد والبنات المؤهلين».

«بما في ذلك آنا»! هذا ما توقعته ليب.

«في اليوم الذي قبل عيد ميلادها الحادي عشر.»

التأكيد: لحظة القرار. نهاية حياة الطفولة كما وصفتها آنا. لقد وضعت القربان المقدس على لسانها، (جسد إلهها) في صورة قرص صغير من الخبز. ولكن كيف عقدت العزم على اتخاذ القرار الفظيع، بجعل هذه وجبتها الأخيرة؟ هل يمكن أن تكون قد ساءت فهم شيئًا مما قاله الكهنة الأجانب، وهم يثيرون حماسة الحشود؟

شعرت ليب بالغثيان لدرجة أنها اضطرت للتوقف لحظة، وانحنت على مقابض الكرسي. سألت: «ما الذي تحدثت عنه هذه العظة، حتى تتسبب في إثارة حماس الناس، هل تعلم؟

«أوه، الزنا، ماذا سواه؟!

جعلت الكلمة ليب تدير وجهها بعيدًا.

«هل هذا نسر؟ فاجأهما صوت الطفلة الخافت.

سأل بيرن: «أين؟

«هناك، فوق الطريق الأخضر».

«لا أعتقد.. ربما هو ملك الغربان».

قالت ليب، وهي تبحث عن موضوع آخر للحديث: «مشيت في هذا الطريق (الذي يسمونه) الأخضر ذاك اليوم.. طويل جدًا ومتداعي.. المشي عليه مضيعة للوقت».

قال بيرن: «هو اختراع إنجليزي»!

نظرت إليه من جانب عينيها. هل هذه واحدة من نكاته؟

«في شتاء عام 47، عندما غطت الثلوج أيرلندا لأول مرة في تاريخها. ولأنهم يعتبرون الصدقة (إفسادًا)»، قالها بسخرية، ثم أردف: «تم استدعاء الفقراء للانضمام إلى الأعمال العامة. في هذه الأنحاء، كان هذا العمل، كأنه بناء طريق لا بداية ولا نهاية له»!

عبست ليب بوجهها نحوه، إشارةً إلى الفتاة.

قال وهو ينحني لينظر إلى آنا: «أوه، أنا متأكد أنها سمعت جميع هذه القصص».

كانت الفتاة نائمة مرة أخرى، رأسها متراخٍ في زاوية الكرسي. طوت ليب البطانيات التي بدأت تنزلق منها حولها.

ثم تابع بيرن بصوت خفيض: «لذا، اختار الرجال انتزاع الحجارة من الأرض ووضعها في سلال مقابل أجرة رمزية.. بينما حملت النساء السلال ووضعن القطع معًا. أما الأطفال..»

احتجّت ليب على الحديث: «سيد بيرن»!

ذكّرها: «لقد أردت معرفة شيئًا عن الطريق»!

تساءلت ليب إذا كان يشعر بالاستياء منها، فقط لكونها إنجليزية؟ تُرى، إذا علم بحقيقة مشاعرها تجاهه، هل يكون رد فعلها هو الازدراء؟ أم الشفقة؟

الشفقة ستكون أسوأ.

«لكن سأقول لك باختصار. كل من تعرض للبرد أو الجوع أو الحمى ولم يستطع النهوض، ذفن على حافة الطريق، في جوف الأرض، على عمق بضع بوصات فقط».

تذكّرت ليب حذائها عندما غاص في الوحل، وهي تسير على الحافة الناعمة والمزهرة للطريق الأخضر. هذا المستنقع لا ينسى أبدًا؛ تذكرت كلامه سابقًا، **(يُبقي على الأشياء في حالة حفظ جيدة)**. توسلت قائلة: «لا مزيد من ذلك، من فضلك»!

أخيرًا، صمت رأفةً بها.

انتفضت آنا فجأةً، وأدارت رأسها ووجهها على مسند الكرسي البالي. سقطت نقطة مطر، ثم أخرى. أخرجت ليب بيديها المظلة السوداء من مفصلات الكرسي الصدئة، وساعدها بيرن في فتحها وتثبيتها فوق الطفلة النائمة قبل أن ينهمر المطر بلحظات.

***

لم تستطع ليب النوم في غرفتها في نزل رايان، ولم تتمكن من القراءة، ولم تستطع القيام بأي شيء سوى القلق. كانت تعرف أنها يجب أن تتناول وجبة العشاء، لكن لم يكن لديها شهية لذلك.

في منتصف الليل، كان ضوء المصباح يبدو خافتًا من فوق خزانة آنا، وتبدو الطفلة عبارة عن كتلة من الشعر الداكن على الوسادة، وجسدها لا يظهر أسفل البطانيات تقريبًا. طوال المساء، كانت تتحدث ليب مع الطفلة -بل تحاول إقناع الطفلة- حتى بحّ صوتها.

الان، جلست قرب السرير تفكر في اللجوء لاستخدام الأنبوب؛ مجرد أنبوب رفيع جدًا، مرن،

مدهون بالزيت، سمكه ليس أكبر من شعرة، يتخلل بين شفتي الفتاة برفق، وحتى يمكن استخدامه وأنا نائمة. تخيلت ليب تدفق الحليب الطازج ببطء عبر هذا الأنبوب إلى معدة الطفلة، لكن بكميات قليلة جدًا في كل مرة.

تساءلت، ماذا لو كان هوس أنا نتيجةً وبذات الوقت سببًا لصومها؟ لأنه كيف يمكن للشخص أن يكون تفكيره سليمًا طالما معدته فارغة؟ ربما تحدث المفارقة، وتعود الطفلة للشعور الطبيعي بالجوع، بمجرد دخول بعض الطعام في معدتها!

إذا قامت ليب بتغذيتها عبر الأنبوب، فسيكون ذلك تقويةً للفتاة، وإنقاذًا لها من الهلاك، ومنحها فرصةً لاستعادة وعيها. حينها، لن يرى الآخرون ذلك إطعامًا بالقوة، بقدر ما هو تحمل للمسؤولية؛ ستكون الممرضة رايت، هي الوحيدة من بين كل من حولها، التي تحلت بالشجاعة لتقوم بما هو ضروري لإنقاذ آنا أودونيل من نفسها.

اصطكت أسنان ليب بقوة لدرجة أنها أحست بها بألم.

ألا يقوم الكبار في بعض الأحيان بأشياء مؤلمة للأطفال من أجل مصلحتهم؟ أو الممرضات لأجل مصلحة المرضى؟ ألم تقم ليب نفسها بتنظيف الحروق وإزالة الشظايا من الجروح، لأجل إعادة المرضى إلى الحياة، ألا تفعل ذلك باستخدام طرق قاسية؟ هذا بالإضافة إلى المجانين والسجناء الذين يعيشون على التغذية القسرية عدة مرات في اليوم.

تخيلت آنا وهي تستيقظ، تبدأ في المقاومة، وتختنق، وتتقيأ، عيونها مغرورقة بالدمع من شعورها بالغدر.

بينما تمسك ليب أنف الفتاة الصغيرة، وتضغط

رأسها على الوسادة. تقول لها، **ابقِ هادئة، يا عزيزتي. دعيني أفعل ذلك. يجب عليكِ**.. ثم تدفع الأنبوب بلا هوادة..

«لااااااا»! كان الصوت مدويًا في رأسها، اعتقدت للحظة أنها صرخت به في الحقيقة!

لن تنجح هذه الطريقة. هذا ما كان يجب أن تخبر به بيرن بعد ظهر اليوم. من الناحية الفسيولوجية، نعم، يُفترض أن الطعام القسري الذي قد تدفعه في حلق آنا سيوفر لها الطاقة، لكنه لن يحافظ على حياتها. هذه الطريقة، ستعجّل من انسحابها من العالم، وتكسر روحها.

عدّت ليب أنفاس الطفلة لمدة دقيقة كاملة على ساعتها.

كانت خمسة وعشرون، كثيرة جدًا، وسريعة بشكل خطير. ولكن لا تزال منتظمة بشكل تام. وبالرغم من الشعر الهش والبقع الداكنة والجروح في زاوية الفم، لا تزال آنا جميلة مثل أي طفل نائم.

«**لعدة أشهر تغذيت على المنّ من السماء**». هذا ما قالته هذا الصباح. و«**أعيش على المنّ من السماء**»، هكذا قالت لزوارها الروحيين الأسبوع الماضي. لكن اليوم، لاحظت ليب، أنها ربما أساءت فهم هذه العبارة، هل تقول الفتاة: «**لعدة أشهر تغذيت على المنّ من السماء؟**

ربما ليس لعدة أشهر. بل فقط أربعة أشهر، هل هي كذلك؟! «**أربعة أشهر تغذيت على المنّ من السماء**». هل بدأت آنا صيامها قبل أربعة أشهر، في شهر إبريل، واستمرت في العيش على المنّ -أي كان الوسيلة السرية للتغذية التي كانت تقصدها- حتى وصول الممرضات!

لكن هذا لا يبدو منطقيًا، لأن تأثيرات الصوم

يجب أن تظهر بعد يومين فقط. ولم تلاحظ ليب أي تدهور من هذا القبيل حتى قام بيرن بتنبيهها إليه يوم الاثنين، من الأسبوع الثاني. هل يمكن حقًا أن يستمر طفل في الصيام دون أي أعراض قبل سبعة أيام؟

راجعت ليب دفتر الملاحظات الخاص بها الآن، كان عبارة عن سلسلة من الملاحظات المختصرة، التي تشبه برقيات الحرب من جبهة القتال البعيدة. كل يوم في خلال الأسبوع الأول تقريبًا نفس الشيء حتى.. حتى أتت لملاحظة:

رفض تحية الأم.

ظلت تحدق في الكلمات البسيطة. صباح السبت، بعد ستة أيام من بداية المراقبة. لم تكن هذه ملاحظة طبية على الإطلاق؛ فقط سجلتها ليب ببساطة؛ لأنها كانت تغييرًا غير مفسر في سلوك الطفلة!

كيف كانت مغفلة إلى هذه الدرجة؟!

لم يكن الأمر مجرد تحية مرتين في اليوم، بل كان عناقًا تحيط فيه السيدة الكبيرة ذات الحجم الضخم، جسم الفتاة حتى تخفي وجهها عن الرؤية. كانت القبلة تشبه قبلة الطائر الكبير الذي يغذي فراخه الصغار!

ضربت ليب بقوانين الآنسة «ن» عرض الحائط. وهزت الطفلة حتى إيقظتها.

فتحت آنا عينيها، وأبعدتها في الحال عن ضوء المصباح الساطع. همست ليب بأذنها: «عندما كنت تتغذين على المنّ، من الذي... فكرت ليب: «ليس من الذي منحه لك»، لأنها ستقول: «**إن المنّ يأتي من الله**» بدلًا من ذلك سألتها: «من الذي جلبه إليك؟

كانت تتوقع المقاومة، أو الإنكار. أو تلفيق بعض القصص الملتوية حول الملائكة.

تمتمت آنا قائلة: «أمي».

هل كانت الفتاة دائمًا على استعداد للإجابة بصدق في اللحظة التي يطلب منها فيها الجواب! لو كانت ليب أقل استهتارًا بالأساطير الدينية، ربما ستولي انتباهها إلى ما كانت الطفلة تحاول أن تخبرها به.

تذكرت الطريقة التي كانت تستخدمها روزالين أودونيل لتقبيل الابنة صباحًا ومساءً، تأتي مبتسمة ولكن بصمت غريب. كانت دائمًا تثرثر في الأوقات الأخرى، ولكن ليس عندما تأتي لتعانق ابنتها. نعم، كانت روزالين دائمًا تحافظ على فمها مغلقًا بإحكام حتى تنحني لتحيط بجسدها بأكمله جسم آنا.

اقتربت نحو الأذن الصغيرة. سألتها: «هل كانت تنقله من فمها إلى فمك؟

«بقبلة مقدسة»، قالتها الطفلة، بإيماءة موافقة دون أي علامة على الخجل!

جرى الدم في عروق ليب. كانت الأم تمضغ الطعام وتحوله إلى عجينة في المطبخ، ثم تضعه في فم آنا أمام الممرضات، مستهزئة بهما، مرتين في اليوم! سألت الفتاة: «كيف يبدو طعم المنّ؟ هل هو مثل الحليب، أو مثل العصيدة؟

«مثل طعام السماء»، قالتها، كأن الجواب واضحًا.

«هل قالت لك إنه من السماء؟

بدت آنا مرتبكة بسبب سؤال ليب: «كيف يبدو طعم المن؟

«هل يعلم أي شخص آخر بالأمر؟ كيتي؟ أو والدك؟

«لا أعتقد ذلك. لم أتحدث عنه أبدًا».

«لماذا؟» سألتها ليب: «هل منعتك أمك؟ هددتك؟

«إنه أمر خاص».

تبادل سري، مقدس للغاية لدرجة أنه لا يمكن وصفه بالكلمات. نعم، يمكن أن تتخيل ليب امرأة ذات شخصية قوية، تقنع فتاتها الصغيرة بهذا. خاصة فتاة مثل آنا، نشأت وكبرت في عالم من الأسرار، والصغار يضعون ثقتهم في الكبار الذين يتولون رعايتهم.

هل بدأت التغذية في عيد ميلاد آنا الحادي عشر؟ أو تطور الأمر تدريجيًا قبل ذلك بكثير؟ هل كانت هناك خدعة، حيث قرأت الأم للابنة قصة المنّ من الكتاب المقدس وفسرتها لها تفسيرًا مضللًا؟ أم أن كلا الطرفين ساهما في ابتكار هذه اللعبة المميتة دون أن يتحدثا؟ خاصةً وأن، الفتاة أكثر ذكاءً واهتمامًا بالقراءة من والدتها. جميع العائلات لديها أمورها الخاصة التي لا يمكن أن يعرفها الغرباء!

«أخبريني لماذا؟ ألحّت ليب: «أنت صديقتي».

رفعت الفتاة ذقنها بطريقة كسرت قلب ليب. «أنتِ لم تعودي تتناولين المنّ، أليس كذلك؟ منذ السبت؟

«لا أحتاج إليه بعد الآن».

تذكرت ليب بكاء روزالين وهي تقول: **«ألم أكن أطعمها بقدر ما سمحت لي»!** لقد رأت حزن المرأة وندمها ولم تفهم. كانت الأم تريد أن ترفع آنا وتضعها في مقصورة لتضيء كمصباح للعالم. كان لديها كل نية للحفاظ على ابنتها على قيد الحياة بشكل دائم، من خلال استخدام هذه التغذية السرية. لكن آنا هي من وضع حدًا لذلك، بعد أسبوع واحد من بداية المراقبة.

هل لدى الطفلة أي فكرة عن عواقب ذلك؟ هل فهمت ذلك الان؟

تحدثت ليب بقسوة متعمدة: «الشيء الذي كانت تضعه والدتك عندما تبصق في فمك.. كان طعامًا من المطبخ. هذه الكميات القليلة من طعام مهروس، هي التي حافظت على حياتك طوال هذه الأشهر». توقفت لبعض الوقت لترى ردة الفعل، لكن عيون الطفلة كانت شاردة.

أمسكت ليب بمعصميها السمينين. قالت بحدة: «والدتكِ تكذب، ألا تفهمين ذلك؟ أنت بحاجة إلى الطعام مثل الآخرين.. ليس هناك شيء خاص بك». كانت الكلمات تخرج بشكل خاطئ تمامًا، وكوابل من الانتقادات. تابعت: «إذا لم تأكلي يا صغيرة، ستموتين».

أطالت آنا نظرتها إليها، ثم أومأت وابتسمت.

الفصل الخامس

التحول

تغيير، تعديل

فترة من العمل

وسيلة، لوضع نهاية

تحرُّك، بداية

جاء يوم الخميس حارًا، وكانت سماء أغسطس زرقاء صافية. عندما دخل ويليام بيرن إلى غرفة الطعام وقت الظهيرة، وجد ليب بمفردها، تحدّق وهي شاردة في طبق الحساء. رفعت نظرها نحوه وحاولت أن تبتسم له.

جلس أمامها، وركبتاه تلامس تنورتها. سألها: «كيف حال آنا؟

لم تستطع الإجابة.

أومأ «ويليام» إلى الطبق الذي أمامها، وقال: «إذا كنتِ لا تنامين، عليكِ الحفاظ على قوتكِ».

أحدثت الملعقة صوتًا عندما رفعتها ليب. وبعد أن قربتها إلى شفتيها، أعادتها مرة أخرى وأحدثت طرطشة.

انحنى بيرن فوق الطاولة. قال: «أخبريني».

أبعدت ليب الصحن، وهي تراقب الباب لتتأكد من عدم وجود ابنة ريان، حدثته عن الطعام السماوي الذي يستخدم لتغذية الفتاة تحت غطاء العناق.

صاح متعجبًا: «يا إلهي! يا لجرأة المرأة!

قالت ليب: «هي امرأة سيئة بما يكفي، لتحاول أن تريح نفسها من الشعور بالذنب، بأن تجعل طفلتها تعيش على كميات قليلة جدًا من الطعام في خلال اليوم»! ثم أردفت: «لكن لمدة خمسة أيام حتى الان،

رفضت آنا تناول (المنّ)، ووالدتها لم تستطع أن تقول كلمة».

«أظن أنها لو تحدثت، لن تعرف كيف تنفي التهمة عن نفسها».

أصاب ليب شعور بالقلق. قالت: «لا يمكنك نشر أي شيء من هذا، ليس الآن».

«لِم لا؟

كيف يمكن لبيرن أن يطلب ذلك؟ هاجمته قائلة: «أنا على علم بأن طبيعة مهنتك هي نشر كل شيء.. ولكن ما يهم الآن، هو إنقاذ الفتاة».

«أعلم ذلك. ولكن ماذا عن مهنتك؟ وبالنسبة لكل الوقت الذي قضيته مع آنا، إلى أي نتيجة وصلتِ؟

وضعت ليب وجهها بين يديها.

جذب بيرن أصابع يدها.. قال: «أعتذر.. تحدثت هكذا بسبب الإحباط»!

«أنت مُحق تمامًا».

«ما زلت أرجو منكِ أن تغفري لي»!

سحبت ليب يدها من يده، لكن لا تزال لمسته تلهب مشاعرها.

قال: «ثقي بي، يجب أن نفضح هذا الخداع لكل العالم، من أجل مصلحة آنا».

«لكن الفضيحة العلنية لن تفيدها في شيء، لن تجعلها تأكل»!

«كيف يمكنك أن تكوني متأكدة من ذلك؟

«أنا تتصرف بمفردها تمامًا في هذا الآن.» تلعثمت وهي تقول: «تبدو وكأنها ترحب بفكرة الموت».

أبعد بيرن خصلات شعره عن وجهه وسأل: «ولكن لماذا؟

«ربما لأن عقيدتكم ملأت رأسها بأفكار مريضة».

«أو ربما لأنها اعتبرت هذه الأفكار المريضة دينًا حقيقيًا»!

اعترفت ليب قائلة: «لا أعرف لماذا تفعل هذا.. لكن لا بد وأن يكون هناك شيء يتعلق بفقدانها لشقيقها».

عبس وجهه متحيرًا. سأل: «هل أخبرت الراهبة عن موضوع المنّ، أم ليس بعد؟

«لم يكن هناك فرصة هذا الصباح».

«ماذا عن ماكبرارتي؟»

«لم أخبر أحدًا سواك»!

نظر إليها بيرن بطريقة جعلتها تتمنى لو لم تنطق بذلك. قال: «حسنًا. أعتقد، يجب عليكِ مشاركة اكتشافكِ لهذا الأمر مع اللجنة بأكملها الليلة».

«الليلة»! رددتها وراءه وهي مرتبكة.

«ألم يُطلب منكِ الحضور أنتِ والراهبة؟ أشار برأسه نحو الحائط المتقشر، وهو يقول: «في العاشرة مساءً، سيجتمع أعضاء اللجنة في الغرفة الخلفية هنا.. بناءً على طلب الطبيب».

ربما استوعب ماكبرارتي أخيرًا ما قالته ليب يوم أمس. لكنها قالت بسخرية: «لا، نحن فقط ممرضات، لماذا يطلبون الاستماع إلينا؟ وضعت ذقنها على يديها المتشابكتين، وقالت: «ربما إذا ذهبت إليه الآن وأخبرته عن اكتشاف خدعة المنّ».

هز بيرن رأسه رافضًا. قال: «من الأفضل أن تذهبي إلى الاجتماع، وتعلني للجنة بأكملها أنك نجحت في المهمة التي استدعوك لأجلها».

النجاح؟ شعرت ليب وكأنه فشل ميؤوس من علاجه. سألت: «ولكن كيف سيساعد ذلك أنا؟

قال وهو يحرك يديه: «بمجرد انتهاء المراقبة، سيكون لديها المكان الخاص والوقت الكافي لتكون بعيدة عن أعين الناس. وسوف يتيح لها ذلك فرصة لتغيير رأيها».

قالت ليب. «هي لا تحافظ على صومها لإبهار قراء صحيفة التايمز الأيرلندية.. إنه أمر بينها وبين إلهك البشع»!

«لا تلومين الله على حماقات المؤمنين به، هو لا يريد منا سوى أن نحافظ على حياتنا».

حدّق كلٌ منهما في عين الآخر.

ثم ابتسم بيرن. قال: «أتعلمين، لم أقابل قط، امرأة - أو شخص - بهذا الكفر مثلك»!

وبينما كان ينظر إليها، شعرت برغبة تشتعل ببطء في جسدها.

***

كانت ليب تسير والشمس تضرب عينيها، وزي التمريض يلتصق بجانبي جسمها. عندما وصلت إلى الكوخ، كانت قد قررت الذهاب إلى اجتماع اللجنة هذه الليلة، سواء ظلب منها ذلك أم لا.

ما أن دلفت من الباب، ساد الصمت. حيث كانت روزالين أودونيل والخادمة تقومان بنتف ريش دجاجة نحيلة على المنضدة الطويلة. هل كانتا تعملان في هدوء وهما تشعران بتوتر، أم كانتا تتحدثان -ربما عن الممرضة الإنجليزية- حتى سمعتا صوت دخولها؟

قالت ليب. «يوم سعيد».

قالت كلتاهما، وأعينهما على الدجاجة: «يوم سعيد».

نظرت ليب إلى ظهر روزالين أودونيل الطويل

وقالت في نفسها:

لقد كشفتك، نهايتك قد أتت. تلذذت ليب بهذا الشعور، وهي ترى أنها تمتلك السلاح الوحيد، الذي يمكن أن يهدم مؤامرة المرأة الشريرة.

ولكن ليس الآن. فإذا طردتها روزالين من المنزل، لن يكون هناك عودة من تلك النقطة؛ ولن يكون لدى ليب المزيد من الفرص لمحاولة تغيير رأي آنا.

في غرفة النوم، كانت الطفلة منكمشة بجسدها، تنام في مواجهة النافذة، وضلوعها ترتفع وتنخفض. فمها المتشقق يبتلع الهواء. ولا يوجد شيء على الإطلاق في وعاء الفضلات.

قابلت الراهبة ليب بوجه متجهم. همست وهي تجمع عباءتها وحقيبتها: «صارت أسوأ».

وضعت ليب يدها على كتف الراهبة لتمنعها من المغادرة. همست في أذنها، وقالت: «اعترفت آنا».

«للكاهن؟

«اعترفت لي أنا.. حتى السبت الماضي، كانت والدتها تطعمها بالطعام الذي تمضغه - في أثناء تقبيلها-، وتقنع الفتاة بأنه (مَنٌ) مِن السماء».

ساد الوجوم على وجه الأخت مايكل، ورسمت علامة الصليب على نفسها.

تابعت ليب: «ستجتمع اللجنة في نزل ريان في العاشرة مساءً.. يجب أن نتحدث إليهم».

«هل طلب الدكتور ماكبرارتي ذلك؟

فكرت ليب في أن تكذب عليها. لكن بدلًا من ذلك، قالت: «لا، يجب أن نقدم تقريرنا لبقية اللجنة؛ الرجل مهووس، ويعتقد أن آنا تتحول إلى نوع من الزواحف»!

«سننتظر حتى يوم الأحد، حسب التعليمات».

«ثلاثة أيام أخرى تعتبر فترة طويلة جدًا! ربما لا تعيش آنا حتى ذلك الوقت»، ثم همست في أذنها: «وأنت تعلمين ذلك»!

أدارت الراهبة وجهها، وأغمضت عينيها الكبيرتان، لتعبر عن رفضها.

«إذن، سأتحدث أنا، ولكن عليك أن تقفي معي».

قالت بتردد: «مكاني هنا».

قالت ليب: «بالتأكيد يمكنك العثور على شخص آخر لمراقبة آنا لمدة ساعة، يمكن أن تطلبي من فتاة ريان حتى».

هزت الراهبة رأسها.

«بدلًا من التجسس على آنا، يجب علينا جميعًا أن نبذل كل ما في وسعنا لحثها على تناول الطعام. لتعيش».

استمر رأس الراهبة المغطّى في الاهتزاز كالجرس، وهي تقول: «هذه ليست التعليمات. هذا كله محزن بشكل فظيع، ولكن..»

«محزن»! ارتفع صوت ليب بشدة، قالت ساخرة: «هل هذه هي الكلمة المناسبة؟!

تكمّد وجه الراهبة.

همست ليب بغضب: «الممرضة الماهرة تعرف كيف تلتزم بالقواعد، ولكن الأفضل أن تعرف متى يجب كسرها».

فزّت الراهبة من الغرفة.

أخذت ليب نفسًا طويلًا متقطعًا وجلست بجوار آنا.

عندما استيقظت الطفلة، كانت ضربات قلبها مثل أوتار الكمان، يهتز تحت الجلد. راحت ليب تسجل ملاحظاتها، ويدها تكتب بطريقة أوتوماتيكية كما

اعتادت:

الخميس، 18 أغسطس، الساعة 1:03 مساءً.

*** نبض القلب عند 129، ضعيف.**

*** صعوبة في التنفس.**

نادت كيتي وطلبت منها جمع كل الوسائد التي في المنزل.

حذقت بها كيتي، ثم هرعت لتحضر المطلوب.

قامت ليب بترتيب الوسائد خلف ظهر آنا، حتى يمكن للفتاة أن تستلقي بشكل مستقيم، وتخفف قليلًا من صعوبة التنفس لديها.

تمتمت آنا: **«يَا رَافِعِي مِنْ أَبْوَابِ الْمَوْتِ»**، ثم أغمضت عيناها وهي تهمس **«نَجِّنِي مِنْ يَدِ أَعْدَائِي»**.

كم ستكون ليب سعيدة حقًا لو استطاعت أن تفعل ذلك! لو عرفت كيف تنجّي آنا، تحررها من قيودها. قدمت لها ملعقة ماء وسألتها: «هل ترغبين في المزيد من الماء؟

رمشت جفون آنا ولكنها لم تفتحها؛ هزت رأسها. وقالت «لتكن مشيئتك»!

قالت لها ليب: «قد لا تشعرين بالعطش، ولكنك بحاجة إلى شرب الماء على أي حال»

كانت شفتاها تلتصقان ببعضهما، وهي تحاول أن تفتحهما لإدخال ملعقة من الماء.

ربما من الأسهل التحدث بصراحة في الهواء الطلق. سألتها: «هل تودين الخروج في الكرسي مرة أخرى؟ الطقس جميل هذا العصر».

«لا، شكرًا لك، يا سيدة ليب».

سجلت ليب هذا أيضًا:

***ضعف شديد لدرجة عدم احتمال دفعها وهي في**

الكرسي.

منذ ذلك الوقت، لم تغد أهمية دفتر الملاحظات تقتصر على تذكيرها بالمعلومات فقط، بل تحول لدليل على الجريمة.

كانت آنا تهذي: «هذا القارب كافٍ بالنسبة لي».

هل هذا تشبيهًا طفوليًا للسرير، الذي ورثته عن أخيها الوحيد؟ أم أن عقلها تأثر بالصوم؟ سجلت ليب: **«هذيان طفيف»**. ثم فكرت أنها ربما سمعت كلمة **«قارب»** بدلًا من **«سرير»**.

تحدثت إليها، وهي تأخذ إحدى يديها المنتفخة بين يديها. كانت باردة مثل دمية خزفية. قالت: «آنا.. هل تعرفين بالخطيئة المسماة الانتحار؟

فتحت عيونها البنية، وهي تنظر بعيدًا عنها.

أسرعت ليب تقول: «دعيني أقرأ لك شيئًا من **«فحص الضمير»**. ثم أمسكت بكتاب **«صلوات القداس»** ووجدت الصفحة التي كانت قد وضعت عليها علامة في اليوم السابق. **«هل فعلت شيئًا لتقصير عمرك، أو لتعجّل بموتك؟ هل اشتهيت موت نفسك، بشهواتك أو عدم صبرك؟** هزت آنا رأسها. وهمست: «سوف أطير وأكون في راحة».

«هل أنت متأكدة من ذلك؟ ألا يذهب المنتحرون إلى الجحيم؟ أجبرت ليب نفسها على الاستمرار في محاولة الإقناع. قالت: «لن تدفني مع بات حتى، بل خارج أسوار ساحة الكنيسة».

حولت آنا خدها إلى الوسادة، كطفل صغير شعر بألم في أذنه.

فكرت ليب في أول لغز قالته للفتاة: **لا أكون ولا يمكن أن أرى**. اقتربت منها أكثر وهمست: «لماذا تحاولين الموت؟

بدلًا من الإنكار، قالت أنا: «أهب نفسي». ثم بدأت تتمتم صلاة دوروثي مرة أخرى، مرارًا وتكرارًا: **«أحبك أيها الصليب يا أثمن ما لديّ، الذي تزين بجسد يسوع مخلصي، وتلوّن بدمه الثمين. أعبدك يا إلهي، يا مَنْ رُفِعت على الصليب حبًا لي».**

مع آخر شعاع من ضوء النهار، ساعدت» ليب» الطفلة في الجلوس على الكرسي؛ حتى تستطيع تهوية الفراش وترتيبه من جديد. جلست آنا وركبتيها تحت ذقنها. ثم استخدمت إناء الفضلات، ولكن لم تُخرج سوى نقطة بول داكنة. عادت إلى السرير، وهي تسير كامرأة عجوز، العجوز التي لن تكبر لتكون عليها أبدًا!

ظلت ليب تجوب الغرفة، بينما تغفو الطفلة. لم يعد هناك شيء آخر يمكن القيام به، سوى طلب المزيد من الطوب الساخن، لأن كل حرارة الجو في أثناء النهار لم تتمكن من وقف رعشة آنا.

تحولت عيون الخادمة للون القرمزي، بعدما قضت ربع ساعة أمام النار، لتحضر أربع قطع من الطوب -لا تزال ساخنة جدًا- وحشرتها تحت بطانيات آنا. أما الطفلة، فقد غابت في سبات عميق الآن.

كيتي! نادت ليب الفتاة قبل أن تعلم ماذا ستقول لها. كان نبضها يتسارع. فإذا كانت مخطئة في تقديرها - وكانت الخادمة مثل السيدة أودونيل، متورطة في المؤامرة معها - فإن محاولة المواجهة ستؤدي إلى المزيد من الضرر وليس النفع. إذنْ كيف تبدأ؟ ليس باتهام، أو حتى طلب معلومات. بل **الشفقة**، هذا ما تحتاج ليب إلى إيقاظه في قلب الشابة. قالت لها: «ابنة عمك تحتضر».

أجهشت كيتي في البكاء على الفور.

أردفت ليب: «كل أبناء الله بحاجة إلى الطعام».

أخفضت صوتها أكثر، وتابعت «حتى أيام قليلة، ظلت أنا على قيد الحياة عن طريق خدعة شريرة، جريمة احتيال لخداع العالم بأسره». ندمت ليب على كلمة «جريمة»؛ لأن الخوف بدأ يشتعل في عيون الخادمة الآن. سألتها بسرعة: «هل تعرفين ما سأخبرك به؟

سألت كيتي، بنظرة أرنب مرتعب أمام ثعلب: «كيف يمكنني أن أعرف ذلك؟

«سيدتكِ.. عمتكِ؟ احتارت ليب ماذا تدعوها! تابعت وقالت: «قريبتكِ؟ أو السيدة أودونيل، أيًا كانت، ظلت تُطعم الطفلة من فمها، بينما تتظاهر بتقبيلها، أفهمتِ؟

فكرت سريعًا أن كيتي قد تلوم الفتاة. أردفت: «آنا في براءتها، اعتقدت أنها تأخذ المنّ من السماء»

ضاقت عيون الفتاة الواسعة فجأة. وشهقت متعجبة.

انحنت ليب نحوها وسألت: «ماذا تقولين الآن؟

لا إجابة.

«لا بد أنكِ صدمتِ، أعلم ذلك..»

«أنتِ»! لا يوجد أي شك في الكلمة التي سمعتها ليب هذه المرة، أو في الغضب الذي يشوب وجه الخادمة. قالت: «أخبرتكِ بهذا لكي تساعدينني في إنقاذ حياة ابنة عمكِ الصغيرة».

أمسكت الخادمة بيديها الخشنة القاسية، وجه ليب وأغلقت فمها بقوة. قالت بغضب: «أغلقي فمك الكاذب».

ترنحت ليب وتراجعت إلى الخلف.

«جئت إلى هذا المنزل كالطاعون، تنشرين سمومك. لا تعرفين الله وليس لك قلب، ألا تخجلين

من نفسك»!

تقلّبت الطفلة في السرير، كما لو أن الأصوات أزعجتها، فتجمّدت كلاهما في مكانها.

أرخت كيتي ذراعيها وأنزلتهما عن ليب. تقدمت خطوتين نحو السرير وانحنت، ثم قبّلت جبين آنا بقبلات حانية. عندما انتصبت، كان وجهها ملطخًا بالدموع.

خرجت ودفعت الباب وراءها بشدة.

وقفت ليب بثبات شديد. تقول لنفسها: **(لقد حاولتِ يا ليب)**

هذه المرة لم تستطع أن تدرك ما الخطأ الذي فعلته. ربما لم تدرك أنه المؤكد أن تنضم كيتي المعمية إلى صف العائلة! فهم في النهاية، كل ما لديها في هذا العالم. هم بالنسبة لها العائلة، والمنزل، والقوت.

على أي حال، **أن تحاول أفضل من أن لا تفعل شيئًا.** ربما يريح هذا ضمير ليب، لكن بالنسبة للفتاة التي تحتضر بسبب الجوع، لا يحدث أي فرق.

ألقت بالزهور الزابلة، ووضعت كتاب (صلوات القداس) في الصندوق.

ثم بعد لحظات، أخرجته وتصفحته مرة أخرى. من بين جميع الصيغ الصلوات الموجودة، كانت تبحث عن صلاة دوروثي فقط! تُرى لماذا كانت آنا ترددها ثلاث وثلاثين مرة في اليوم؟

ها هي.. صلاة يوم الجمعة العظيمة(19) للأرواح المقدسة، كما أوحيت إلى القديسة بريدجيت. النص لم يخبر ليب بشيء جديد: **«أحبك أيها الصليب يا أثمن ما لديّ، الذي تزين بجسد يسوع مخلصي، وتلوّن بدمه الثمين. أعبدك يا إلهي، يا مَن رُفِعت**

على الصليب حبًا لي».

حدقت في الكلمات الصغيرة المكتوبة أدنى الصلاة. **(إن قلتها ثلاث وثلاثون مرة صائمًا في يوم الجمعة، تُعتق ثلاثة أرواح من عذاب المطهر، ولكن إذا فعلت ذلك في يوم الجمعة العظيمة يكون الحصاد ثلاثة وثلاثون روحًا)**. آها.. مكافأة عيد الفصح، تتضاعف بـ إحدى عشر مرة. كادت ليب أن تغلق الكتاب عندما انتبهت أخيرًا لكلمة واحدة: **صائمًا**.

«إن قلتها ثلاث وثلاثون مرة **صائمًا**».

انحنت ولمست خدها، وهمست، آنا!

حدّقت الطفلة في ليب.

«**صلاتكِ، أحبك، أيها الصليب الثمين.** هل هذا هو السبب في أنك لا تأكلين؟

كانت ابتسامة آنا أغرب شيء رأته ليب، فتاة مبتسمة على فراش الموت. فكرت ليب، في لحظة النهاية، ليس هناك رضا أو سرور في لحظة الموت، فقط حزن ثقيل.

سألتها آنا: «هل أخبركِ؟

«من؟

أشارت الطفلة إلى السقف.

قالت ليب: «لا.. لقد خمنت ذلك».

قالت الفتاة: «عندما نحاول التفكير، يخبرنا الله بكل شيء».

«أنت تحاولين إدخال أخيك إلى الفردوس».

أومأت آنا بثقة طفولية: «إذا قلت الصلاة، صائمة، ثلاث وثلاثون مرة في كل يوم..»

بكت ليب وهي تقول: «آنا إذا قلتها وأنت صائمة.. أنا متأكدة أن هذا يعني، تخطي وجبة واحدة فقط

في يوم جمعة واحد لإنقاذ ثلاثة أرواح، أو ثلاث وثلاثين إذا كان في يوم الجمعة العظيمة».

لم تستوعب، لماذا كانت تعطي هذه الأرقام السخيفة مصداقية بتكرارها، كأنها تؤكد شيئًا من دفتر الأمور المحاسبية؟

تابعت ليب: «الكتاب لم يقل أبدًا أن يتوقف الشخص عن تناول الطعام تمامًا».

لمعت عينا آنا، قالت: «النفوس تحتاج إلى الكثير من التطهير.. لكن لا شيء مستحيل على الله، لذلك لن أستسلم، سأستمر في قول الصلاة وألحّ في طِلبتي إلى أن يأخذ بات إلى السماء».

«ولكن صيامك..»

«هذا للتكفير». بذلت آنا جهدًا لتتنفس.

«لم أسمع من قبل عن صفقة سخيفة وفظيعة مثل هذه»!

قالت آنا بانتقاد: «أبونا السماوي لا يعقد صفقات.. لم يعدني بشيء. ولكن ربما يرحم بات ويرحمني أنا أيضًا، ثم يمكن أن نكون معًا. أخت وأخ مرة أخرى».

كان هناك نوع من المنطق في هذا الحلم الذي يبدو مفهومًا لطفلة تبلغ من العمر أحد عشر عامًا.

حثتها ليب قائلة: «عيشي أولًا، وسينتظر بات».

كانت وجنتي آنا لا تزال جافة كالطباشير، قالت وهي تبكي بتشنج: «لقد انتظر تسعة أشهر وهو يحترق».

تساءلت ليب، هل تبقّى للطفلة ما يكفي من السوائل ليكون لديها دموع الآن؟ كل ما استطاعت قوله، «فكري كيف سيشتاق إليك والدك ووالدتك».

تُرى هل كانت روزالين أودونيل لديها أي فكرة إلى أين ستنتهي الأمور عندما بدأت لعبتها الرهيبة

بالتمثيل؟

تكمّد وجه أنا، وقالت: «سيعلمون أن بات وأنا سنكون بأمان في الأعلى». ثم صححت ما قالته: «إن كانت هذه هي إرادة الله».

دكّت ليب الأرض بقدمها، وقالت بغضب: «تحت الأرض العفنة هناك ستكونين».

قالت الفتاة بلمحة من الازدراء: «هذا ليس إلاّ الجسد..» ثم انتفض جسدها وهي تقول: «الروح فقط..»

«ماذا؟ ما الذي تفعله؟»

«تخلع الجسد، مثل معطف قديم».

انتبهت ليب إلى أنها الشخص الوحيد في العالم، الذي يعرف بالتأكيد أن هذه الطفلة تعتزم الموت. كان الأمر كحمل ثقيل على كتفيها. بحثت عن الكلمات المناسبة لإقناعها؛ ولا جدوى من الحديث عن المتعة أو السعادة لهذة المتدينة الصغيرة، فقط الواجب الديني. تذكرت ماذا قال بيرن؟

قالت لها: «جسدك، وكل جسد، هو عجيبة من عجائب الخلق. هو معجزة رائعة. في اليوم الذي فتحتِ فيه عينيكِ لأول مرة، يا آنا، طلب الله شيئًا واحدًا فقط: أن تحيا».

عادت آنا ونظرت إليها.

تابعت ليب: «رأيت أطفالًا رضع يولدون أمواتًا. وآخرين عانوا لأسابيع أو أشهر قبل أن يستسلموا للموت»، ثم قالت بصوت حزين «ولا يوجد سبب محدد أو منطقي لذلك!».

همست آنا: «إنها خطة الله».

«حسنًا جدًا، إذن؛ لا بد أيضًا أن تكون خطته لك أن تبقي».

تذكرت ليب المقبرة الجماعية الكبيرة في ساحة الكنيسة. قالت: «مئات الآلاف - وربما ملايين من أهل بلادك توفوا عندما كنت طفلة صغيرة. هذا يعني أن مهمتك العظيمة هي الاستمرار. الاستمرار في التنفس، في الأكل مثلنا، في القيام بأمور الحياة اليومية...»

لم تر إلا حركة ضعيفة في فك الطفلة، تقول بها لا، دائمًا لا!

استولى التعب الشديد على ليب. شربت نصف كوب من الماء، وجلست تنظر إلى الفراغ.

في تمام الساعة الثامنة مساءً، عندما دخل ملاخي أودونيل ليقول: «تصبحين على خير»، كانت آنا في سبات عميق. حام حولها، ورائحة العرق تفوح من تحت إبطيه.

بعد جهدٍ كبير، استطاعت ليب النهوض، بينما يتجه الرجل نحو الباب، استغلت الفرصة. همست في أذنه: «يجب أن أخبرك، يا سيد أودونيل.. أن ابنتك ليس لديها الكثير من الوقت».

اتسعت عينيه. قال وهو مرتعب: «قال الطبيب..»

«هو مخطئ. قلبها ينبض بسرعة، وحرارتها تنخفض، ورئتيها تمتلئ بالسوائل».

«الفتاة المسكينة»! نظر إلى الجسم الصغير تحت البطانيات.

كان من الممكن أن تخبره ليب بكل شيء عن خدعة المرئ. ولكن الوقوف بين الزوج والزوجة، أمر في غاية الخطورة؛ إذ كيف يمكن لملاخي أن يأخذ بكلام السيدة الإنجليزية ويكذب كلام روزالين؟ إذا كانت كيتي قد غضبت من اتهام ليب ضد سيدتها، فبالتأكيد لن يفعل «ملاخي غير ذلك؟ على كل حال،

ليس لديها أي دليل يؤكد كلامها. كما لا تستطيع أن تقبل على نفسها أن توقظ آنا وتحاول أن تجبرها على تكرار القصة لوالدها. وعلاوةً على ذلك، كانت تشك في الأساس أنها ستنجح.

لا، ما يهم الآن، ليس الحقيقة، وإنما آنا فقط. يجب التمسك بما يمكن أن يفعله ملاخي بنفسه، الآن بعد أن كشفت له ليب الحقيقة. ستقول له ما يكفي ليوقظ مسؤولية الأب في داخله. قالت له: «أنا تتعمّد الموت، تقول إنها تفعل ذلك على أمل إخراج ابنك من عذاب المطهر».

قال الرجل باندهاش: «ماذا؟!»

قالت ليب: «كنوع من البدلية». تُرى هل كانت تُقدّم له هذه القصة المروعة بشكل سليم؟ سألته: «هل هذا تكفير؟».

تمتم ملاخي: «ليخلصنا الله!».

«عندما تستيقظ، ألن تخبرها أنها مخطئة؟

كانت يده الكبيرة تغطي وجهه. وتخرج كلماته بصوت مكتوم.

«معذرةً»!

«بالتأكيد لا يمكنني أن أطلب ذلك من آنا..»

«لا تكن أحمق. إنها طفلة، طفلتك أنت»!

«رجوتها مرتين وأكثر.. لا أعرف من أين نستطيع استردادها»

«حسنًا، ستخسرها إذا لم تتصرف بسرعة. كن حازمًا معها. كن والدها وحسب».

قال ملاخي باكيًا: «والدها الدنيوي فقط». ثم قال رافعًا رأسه نحو السماء: «إنه الوحيد الذي تصغي إليه».

وقفت الراهبة في الباب، إنها الساعة التاسعة.

قالت: «عمت مساءً يا سيدة رايت».

سارع ملاخي بالخروج، تاركًا ليب مرتبكة. يا لهم من أناس!

لم تتذكر ليب موعد الاجتماع البائس الليلة، إلا عندما كانت تضع عباءتها. قالت للأخت مايكل: «أنتوي الحديث أمام اللجنة الليلة».

لم تحصل سوى على إيماءة. لم تُحضر الراهبة معها أي شخص، ليأخذ مكانها في أثناء نوبة المراقبة، فهمت ليب أن هذا يعني أنها كانت مصرة على رفضها القاطع لحضور الاجتماع.

قالت ليب وهي في طريقها للخروج: «وعاء من الماء المغلي للبخار قد يخفف من صعوبة التنفس لديها».

انتظرت في غرفتها في الطابق العلوي، تشعر ببطنها مشدودًا بسبب التوتر. لم يكن ذلك بسبب التفكير في اقتحام اجتماع أرباب العمل وحسب، ولكن أيضًا كان تناقضًا فظيعًا؛ فإذا نجحت ليب في إقناع اللجنة بأن الغرض من المراقبة قد تم تحقيقه - وأخبرتهم كل شيء عن خدعة المرء - فقد يقومون بإنهاء عملها على الفور، مع الشكر. في هذه الحالة، تشك في أنها حتى ستحصل على فرصة لتوديع آنا قبل السفر إلى إنجلترا.

(تخيلت العودة لعملها في المشفى، وكيف لا تستطيع تصور استئناف حياتها القديمة هناك مرة أخرى).

الخسارة الشخصية لا تعنيها، كانت ليب تقول لنفسها؛ كل ممرضة ستودع كل مرضاها في النهاية بطريقة أو بأخرى. ولكن ماذا عن آنا؟ من سيعتني بها بعد ذلك، وهل سيقنعها أي شخص أو أي شيء بالتخلي عن صومها الذي لا يكسر؟ يا لها من مفارقة،

لم تتمكن من إقناع الفتاة بتناول حتى بعض الفتات حتى الآن، لكنها بذات الوقت، مقتنعة بأنها الوحيدة التي يمكنها ذلك. فهل كانت متغطرسة حد الوهم؟

عدم القيام بأي شيء هو أبشع الخطايا؛ هذا ما قاله بيرن عن تقاريره حول المجاعة.

تحققت ليب من ساعتها. وجدتها العاشرة وربع، لا بد وأن اللجنة قد اجتمعت الآن، حتى لو كان الأيرلنديون يتأخرون دائمًا. وقفت، ورتبت زيها الرمادي ومشطت شعرها.

خلف دكان المشروبات الروحية، انتظرت خارج غرفة الاجتماع حتى تعرفت على بعض الأصوات، تبيّنت صوت الطبيب وصوت الكاهن. ثم طرقت الباب.

لا جواب. ربما لم يسمعوها. هل كان هذا صوت امرأة؟ هل نجحت الراهبة مايكل في الحضور إلى الاجتماع في النهاية؟

عندما دخلت ليب، كان أول شخص رأته هي روزالين أودونيل. تقابلت أعينهما، وجلس ملاخي خلف زوجته. كلاهما بدا مذهولًا عند رؤية الممرضة.

عضت ليب شفتيها غيظًا؛ لم تتوقع وجود الوالدين هنا.

كان هناك رجل قصير الأنف في كرسي كبير ذي ظهر مزخرف، خلف طاولة مكونة من ثلاثة أرجل. خمنت من تصرفاته أنه السير أوتواي بلاكيت، الموظف المتقاعد.. تعرفت على جريدة التايمز الأيرلندية على الطاولة؛ هل كانوا يناقشون مقال بيرن؟

استفسر سير أوتواي: «ومن هذه؟».

قال جون فلين العجوز في الكرسي المجاور: «إنها

الممرضة الإنجليزية، جاءت بدون أن يطلب منها ذلك».

قال الدكتور ماكبرارتي: «هذا اجتماع خاص يا سيدة رايت».

أما السيد ريان - الضيف لها في النزل - حرك رأسه نحوها، كأنه يقول لها يجب أن تعود للطابق العلوي.

الشخص الوحيد الذي كان غريبًا بالنسبة لها، هو رجل ذو شعر أملس، لا بد أن يكون «أوفلاهيرتي»، المدرس. نظرت ليب من وجه إلى وجه، رافضة أن يُرهبها أحد. تعرف أنها تقف على أرضية ثابتة، بما هو مُدوّن في دفتر الملاحظات. قالت: «عذرًا يا سادة. اعتقدت أنه يجب عليكم سماع أحدث الأخبار بشأن صحة آنا أودونيل.

سخرت منها روزالين أودونيل قائلة: «أي أخبار؟! لقد تركتها نائمة بسلام، ولم يمضِ على ذلك أقل من نصف ساعة».

قال الدكتور ماكبرارتي بغضب: «لقد قدمت تقريري بالفعل، يا سيدة رايت».

التفتت إليه. سألته: «هل قلت للجنة أن آنا تورمت إلى درجة أنها لا تستطيع المشي؟ وأنها شبه فاقدة للوعي وتشعر بالبرودة طوال الوقت، وأسنانها تتساقط». قامت ليب بتقليب الصفحات في دفتر ملاحظاتها، ليس لأنها تحتاج إليها، ولكن لتظهر لهم أن كل ما ذكرته كان مسجلًا. تابعت: «نبضها يرتفع كل ساعة عن التي قبلها، ورئتيها تنهار لأنها بدأت تغرق من الداخل. بشرتها مغطاة بالقشور والكدمات، وشعرها يتساقط بكميات كأنه قطعة قماش قديمة..»

لاحظت فيما بعد، أن السير أوتواي كان يرفع يده

ليوقفها. قال: «فهمنا ما تقولين يا سيدتي».

«لقد قلت منذ البداية إن الأمر كله هراء»! كان هذا صوت ريان صاحب النزل الذي كسر الصمت. تابع: «هيا، الآن.. لتخبروني، من يمكنه العيش بدون طعام؟!»

تمنت ليب أن تسأل، لو كان الرجل متشككًا بالفعل من البداية، لماذا وافق على رعاية هذه المراقبة؟!

التفت جون فلين وحدّق به. قال:

-أمسك لسانك.

صاح الرجل:

-أنا عضو في هذه اللجنة، مثلك تمامًا.

قال الكاهن:

-بالطبع، لا ينقصنا الوقوع في الشجار الآن..

قالت ليب، وهي تخطو خطوة نحوه:

-سيد ثاديوس.. لماذا لم تُخبر آنا بالتوقف عن الصوم؟

-أعتقد أنك قد سمعتني أقول ذلك.

-نعم، مجرد توصية لطيفة! لقد اكتشفت أنها تجوّع نفسها على أمل غريب لإنقاذ روح أخيها.

نظرت من رجل إلى آخر للتأكد من أنهم فهموا ذلك. ثم قالت ليب وهي تلوح بذراعها نحو الأبوين:

-على ما يبدو بموافقة والديها!

انفجرت روزالين:

-أنت مهرطقة جاهلة!

أوه، أخيرًا حصلت ليب على متعة التحدث بكل شجاعة. استدارت نحو السيد ثاديوس. قالت:

-أنت تمثل روما هنا في هذه القرية، لماذا لم تأمر آنا بأن تأكل؟

انزعج الرجل. قال:

-العلاقة بين الكاهن وأفراد الرعية علاقة مقدسة، يا سيدتي، وأنت ليست مؤهلة بأي شكل من الأشكال لفهم ذلك».

-حسنًا، إذا لم تسمع آنا لك، ألا تستطيع استدعاء أسقفًا للحديث معها؟

جحظت عيناه. قال:

-لا أستطيع - لا يجب - أن أجر رؤسائي أو الكنيسة بأكملها في هذه القضية.

طالبه فلين بالتوضيح:

-ماذا تعني بجر رؤساءك؟ ألن يكون ذلك فخرًا للكنيسة، عندما يثبت أن آنا تعيش بوسائل روحية فقط؟ أليس من الممكن أن تكون هذه الفتاة الصغيرة أول قديسة في أيرلندا منذ القرن الثالث عشر؟

انتفضت يدي السيد ثاديوس وقال:

-هذه العملية لم تبدأ بعد. فقط بعد جمع شهادات على نطاق واسع، واستبعاد جميع التفسيرات الممكنة الأخرى، يُمكن أن تُرسل لجنة من المفوضين للتحقيق فيما إذا كانت آنا كشخص، تتمتع بقداسة روحية تامة، حتى يتم إعلان أنها معجزة. حتى ذلك الحين، وفي غياب أي دليل، يجب أن تحرص على الابتعاد».

«يجب أن تحرص»! أدركت ليب أن هذا يعني الكنيسة. لم تسمع هذا الكاهن الودود يتحدث بشكل جاف وعملي بهذا الشكل من قبل، كما لو كان يقرأ من كتيب. **(غياب أي دليل)**! هل كان يلمح للجميع أن مزاعم عائلة أودونيل كانت زائفة؟ ربما هنا يوجد مؤيد واحد على الأقل لها بين هؤلاء الرجال.

تذكرت، أنه على الرغم من أن الرجل كان صديقًا للعائلة، إلا أنه هو الذي دفع اللجنة لتمويل تحقيق شامل. توترت ملامح الكاهن البدين، كما لو كان يعلم أنه قد قال الكثير.

كان جون فلين يميل إلى الأمام، وجهه يعلوه الغضب، وهو يشير إليه:

-أنت لست جديرًا بربط حذائها!

راجعته ليب:

-حذاء كبيرا! فقد تورمت قدما آنا منذ زمن طويل، لدرجة أنها لم تعد تستطيع ارتداء أي شيء سوى حذاء أخيها الميت.

بالنسبة لهؤلاء الرجال، صارت الفتاة رمزًا؛ ولم يعد لديها جسد!

كان على ليب أن تستفيد من هذه اللحظة بعد تأزم النقاش. قالت:

-لدي تقرير آخر، يا سادة، شيء ذو طابع خطير وعاجل، أتمنى أن يبرر قدومي هنا دون طلب من حضراتكم.

لم تنظر في اتجاه روزالين أودونيل، خشية أن تفقد ثقتها بنفسها، بسبب نظرة المرأة الشرسة.. قالت:

-لقد اكتشفت بأي وسيلة كانت الطفلة..

شمع فجأة صوت صرير، انفتح باب الغرفة ثم أغلق تقريبًا مرة أخرى، كما لو أنه فُتح ليسمح بمرور شبح. ثم ظهر جسم أسود في فتحة الباب.. دخلت الأخت مايكل، وهي تجر الكرسي المتحرك معها.

لم تستطع ليب الكلام. لقد حثت الراهبة على المجيء. لكن مع آنا؟!

كانت الفتاة الصغيرة ملفوفة في البطانيات

ومستلقية بزاوية غريبة في الكرسي المستعار من البارون، رأسها يميل بشكل غريب ولكن عينيها مفتوحة. همست الطفلة، «بابا.. ماما.. سيدة ليب.. السيد ثاديوس...

تصبب العرق على خدي ملاخي أودونيل.

قال السيد ثاديوس:

-مرحبًا يا صغيرة.. سمعنا أنك تعاني من الطقس السيئ!

هذا كان استخدامًا أيرلنديًا للتعبير عن الشخص في أسوأ حالاته.

قالت آنا بأضعف صوت يمكن سماعه:

-أنا بخير تمامًا!

في الحال، أدركت ليب أنها لن تستطيع أن تخبرهم عن خدعة المنّ. ليس هنا، وليس الآن. سيرونها مجرد شائعة في النهاية. كما ستصرخ روزالين أودونيل أن السيدة الإنجليزية قد افتعلت القصة الكاملة بدافع الضغينة. حينها، سيتجه أعضاء اللجنة إلى آنا ويطالبونها بالاعتراف إذا كان الأمر صحيحًا. وماذا بعد ذلك؟ من الصعب أن تضع ليب الفتاة في موقف، يجب عليها فيه أن تختار بين ممرضتها وأمها، ماذا ستفعل الطفلة سوى أن تأخذ جانب والدتها؟ بالإضافة إلى ذلك، سيكون ذلك قاسيًا عليها بشكل لا يمكن تحمله.

ولتغير مسار الحديث، أومأت برأسها للراهبة، وسارت نحو الكرسي المتحرك. قالت: «عمت مساءً يا آنا».

فقط ابتسامة ضعيف من الفتاة. سألتها:

«هل يمكنني أن أزيل البطانيات حتى يمكن لهؤلاء السادة رؤيتك بشكل أفضل؟»

إيماءة صغيرة. وتثاؤب لالتقاط نفس.

كشفت ليب عن الطفلة، ثم دفعت الكرسي بالقرب من الطاولة حتى أضاءت الشموع ثوب النوم الأبيض. وتمكن أعضاء اللجنة من رؤيتها بكل تشوهاتها المفزعة: يدان وسيقان سفلية عملاقة على جسم نحيل. عيون غائرة، ضعف وترهل، جلد ملتهب، والأصابع الزرقاء، وعلامات غريبة على الكاحلين والعنق.. جسد آنا المدمر كان شهادة أكثر تعبيرًا من أي كلام آخر يمكن أن تقدمه ليب.

-يا سادة، لقد وجدنا، أنا وزميلتي الممرضة أنفسنا نشهد عملية إعدام بطيئة لطفلة. كانت فترة الأسبوعين اختيارًا تعسفيًا، أليس كذلك؟ أرجو أن يتم إيقاف المراقبة هذه الليلة، وأن تتوجه كل الجهود لإنقاذ حياة آنا.

سادت لحظة طويلة من الصمت، دون كلمة. راقبت ليب وجه ماكبرارتي. كان إيمانه بنظرياته يتزعزع، يمكنها أن ترى؛ شفتاه الرفيعة ترتجف الآن.

قال السير أوتواي بلاكيت:

-أعتقد أننا رأينا ما يكفي!

قال ماكبرارتي:

-نعم، يمكنك أن تأخذي آنا إلى المنزل الآن، يا أخت مايكل.

أومأت «الراهبة» الخجولة كالعادة، ودفعت الكرسي خارجًا.

قفز أوفلاهيرتي ليفتح لهما الباب. ثم قال:

-ويمكنكما أيضًا المغادرة، يا سيد وسيدة أودونيل.

بدت روزالين غاضبة لكنها خرجت مع ملاخي.

وأشار السيد ثاديوس لليب أن تذهب أيضًا. قال:

-والسيدة رايت..

t.me/yasmeenbook

أخبرته وهي تصتك أسنانها:

-ليس حتى ينتهي هذا الاجتماع.

أُغلق الباب خلف الرجل والمرأة.

قال «البارون»:

«أنا متأكد، من أننا جميعًا نتفق على ضرورة أن نكون متأكدين تمامًا، قبل التحول عن المسار المتفق عليه وتقليص المراقبة».

تنحنح رايان وتلعثم وهو ينظر للحضور على الطاولة:

-أعتقد أنه لم يتبقى سوى يومين فقط!

أومأ الجميع بالرأس.

شعرت ليب بدوار وهي تفكر، أنهم بالتأكيد لم يقصدوا أن يوم الأحد على بَعد ثلاثة أيام فقط، لذا فمن الأفضل أن ينهوا المراقبة الآن. هل حقًا ينوون الاستمرار حتى يوم الأحد. ألم يروا حالة الطفلة؟

تحدث البارون وجون فلين بشكل متفلسف عن الإجراءات وأعباء التثبُت من الأدلة.

كان ماكبرارتي يذكّر اللجنة:

في نهاية الأمر، المراقبة هي الطريقة الوحيدة لاكتشاف الحقيقة بشكل حاسم. لذا، من أجل العلم، ومن أجل الإنسانية..

لم تعد ليب تستطيع تحمل المزيد. رفعت صوتها وهي تُشير إلى الطبيب:

-سوف يتم شطبك من سجل الأطباء!

كانت تلوِّح بالتهديد، بينما لم يكن لديها فكرة عمَا يحتاج إليه الأمر لحظر طبيب عن ممارسة المهنة. تداركت الأمر وحركت إصبع الاتهام من رجل إلى آخر. وهي تقول:

-جميعكم.. يمكن أن يؤخذ إهمالكم على أنه خطأ جنائيًا. ثم أردفت وهي ترتجل، «الفشل في توفير ضروريات الحياة للطفلة، والتآمر لتغيير مسار العدالة، والتواطؤ في ارتكاب انتحار...

هتف بها البارون:

-سيدتي.. هل يمكنني تذكيرك، بأنه تم توظيفك بمقابل مادي يومي ليس بقليل، لفترة متفق عليها لمدة أسبوعين؟ سيطلب منكِ شهادتك النهائية بشأن ما إذا كنتِ قد لاحظتِ الفتاة تتناول أي طعام يوم الأحد.

-ستكون آنا ميتة بحلول يوم الأحد!

حثّها الكاهن قائلًا:

-سيدة رايت، تمالكي أعصابكِ!

أشار رايان:

-إنها تنتهك شروط تعاقدها.

أومأ جون فلين:

-إذا كان هناك أكثر من ثلاثة أيام متبقية، فسأقترح أن نستبدلها.

قال البارون:

-بالتأكيد، يبدو أنها غير متوازنة بشكل خطير!

غادرت ليب وهي تتعثر نحو الباب.

في الحلم، سمعت صوت خربشة. وفجأة، انهالت الجرذان على الطريق الطويل، ملأت الممر، فقفزت من سرير إلى سرير، ولعقت الدم الطازج. صرخ الرجال، ولكن أصوات خربشة الجرذان كانت أعلى من أصواتهم، سمعت ليب صوت احتكاك المخالب المخيف على الأخشاب.. صرخت لاااا.

كان هناك صوت خربشة على باب غرفتها، في الطابق العلوي في نزل رايان. شخص ما لم يرغب

في أن يوقظ أحدًا سوى ليب.

نهضت عن السرير، وبحثت مرتبكة عن رداء النوم. فتحت الباب بسرعة. فوجئت، «السيد بيرن»!

لم يعتذر عن إزعاجه لها. التقيا ببعضهما البعض في ضوء شمعته المهتز. نظرت ليب إلى الفراغ المظلم على الدرج؛ قد يصعد أي شخص في أي وقت. أومأت له أن يدخل إلى غرفتها.

دخل بيرن دون تردد. كانت رائحته دافئة، كما لو كان يركض بحصانه طوال اليوم. أشارت له ليب إلى الكرسي الوحيد في الغرفة، وجلس عليه. واختارت هي مكانًا على سريرها غير المرتب، بعيدًا بما يكفي عن ساقي الرجل، ولكن بالقرب منه بما يكفي ليتمكنا من التحدث بصوت منخفض.

بدأ هو الحديث، قال:

-سمعت عن الاجتماع.

-ممّن؟

هز رأسه. قال:

-ماجي رايان.

شعرت ليب بغيرة سخيفة؛ لأن علاقته بالخادمة كانت بهذا القرب.

-لقد سمعت فقط بعض الكلمات العشوائية مما قيل، لكنها شعرت أن الجميع اجتمعوا لمهاجمتك كالذئاب.

كادت ليب أن تضحك تقريبًا.

ثم روت له كل شيء: أمنية أنا الغريبة، وهي التكفير عن خطايا شقيقها الصغيرة، من خلال تقديم نفسها كقربان. وتخمين ليب أن الكاهن جلبها إلى هذا البلد، على أمل أن تكشف المراقبة حقيقة عدم وجود معجزة، وتنقذ كنيسته الشريفة من

حرج إعلان تقديس شخص كاذب. وأعضاء اللجنة ورفضهم العنيد للعدول عن خطتهم.

قال بيرن:

-انسَهم جميعًا.

حدّقت به ليب. أردف:

-أشك في أن أيًا منهم يستطيع إقناع الفتاة بوقف جنونها الآن، غيرك أنت.. إنها تحبك. أنت لديك تأثيرًا عليها.

اعترضت ليب:

-ليس بما فيه الكفاية.

-إذا كنتِ لا تريدين رؤيتها ممددة في صندوق، استخدمي هذا التأثير.

للحظة، تخيّلت ليب الصندوق الخاص بالطفلة، ثم أدركت أنه يقصد التابوت، 46 بوصة، تذكرت الطول من قياساتها الأولى لانا. ما يقارب أربع بوصات فقط من النمو لكل عام في حياتها على الأرض.

-بينما كنت أستلقي على سريري هناك، كنت أفكر بكِ، ليب رايت!

استنفرت ليب:

-ماذا عني؟!

-إلى أي مدى ستذهبين لإنقاذ هذه الفتاة؟

لم تعرف ليب ما هي إجابتها إلا عندما سألها. قالت:

-لن أقف مكتوفة الأيدي!

رفع حاجبه متشككًا.

-أنا لست كما تعتقد، يا سيد بيرن.

-وماذا تعتقدين أنني أفكر بك؟

-متشددة، وأرملة متزمتة. رغم أن الحقيقة هي، أنني لست أرملة على الإطلاق!

خرجت الكلمات من فم ليب دون انتباه. هذا ما جعل الرجل الأيرلندي يجلس بشكل مستقيم. ويسأل:

-ألم تكوني متزوجة؟!

تُرى هل كان وجهه مضيئًا بسبب الفضول، أم الاشمئزاز؟

-كنت. ولا زلت، بقدر ما أعرف..

بالكاد تصدق ليب نفسها، أنها تكشف أسوأ أسرارها، وأمام صحفي، من بين جميع الناس! لكن كان في الأمر شعور بالمجد أيضًا، مجد في هذا الإحساس النادر بالمخاطرة بكل شيء.

اندفع سيل من الأسئلة، سألها بيرن:

وماذا عن رايت؟ لم يمت؟ هرب؟ خان العهد؟ غادر؟

-نعم، غادر!

-لماذا؟

اندفع السؤال من بيرن لدرجة جعلت ليب تشعر بألم يمرّ في كتفها. قالت:

-أنت تفترض أن لديه سبب، إذن!

كان بإمكانها أن تخبره عن الطفل، لكنها لم تشعر بالرغبة في ذلك. ليس الآن على الأقل.

-لا! أنت تفهمينني بشكل خاطئ، أنتِ..

حاولت أن تتذكر إذا كانت قد رأت هذا الرجل تهرب منه الكلمات في أي وقت سابق!

سألها:

-ما الذي يمكن أن يدفع رجلًا لتركك؟

الآن، بدأت الدموع تفيض بعينيها. أسرها شعوره بالاستياء نيابةً عنها على حين غرة!

لم يكن والداها متعاطفين معها. إنما كانوا منزعجين، بل مذهولين، من حظ ليب السيئ بفقدان زوجها في غضون عام واحد فقط، بعد أن تمكنت من الزواج به. (ربما كانوا يرونها غير مرغوب فيها، على الرغم من أنهم لم يقلوا ذلك بصوتٍ عالٍ). جُل اهتمامهم انصب على مساعدتها في الانتقال إلى لندن والتظاهر بأنها أرملة. هذه المؤامرة صدمت شقيقة ليب حتى قررت أنها لن تكلم أيًا من الثلاثة بعد ذلك. ولكن السؤال الوحيد الذي لم يطرحه والداها على ليب هو: **كيف يمكن أن يفعل زوجها ذلك؟**

حاولت التحكم في نفسها قدر المستطاع، لأنها لا تستطيع تحمل فكرة أن بيرن ربما يعتقد أنها تُبكي زوجها، الذي لا يستحق دمعة واحدة منها. بدلًا من ذلك، حاولت أن تبتسم قليلًا!

قال بيرن:

-ثم يصف الإنجليز الأيرلنديين بأنهم أغبياء!

جعلها هذا تضحك بصوتٍ عالٍ. حاولت كتمه بيدها.

قبّلها ويليام بيرن بسرعة وبقوة، حتى كادت تنقلب تقريبًا. لم يكن هناك ولا كلمة، سوى تلك القبلة الواحدة، ثم خرج من غرفتها.

وعلى غير المعتاد، استطاعت ليب أن تنام بعد ذلك بعمق، على الرغم من كل الضجيج في رأسها.

عندما استيقظت، بحثت عن ساعتها على الطاولة وضغطت على الزر. دقت الساعة التي في يدها: واحدة، اثنتان، ثلاثة، أربعة. في صباح يوم الجمعة. فقط حينها تذكرت كيف قبّلها بيرن. لا، كيف قبّلا بعضهما بعضًا!

أنهضها الشعور بالذنب في مكانها. كيف يمكن لها أن تكون واثقة من أن آنا لم تسوء حالتها في تلك الليلة، ولم تلفظ أنفاسها الأخيرة؟ تذكرت كلمات الصلاة: **«لتكن هذه الليلة دائمًا إلى جانبي، لتضيء وتحمي»**. كانت تتوق إلى أن تتواجد مرة أخرى في تلك الغرفة الصغيرة الخانقة. لكن هل ستسمح لها العائلة بالدخول هذا الصباح، بعد ما قالته في الاجتماع؟

ارتدت ليب ملابسها، دون إشعال شمعتها حتى. انطلقت تتلمس الطريق إلى أسفل الدرج، وتصارعت مع أقفال الباب الأمامي حتى انفتح وسمح لها بالخروج.

كان الليل لا يزال مظلمًا؛ والغيوم المتناثرة تحجب القمر المتلاشي. يسود في المكان سكون غير معقول، ووحدة غير معقولة، كما لو أن كارثة ما دمرت البلاد بأكملها وليب هي الإنسان الأخير الذي يسير في طرقاتها الموحلة!

فقط يوجد مخرج ضوء واحد من النافذة الصغيرة لكوخ أودونيل، لم يتوقف عن الوميض لأحد عشر يومًا وليلة حتى الآن، كأنه عين مرعبة قد نسيت كيف تُغمض. سارت ليب نحو المربع المتوهج وتخيلت المشهد.

الأخت مايكل جالسة بجانب السرير، عيناها على ملامح آنا. الضوء يحدد ملامح الوجه الصغير. جمال نائم؛ براءة محفوظة؛ طفلة تبدو مثالية، ربما لأنها لم تتحرك، لم تطلب شيئًا، لم تسبب أي متاعب. كأنها مجرد صورة مصنوعة من ورق رخيص: إنها السهرة الأخيرة. أو الراحة الأخيرة للملاك الصغير.

ذهبت ليب إلى الباب الأمامي، متوقعة الرفض والزجر. كان ملاخي أودونيل يشرب الشاي بجوار

النار. وروزالين وكيتي تنقلان شيئًا ما من إناء إلى إناء آخر. الخادمة كانت تنظر إلى الأسفل. أما السيدة، فقد لمحت ليب، ولكن لبرهة فقط، كما لو كانت هواء ومر من أمامها. إذن، لن تتحدى عائلة أودونيل اللجنة بمنع ليب من الدخول إلى الكوخ، على الأقل ليس اليوم.

في غرفة النوم، كانت آنا نائمة بعمق حتى بدت كالشمعة.

أخذت ليب يد الأخت مايكل الباردة وضغطت عليها، مما صدم الراهبة. قالت لها:

-شكرًا لكِ على الحضور الليلة الماضية.

سألت الأخت مايكل:

-ولكن لم يفد ذلك في شيء، أليس كذلك؟

-فقط حتى الآن.

أشرقت الشمس في الساعة السادسة والربع. كما لو أيقظت الطفلة بواسطة الضوء، خرجت آنا من وسادتها ومدت يدها نحو إناء الفضلات الفارغ. أسرعت ليب لتقديمه لها. السائل الذي تقيأته الفتاة كان لونه أصفر شفاف. كيف يمكن لهذه المعدة الفارغة أن تصنع لونًا بهذا البريق من لا شيء سوى الماء؟

تشنجت آنا وأغلقت شفتيها كأنها تحاول أن تهز قطرات الماء.

سألت ليب:

-هل تشعرين بألم؟

لا بد أن هذه هي الأيام الأخيرة بالتأكيد! تقلّبت آنا، وبصقت مرة تلو مرة، ثم استقرت مرة أخرى على الوسادة، وجهها متجه نحو الخزانة.

سجلت ليب في دفتر الملاحظات:

*** تقيأت العصارة الصفراوية؛ حوالي ربع لتر؟**
*** نبض القلب: 128 نبضة في الدقيقة.**
*** الرئتان: 30 تنفسًا في الدقيقة؛ رطوبة وصوت خشخشة في الجانبين.**
*** تمدد الأوردة في الرقبة.**
*** درجة الحرارة منخفضة جدًا.**
*** العيون زجاجية.**

كانت أنا تتقدم في العمر كما لو كان الزمن نفسه يسرع بها. بشرتها كرقعة من الجلد المجعد، ملطخة كما لو كتبت عليها رسائل ثم تم محوها. عندما قامت الطفلة بحك عظمة الترقوة، لاحظت ليب أن الجلد ظل ملتهبًا. تناثرت خيوط حمراء داكنة على الوسادة العلوية، جمعتها ليب ووضعتها في جيب مئزرها. سألت الطفلة:

-هل تشعرين بتيبس في رقبتك يا صغيرة؟

-لا.

-إذن، لماذا تديرينها بهذا الشكل؟

-ضوء النافذة ساطع جدًا.

«استخدمي تأثيرك»، هذا ما قاله بيرن. ولكن ما هي الحجج الجديدة التي يمكن لليب أن تجادل بها مع الطفلة؟

-والآن، أخبريني، أي إله هذا الذي يريد أن يأخذ حياتك مقابل إنقاذ روح أخيك؟

همست أنا:

-إنه يريدني أنا.

أحضرت كيتي وجبة الإفطار على صينية، وتحدثت بصوت متردد عن الطقس الجميل. سألت الطفلة:

-كيف حالك اليوم، يا عزيزتي؟

أجابت آنا ابنة عمها بصوت متهدج.

-أنا بخير تمامًا.

وضعت الخادمة يدها القرمزية على فمها لتخفي بكاءها، ثم عادت إلى المطبخ.

كان الإفطار عبارة عن فطائر مشوية مع زبدة حلوة. تذكرت ليب أغنية كيتي عن القديس بطرس الذي يقف عند البوابة، ينتظر فطيرة مدهونة بالزبد. شعرت بطعم الرماد. تذكرت **«الآن وفي ساعة موتنا، آمين»**. شعرت بالغثيان، فوضعت الفطيرة في الصحن ووضعت الصينية بجانب الباب.

قالت آنا بصوت ملتهب ومريض:

-كل شيء يتمدد، يا سيدة ليب.

-يتمدد؟

-الغرفة. الخارج يناسب الداخل.

هل هذا بداية الهذيان؟

جلست ليب بجوار السرير، سألت:

-هل تشعرين بالبرودة؟

هزت آنا رأسها.

-دافئة؟

-لا شيء.. لا فرق.

تلك العيون اللامعة تذكرها بنظرة بات أودونيل المرسومة في الصورة. الجفون ترفرف بين الحين والآخر. ربما هناك مشكلات في الرؤية، سألت:

-هل يمكنك رؤية ما هو أمامك بشكل واضح؟

قالت بعد تردد:

-معظم الوقت.

-تقصدين معظم ما هو موجود هناك؟

راجعتها انا:

-كل شيء.. معظم الوقت.

-لكن في بعض الأحيان لا تستطيعين؟

-يصبح أمامي سواد. لكنني أرى أشياء أخرى.

-ما هي هذه الأشياء؟

-أشياء جميلة.

أرادت ليب أن تهتف بها: **(هذا ما يحدث نتيجة الجوع)**. لكن من الذي يستطيع أن يجعل طفل يعدل عن موقفه بالصراخ؟ لا، هي بحاجة إلى التحدث بشكل مقنع أكثر مما فعلت طوال حياتها.

سألت الطفلة:

-لغز آخر، يا سيدة ليب؟

فوجئت ليب. لكنها فكرت أن حتى المحتضرين يحبون قليلًا من الترفيه لمساعدتهم في مرور الوقت.

-آه، دعيني أرى. نعم، أعتقد أن لديّ لغزًا آخر. ما هو الشيء الذي يكون أكثر رعبًا كلما كان أصغر؟

كررت آنا:

-رعب.. فأر؟

-ولكن الجرذ يخيف الناس بنفس القدر، إن لم يكن أكثر، على الرغم من أنه أكبر في الحجم!

تنهدت الفتاة وقالت:

-حسنًا.. شيء يسبب المزيد من الخوف إذا كان أضعف!

قالت ليب:

-أنحف.. لا، بالأحرى أضيق.

-سهم؟ سكين؟ ثم أخذت نفسًا اخر متقطعًا، وقالت: «من فضلك، لمحة»!

-تخييلي السير عليه.

-هل سيجرحني؟

-فقط إذا خرجت عنه.

صاحت آنا:

-جسرا!

أومأت ليب برأسها. ثم لسببٍ ما، تذكرت قُبلة بيرن! لا شيء يمكن أن يأخذ هذه القبلة منها، لبقية حياتها، ستكون لديها تلك القبلة. لقد منحتها الشجاعة. قالت:

-آنا.. لقد قمتِ بما يكفي.

ظلت الطفلة تحدّق بها. فأردفت:

-ضمتِ بما فيه الكفاية، وصليتِ بما فيه الكفاية. أنا متأكدة أن بات سعيد في الفردوس الآن.

همست:

-لا يمكن أن تكوني متأكدة.

حاولت ليب طريقة أخرى. قالت:

-جميع مواهبكِ - ذكاؤكِ، لطفكِ، قوتكِ - مطلوبة على الأرض. يريد الله منكِ أن تقومي بعمله هنا.

هزت آنا رأسها.

-أنا أتحدث كصديقتكِ الآن. اهتز صوتها وهي تقول: «أنت صرتِ عزيزة جدًا لي، أعز فتاة في العالم»!

ابتسمت ابتسامة صغيرة.

-لكنك تكسرين قلبي!

-اغفري لي يا سيدة ليب!

-إذن كلي! رجاءً. حتى لو قضمة. ولو رشفة. أتوسل إليك!

نظرة آنا كانت جادة، لا تُراجع عن موقفها.

-أرجوك! من أجلي.. من أجل جميع الذين..

وقفت كيتي، عند الباب وقالت:

-إنه السيد ثاديوس.

قفزت ليب من مقعدها.

بدا الكاهن غير مرتاح ويشعر بالحرارة بسبب ارتدائه الزي الأسود متعدد الطبقات.

هل تمكنت ليب من أن توقظ ضميره في الاجتماع الليلة الماضية؟

ما زال فمه مبتسمًا في أثناء تحية آنا، لكن عينيه بدت متعبة.

نحّت ليب كراهتها للرجل جانبًا. لأنه في النهاية، إذا كان هناك شخص يمكنه إقناع آنا بحماقات تصوراتها اللاهوتية بخصوص العقيدة، وبشكل منطقي سيكون كاهنها هو الشخص المناسب. قالت: «آنا، هل تودين التحدث مع السيد ثاديوس على انفراد؟»

هزة صغيرة بالرأس.

كانت عائلة أودونيل تحوم خلفه.

استوعب الكاهن إشارة ليب. سأل:

-هل ترغبين في أداء اعترافكِ، يا صغيرة؟

-ليس الآن.

شابكت روزالين أودونيل أصابع يديها المعوّجة. قالت:

-ما هي الخطايا التي قد اقترفتها، وهي تستلقي هنا مثل الملاك!

قالت ليب في رأسها: **(أنتِ خائفة من أن تخبره عن المنّ.. امرأة متوحشة)!**

سأل السيد ثاديوس:

-إذن، هل من الممكن أن نرتل بعض الترانيم؟

قال ملاخي أودونيل، مُداعبًا ذقنه:

-فكرة جيدة!

شهقت آنا:

-هذا رائع!

عرضت ليب عليها كوب من الماء، لكن الطفلة رفضت.

اقتحمت كيتي أيضًا الغرفة. مع وجود ستة أشخاص، أصبحت الغرفة ممتلئة بشكل لا يطاق.

بدأت روزالين أودونيل بأول عدد:

من أرض منفايَ

أصرخ إليكِ

يا عذراء، يا أمي،

انظري إليّ بالرحمة

تساءلت ليب، لماذا يرون أيرلندا أرض منفى؟!

ثم انضم الآخرون؛ الزوج، الخادمة، الكاهن، حتى آنا من على فراشها.

يا مريم، برحمة،

انظري إليّ،

هوذا صوت طفلكِ

الذي يناديكِ.

كان الغضب يطرق كالمسمار في رأس ليب. «لا، هذا طفلك أنت، الذي يحتاج إلى مساعدتك»، قالت ذلك لروزالين أودونيل في صمت.

ثم رتّلت كيتي العدد التالي بصوت ألتو مدهش، واختفت جميع تجاعيد وجهها وبدا هادئًا:

في الحزن، في الظلام،

كوني بجانبي،

t.me/yasmeenbook

يا نوري وملجأي،
حارسي ومرشدي.
وإن تحاصرني فِخاخ المغريات،
لماذا أخاف؟
أنا أعلم أني ضعيف،
لكن أمي هنا.

فهمت ليب الآن، أن هذه الأرض كلها هي أرض منفى. كُل اهتمامات، وكُل سعادة يمكن أن تقدمها الحياة، تُحتقر وتعد كفخاخ للروح المتعجّلة الوصول نحو السماء.

لكن هل يوجد فخاخ هنا؟ في هذا الكوخ المشيدة جدرانه من الروث والدم، والشعر والحليب! إنه حقًّا فخ لحبس وتشويه فتاة صغيرة.

قال السيد ثاديوس لآنا:

-ليباركِك الرب، يا صغيرتي.. سأتفقد حالكِ مرة أخرى غدًا.

هل كان هذا هو كل ما يمكنه فعله؟ ترنيمة ودعاء بالبركة ثم غادر وذهب؟

خرجت عائلة أودونيل وكيتي بعد الكاهن.

***

ليس هناك أي علامة على وجود بيرن في دكّان المشروبات الروحية. ولا رد منه عندما طرقت ليب على بابه. هل يمكن أن يكون الآن نادمًا على تلك القبلة؟

طوال العصر، استلقت فوق سريرها، عيناها جافتان كالورق. والنوم كان طلبًا بعيد المنال. سمعت معلمتها، تأمرها: «قومي بواجبك بينما العالم يدور»!

ثري، ما هو واجب ليب تجاه آنا الآن؟ كانت آنا تصلي: **«نجني من يد أعدائي»**. هل كانت ليب من منقذيها أم عدوة أخرى؟ **«لن أقف مكتوفة الأيدي»**، هكذا كانت تتفاخر ليب أمام بيرن الليلة الماضية. ولكن ما الذي يمكنها فعله لإنقاذ طفلة ترفض أن ينقذها أحد؟

في السابعة مساءً، أجبرت نفسها على النزول إلى الطابق السفلي وتناول بعض العشاء، بسبب شعورها بالدوار.. والآن، استقر الأرنب المشوي في معدتها كالرصاصة!

كان مساء أغسطس خانقًا. بوصول ليب إلى الكوخ، كان الأفق المظلم قد ابتلع الشمس، طرقت الباب. ربما تدخل آنا في حالة من فقدان الوعي، رغم كونها محاطة بالقلق بين نوبة وأخرى.

رائحة العصيدة تنتشر في المطبخ ولهيب الموقد لا ينطفئ. سألت ليب الأم:

-كيف حالها؟

-نفس الشيء، هذه الملاك الصغير!

ليس ملاكًا. إنها طفلة آدمية.

بدا لون آنا أصفر بشكل غريب على الفراش الباهت. قالت:

-مساء الخير، يا صغيرة. هل يمكنني أن ألقي نظرة على عينيك؟

فتحت الفتاة عينيها، وهي تغمضهما لا إراديًا. جذبت ليب الجلد أسفل إحدى العينين لتفحصها. نعم، البياض كان مثل لون الزبد لزهرة النرجس. نظرت نحو الأخت مايكل.

همست الراهبة بينما تربط عباءتها:

-أكد الطبيب أنها مصابة باليرقان عندما نظر إليها

هذا العصر.

التفتت ليب نحو روزالين أودونيل، وهي تقف عند الباب:

-هذه علامة على أن جسد آنا يتدهور بأكمله!

لكن، لم يكن لدى الأم كلمة لتقولها حيال ذلك؛ استقبلتها كأخبار عن عاصفة أو حرب بعيدة!

رفعت ليب إناء الفضلات وجدته فارغًا.

هزّت الراهبة رأسها.

لا مرور للبول على الإطلاق، إذن. هذه هي النقطة التي تتجه إليها جميع القياسات. كل شيء داخل جسم آنا كان يتوقف عن العمل.

قالت روزالين أودونيل:

-سيتم إقامة قداس نذر مساء الغد، في تمام الثامنة والنصف.

سألت ليب:

-نذر؟

شرحت الأخت مايكل بصوت خفيض:

-مخصص لغرض معين.

قالت الوالدة:

-من أجل آنا. أليس هذا رائعًا يا حبيبتي؟ السيد ثاديوس سوف يقيم قداسًا خاصًا بسبب مرضك، والجميع سيكونون هناك.

-رائع.

تنهدت آنا وكأنها تحتاج إلى اهتمام كامل من أمها.

أخرجت ليب السماعة الطبية، وانتظرت حتى تغادر الاثنتان الأخريان.

عندما وضعت السماعة على صدر آنا، ظنت أنها سمعت شيئًا جديدًا في قلب الطفلة هذا المساء،

صوتًا يشبه الركض. هل يمكن أن تتخيل ذلك؟ استمعت بانتباه أكثر. أيضًا ثلاثة أصوات بدلًا من الصوتين المعتادين.

ثم قامت بعد ذلك بعد التنفس. تسعة وعشرون في الدقيقة؛ مع زيادة التسارع. درجة الحرارة أقل أيضًا، على الرغم من حرارة الجو في اليومين الماضيين.

جلست وأخذت يد آنا النحيلة. قالت: «قلبك بدأ يتسارع. هل شعرت بذلك؟ لا بد أنك تشعرين بألم».

همست آنا: «هذه ليست الكلمة المناسبة».

-ماذا تسمينه إذن؟

-تقول الأخت مايكل، إنها قبلة يسوع.

-ماذا؟!

-عندما يؤلمني شيءٌ ما. تقول لي إن ذلك يعني، أنني اقتربت بما فيه الكفاية من صليب المسيح، حتى يستطيع أن ينحني ويقبلني.

بلا شك، كانت الراهبة تقصد أن ذلك مصدر للعزاء، ولكن التعبير نفسه أرعب ليب!

بأنفاس متقطعة. سألت الطفلة:

-أتمنى فقط أن أعرف ما الوقت الذي سيستغرقه ذلك.

سألتها ليب:

-تقصدين الموت، أليس كذلك؟

أومأت الفتاة برأسها.

-هذا لا يأتي بشكل طبيعي لمن في سنك. الأطفال مفعمين بالحيوية.

كان هذا أغرب حديث قامت به ليب مع مريضة. سألتها: «هل أنت خائفة؟»

تردد ثم إيماءة صغيرة.

-لا أعتقد أنك تريدين الموت حقًا!

في هذه اللحظة، رأت حزنًا شديدًا في وجه الطفلة. لم تُظهر آنا هذا من قبل. همست الفتاة، وهي ترسم علامة الصليب على نفسها:

-لتكن مشيئتك.

-هذا ليس عملًا من الله، إنه عملك أنت.

الجفون الشاحبة رمشت ثم أُغلقت أخيرًا. التنفس الصاخب خبا صوته وانتظم.

ظلت ليب ممسكة باليد المتورمة. النوم، رحمة مؤقتة. تمنت ليب أن تدوم حتى الليلة.

بدأت صلاة المسبحة الوردية من الجانب الآخر للحائط. هذه المرة كانت هادئة، وصوت الهتاف منخفضًا. انتظرت لانتهاء الصلاة، حتى يهدأ الكوخ عندما تنسحب عائلة أودونيل إلى مخبأهم، وعندما تنام كيتي على الفراش في المطبخ. وتتلاشي كل الأصوات الصغيرة.

أخيرًا أصبحت ليب الوحيدة التي ما زالت مستيقظة؛ لتواصل المراقبة. «**في هذه الليلة ستكونين دائمًا معي**».

تبادر إلى ذهنها أن تسأل نفسها، لماذا تريد لآنا أن تعيش هذه الليلة، ليلة الجمعة، والليلة التالية، وكم ليلة أخرى متبقية. أليس من الصواب أن تتمنى ليب أن ينتهي الأمر، من باب الرحمة؟ فبعد كل شيء، كل ما قامت به لتجعلها أكثر راحة، كان مجرد رشفة من الماء، ووضع وسادة أخرى.. كل ذلك كان يطيل معاناتها فقط.

في لحظة ما، سمحت لنفسها بأن تتخيل النهاية: ترفع البطانية وتطويها، وتضعها فوق وجه الطفلة، وتضغط عليها بكل ثقلها. لن يكون ذلك صعبًا،

أو يستغرق أكثر من دقيقتين. بل فقط عمل من الرحمة.

إنها جريمة قتل!

كيف وصلت ليب إلى نقطة التفكير في قتل مريضة؟!

وجهت ليب اللوم على قلة النوم، وعدم اليقين... كل شيء فوضى وخراب.. أراضٍ موحلة، طفلة ضائعة، وليب تتعثر وراءها.

لكنها أمرت نفسها، **لا يجب اليأس أبدًا**. أليست هذه واحدة من الخطايا التي لا تغتفر؟ تذكرت قصة الرجل الذي ظل يصارع مع الملاك طوال الليل، وكان يُطرح بعيدًا مرارًا وتكرارًا. لم ينتصر قط، ولكنه لم يستسلم قط.

فكري، فكّري، فكري. حاولت تشغيل عقلها المدّرب. ما هو تاريخ الطفلة؟ ألم تقُل روزالين أودونيل ذلك، ردًا على أسئلة ليب ذات صباح! ولكن كل مرض له قصة؛ بداية ووسط ونهاية. كيف يمكن تتبع هذه القصة إلى الوراء؟

تجولت بعينها في أرجاء الغرفة. عندما وقعت على صندوق الكنز الخاص بـ آنا، تذكرت ذلك الشمعدان الخزفي الذي كسرته، وخصلة الشعر الداكنة. إنه أخيها بات أودونيل، الذي لم تعرفه ليب سوى من خلال صورة بها عيونه المرسومة. كيف اقتنعت أخته الصغيرة بأنها تحتاج إلى فداء روحه بروحها؟

ظلت ليب تجاهد لفهم صراع آنا بمفردها. وضعت نفسها في موقف الفتاة التي تعتبر هذه القصص القديمة حقائق بشكل حرفي. أربعة أشهر ونصف من الصوم؛ كيف يمكن لهذا القدر من التضحية ألا يكون كافيًا للتكفير عن خطايا صبي بسيط؟

همست بصوت خافت: «أنا.. ثم بصوت أعلى.. «أنا!»

حاولت الطفلة أن تظهر وجهها.

أنا!

رفعت جفونها الثقيلة.

وضعت ليب فمها بجوار أذن الفتاة. قالت: «هل فعل بات شيئًا سيئًا؟

لا جواب.

«شيئًا لا يعرفه أحد آخر؟

انتظرت ليب وهي تراقب الجفون ترمش. ثم قالت لنفسها، مرة واحدة، بعد أن شعرت بالإرهاق، **«دعيها وشأنها»**. ما أهمية كل ذلك الآن؟

همست أنا بصوت غير مسموع تقريبًا: «قال إن ذلك كان صحيحًا». عيناها ما زالت مغمضة، كما لو كانت لا تزال في حلم.

انتظرت ليب، تكتم أنفاسها.

-قال إنه الضَّعف.

حاولت ليب فهم ذلك. «ضِعف ماذا؟

«الحب.» نطقت أول حرف من الكلمة، ثم أخذت نفخة ضئيلة من الهواء، ثم ضغطت على الشفة السفلى للحرف الأخير.

«أنا لحبيبي وحبيبي لي»، هذه واحدة من تراتيل آنا. سألتها ليب: «ماذا تقصدين؟

فتحت آنا عيونها الان. قالت: «تزوجني في الليل».

جفلت ليب بعينيها مرة، ثم مرة أخرى. لا تزال الغرفة هادئة، ولكن العالم انقلب من حولها!

«يأتي إليّ حين أغفو»، كانت أنا تقول ذلك، ولكنها لم تقصد يسوع. **«هو يريدلي»**.

همست الفتاة: «كنت شقيقته وزوجته أيضًا.. الاثنان»!

شعرت ليب بالغثيان والقشعريرة في كل جسدها. لم يكن هناك غرفة نوم أخرى؛ لا بد أن الشقيقان قد تشاركا هذه الغرفة. وذاك الإطار الخشبي، الذي طوته ووضعته خارج الغرفة في اليوم الأول للمراقبة، كان كل ما يفصل بين سرير بات - هذا السرير، سرير وفاته - وفراش آنا على الأرض. سألتها ليب، والكلمات تتحشرج في حلقها: «متى كان ذلك؟

فقط هزّة رأس صغيرة.

-كم كان عمر بات، هل تتذكرين؟

-ثلاثة عشر، ربما.

-وأنتِ؟

-تسعة.

تجّعد وجه ليب. سألت: «هل حدث هذا مرة واحدة فقط، آنا.. في مناسبة واحدة فقط.. أم...».

«الزواج إلى الأبد».

أيها البراءة المروعة للطفلة. حثّتها ليب بصوت صغير، لتشجعها على مواصلة الحديث.

«عندما يتزوج الأشقاء والأخوات، يكون هذا سر مقدس. سر بيننا وبين السماء، هكذا أخبرني بات. لكنه مات بعد ذلك»، ثم سألت آنا، بصوت متهدج ومهتز، عيونها متجهة نحو ليب. «أخشى أنه كان مخطئًا»!

أومت ليب بالرأس.

«ربما أخذ الله بات بسبب ما فعلناه. هذا ليس عادلًا، يا سيدة ليب، أن يحمل بات كل العقوبة»!

ضمت ليب شفتيها معًا لكي تستمر الطفلة في الحديث.

«ثم في أثناء خدمة الإرسالية».. أطلقت تنهيدة واحدة عميقة. أردفت «قال الكاهن البلجيكي في عظته، إذا فعل الأخ والأخت ذلك، فهو خطيئة مميتة، هي الثانية بين أسوأ ستة أنواع من الشهوة. مسكين بات لم يكن يعلم»!

آه، **المسكين بات كان يعلم جيدًا،** كيف يغزل شبكة براقة، حول الشيء الذي كان يفعله بأخته الصغيرة ليلة بعد ليلة!

بكت الفتاة وقالت وهي تنوح: «مات بسرعة كبيرة.. لم يحصل على فرصة للاعتراف والتوبة. ربما ذهب مباشرةً إلى الجحيم.. بدت عيونها الباكية بألوان خضراء في الضوء، وخرجت الكلمات بحزن ونواح:

-في الجحيم، النيران ليست للتطهير، إنما للألم، وبدون نهاية!

-آنا.. لقد سمعت ما يكفي.

-لا أعرف إذا كنت قادرة على إنقاذه، ولكن يجب أن أحاول. بالتأكيد، لا بد أن يكون الله قادرًا على استخراج شخص ما..

-آنا! أنتِ لم تفعلي شيئًا خاطئًا.

-لا، بل فعلت.

قالت، ليب بإصرار: «لم تكوني تعلمين.. هذا كان خطأً قام به أخوك تجاهك».

هزّت آنا رأسها. «أنا أيضًا أحببته كأخت وزوجة».

لم تستطع ليب قول كلمة!

«إذا منحني الله طلبتي، يمكن أن نكون معًا قريبًا، لكن بدون أجساد هذه المرة. لا زواج»، توسلت بلجاجة أكثر. «فقط أخ وأخت مرة أخرى».

«آنا، لا أستطيع تحمل هذا، آنا..» كانت ليب تجثم

على حافة السرير الآن، معصوبة العينين، تشعر أن الغرفة تحولت إلى مياه عميقة تغرق بها.

«لا تبك، يا سيدة ليب». تلك الأذرع الرفيعة امتدت نحوها، أحاطت برأسها، تسحبها لأسفل. توسلت الفتاة: «عزيزتي سيدة ليب».

غطت بكاءها في البطانيات، تلك اليدين الصلبة للطفلة. تحيط بها: تقلب كيانها رأسًا على عقب، يا لها من مفارقة، أن ثواسيك طفلة، وطفلة مثل هذه!

همست آنا: «لا تقلقي، كل شيء على ما يرام»!

«لا ليس على ما يُرام»!

«كل شيء على ما يرام. سيكون كل شيء على ما يرام».

«أرجوك ساعدها»! وجدت ليب نفسها تصلي إلى الله الذي لم تكن تؤمن به. **«ساعدني. ساعدنا جميعًا»**...

لم تسمع سوى الصمت فقط.

في منتصف الليل، لم تستطع ليب الانتظار أكثر من ذلك. تلمست طريقها عبر المطبخ، عبر الخادمة النائمة. كانت بشرة وجنتيها جافة ومالحة من فرط البكاء. عندما وجدت أصابعها الستارة الخشنة، التي تقسم الغرفة الجانبية، همست: «سيدة أودونيل».

استدارت المرأة، «هل هذه آنا؟ سألت بصوت مبحوح.

-لا، هي غارقة في النوم. أحتاج إلى التحدث إليك.

-ما الذي يحدث؟

-على انفراد من فضلك.

بعد ساعات طويلة من التفكير، وصلت ليب إلى استنتاج، أنه يجب عليها أن تكشف سر انا. ولكن لشخص واحد آخر، الشخص الذي تثق به الأقل،

وكان هذا الشخص، روزالين أودونيل. كانت ليب تأمل أن يوقظ كشف هذا السر فيها الشعور بالرحمة تجاه الفتاة المعذبة. في نهاية الأمر، هذه القصة تخص العائلة، والوالدة هي أم بات وآنا، فإذا كان أحد يحق له سماع الحقيقة حول ما ارتكبه أحدهما ضد الآخر، فهي فقط الأم.

تردد صدى ترنيمة السيدة العذراء مريم في رأس ليب: أمي، **انظري لي بالرحمة.**

أزاحت روزالين أودونيل الستار جانبًا وخرجت من الحجرة الجانبية. كانت عيناها غريبة في الضوء الأحمر الخافت، الآتي من النار المشتعلة.

أشارت ليب بيدها، وتبعتها روزالين. فتحت ليب الباب الأمامي، وترددت روزالين لحظة واحدة فقط قبل أن تتبعها خارجًا.

مع إغلاق الباب وراءهما، تحدثت ليب بسرعة، قبل أن تفقد شجاعتها. قالت: «أعرف كل شيء عن المنّ»، لقد بدأت تأخذ ناصية الحديث.

لكن لم تعبر المرأة عن أي شيء، فقط نظرت إليها بثبات. أردفت ليب:

«ولكنني لم أخبر اللجنة. العالم لا يحتاج إلى تفسير كيف عاشت آنا كل هذه الأشهر. ما يهم الآن، هو ما إذا كانت ستستمر على قيد الحياة. إذا كنت تحبين ابنتك، يا سيدة أودونيل، فلماذا لا تفعلين كل ما في وسعك لإقناعها بتناول الطعام؟

ظلت صامتة، لا تنطق كلمة. ثم بصوت خفيض جدًا قالت:

-إنه اختيار.

كررت ليب، بغضب واشمئزاز:

-هل تم اختيارها؟ أتقصدين من قبل الله؟ تم

اختيارها لتكون شهيدة في سن الحادية عشر؟!

راجعتها روزالين:

-هي حددت اختيارها.

سخافة المرأة صدمت ليب:

-ألا تفهمين كم هي يائسة، وكم هي مفزعة من الشعور بالذنب؟ هي لا تختار أكثر مما يهبط بها في حفرة وحل عميقة.

أيضًا لا ردا!

-هي ليست سليمة. بدا كل نقاش ليب سخيفًا للغاية. وضاقت عيون روزالين. تابعت: «يجب أن أخبركِ أنها تعرضت للاعتداء، من قبل ابنك! خرجت الكلمات واضحة وقاسية، أردفت، «بدأ في مداعبتها عندما كانت في التاسعة من عمرها».

قالت المرأة:

-سيدة رايت.. لن أتسامح مع المزيد من الثرثرة والفضائح..

هل كان الأمر مرعبًا ومرفوضًا جدًا لدرجة أنها لا تستطيع تصديقه؟ هل هي بحاجة إلى الاعتقاد بأن ليب كانت تلفق بالأكاذيب؟ أردفت روزالين: «هذا هو نفس الكلام الزور القذر الذي أطلقته آنا بعد جنازة بات، وأخبرتها ألا تتهم شقيقها المسكين».

اضطرت ليب أن تتكأ على جدار الكوخ الخشن. الآن، لم يكن ما قالته خبرًا جديدًا للمرأة على الإطلاق. **(تفهم الأم ما لا يقوله الطفل)**، أليس هذا ما يقوله المثل؟ ولكن آنا قد قالت ذلك. حزنها على بات المتوفى أعطاها الشجاعة للاعتراف بالقصة المخجلة بأكملها لأمها، في نوفمبر. وواصلت روزالين استخدام عنوان (أكاذيب) وأصرت على أنها كذبة آنا، حتى وهي تشاهد ابنتها تضيع أمام

ناظريها.

همست روزالين بغضب:

-ولا كلمة أخرى منك.. ليأخذك الشيطان!

واندفعت داخل الكوخ.

قبل الساعة السادسة صباح السبت. وضعت ليب رسالة أسفل باب غرفة بيرن.

ثم غادرت دكّان المشروبات الروحية، وأسرعت عبر الحقل الموحل تحت القمر المتلاشي. إنها مملكة الجحيم، سوف تتزحزح بلا رجعة عن مدار السماء.

وقفت أمام شجرة الزعرور عند البئر المقدسة الصغيرة، وشرائط القماش البالية تتراقص مع الهواء الدافئ. فكرت ليب في فائدة هذه الخرافة الآن. إذا كان هناك طقوس يمكنها القيام بها تقدم فرصة لإنقاذ آنا، فلماذا لا تجربها؟ هي على استعداد أن تجثو أمام شجرة أو صخرة أو تمثال من أجل الصغيرة آنا. فكرت في كل أولئك الأشخاص الذين يمرون أمام هذه الشجرة على مر قرون، محاولين أن يصدقوا أنهم تركوا أوجاعهم وأحزانهم خلفهم. وفي السنوات القادمة، سيذكرون بعضهم البعض، **«إذا كنت ما زلت تشعر بالألم، فهذا لأن قطعة القماش لم تُبلى بعد تمامًا»**.

كانت طلبة آنا هي أن تترك جسدها، تتخلص منه كما لو كان معطفًا قديمًا. تتخلص من بشرتها المجعدة، واسمها، وتاريخها المُخجل؛ وأن تنتهي من كل ذلك. نعم، ليب أيضًا ترغب في ذلك للفتاة، وأكثر.. أن تولد آنا من جديد، كما يعتقد الناس في بلاد الشرق أنه ممكن الحدوث. تستيقظ غدًا وتكتشف أنها شخص آخر. طفلة بدون أي دمار حدث لها، وبدون أي ديون لتسديدها، قادرة ومسموح لها بأن تأكل ما تشاء.

في ذلك الوقت، ظهر شخص مسرعًا نحوها تناقضت ظلاله مع السماء الساطعة، وشعرت ليب في نفس اللحظة التي لم تعرفها حقًا: إن مطالب الجسد لا تقبل الجدال.

كانت خصلات ويليام بيرن مبعثرة ومعطفه مغلقًا بشكل خاطئ. أمسك يدها.

سألته ليب بحماقة: «هل أيقظتك؟

قال: «لم أكن نائمًا»، وأمسك بيدها.

وعلى الرغم من كل شيء، انتشر الدفء في جسدها.

قال بيرن:

-في نزل رايان، الليلة الماضية، لم يتحدث أحد عن أي شيء سوى آنا. انتشرت الشائعات حول حديثك إلى اللجنة بأن صحتها تتدهور بسرعة. أعتقد أن القرية بأكملها ستحضر هذا القداس.

-ما هذا الجنون الجماعي الذي أصاب سكان البلدة؟ إذا كانوا قلقين حقًا من تهاونهم مع قتل طفلة لنفسها، فلماذا لا يقتحمون الكوخ؟

-لدينا نحن الأيرلنديين موهبة في الاستسلام. أو بتعبير آخر، اليأس.

تأبط بذراعها وسارا تحت الأشجار. أشرقت الشمس ويبدو أنه سيكون يومًا جميلًا!

أخبرها بيرن:

-«أمس كنت في آثلون، كنت أتحاور مع أحد رجال الشرطة. هذا الضابط، الذي يمتلك الكثير من الكبرياء واللاّ مبالاة بسبب قبعته وبندقيته.. كان يتحسس شاربه ويقول: إن الوضع حساس جدًا. ويقول، إن الشرطة لا تستطيع اقتحام محيط منزل دون دليل على ارتكاب جريمة.

أومأت ليب. في الواقع، ليس بيد الشرطة أن تفعل شيئًا. لكنها قدرت جهود بيرن في محاولة فعل أي شيء.

كم تمنت لو تستطيع أن تخبره بكل ما عرفت به عن آنا في الليلة السابقة، ليس فقط لتشعر بالراحة في مشاركة الأمر، ولكن لأنها تعرف مدى اهتمامه بموضوع آنا كما تهتم به هي.

لكنها تراجعت عن ذلك؛ كيف تخون الثقة؟ شعرت أن إخبار أي رجل، حتى ولو كان قدوة في نظر آنا، بالسر الذي تحمله الطفلة داخلها، سيغير نظرته لها. هي تدين لآنا بالحفاظ على سرها.

لا يمكنها أن تخبر أي شخص آخر. إذا كانت أمها قد وصفتها بالكذابة، فمن المحتمل أن يفعل العالم بأسره نفس الشيء. لا يمكن لليب أن تُعرّض آنا للمهانة من خلال فحص طبي. جسدها تحمّل الكثير من التحقيقات بالفعل. علاوةً على ذلك، حتى لو أمكن إثبات الحقيقة، سيعتبر الآخرون ما تراه ليب اغتصاب من أخ لأخته بأنه إغواء. أليس الفتاة دائمًا - مهما كان عمرها - هي الملامة الأولى، بأنها أثارت المعتدي بنظرة؟

قالت لبيرن:

-لقد وصلت إلى استنتاج مخيف، آنا لا يمكن أن تعيش في هذه الأسرة.

عقد حاجبيه:

-لكنهم كل ما لها في الحياة. هم كل ما تعرفه. ما هو الطفل دون أسرة؟

-ماذا لو وجد طائر صغير، ذو ريش نادر نفسه في عش خاطئ، أو أن أم الطائر حولت مخالبها الحادة نحو الفرخ؟ ثق بي، هؤلاء ليسوا عائلة حقيقية. لن

يحركوا حتى إصبعًا لإنقاذها.

أومأ بيرن برأسه. لكن هل كان مقتنعًا؟

قالت ليب:

-لقد رأيت طفلة تموت.. ولا أستطيع أن أكرر ذلك مرة أخرى.

-في مجال عملك..

-لا، أنت لا تفهم. كانت ابنتي. ابنتي.

حدّق بيرن بها. ولف ذراعيه حول ذراعيها بشدة.

-ثلاثة أسابيع وثلاثة أيام، هذه هي فترة مقاومتها. صراخ وبكاء وسعال. لا بد أنه كان هناك شيء ضار في حليب ليب، لأن الطفلة كانت ترفضه أو تبصقه، وما أن وصل إلى معدتها، جعلها تختنق كما لو كانت الرضاعة جرعة سحرية للموت وليس النمو!

لم يقل بيرن، **مثل هذه الأشياء تحدث**. لم يشر إلى أن خسارة ليب لم تكن سوى قطرة في محيط آلام البشرية. فقط سألها:

-هل كان ذلك عندما غادر رايت؟

هزت ليب رأسها: «لم يكن هناك شيء يستحق البقاء لأجله، هكذا وصف الأمر.» ثم أردفت: «لم يكن هناك ما يستحق أي اهتمام، في ذلك الوقت على الأقل».

هتف بها بيرن:

-هو لم يكن يستحقك!

لكن هذا لم يكن يتعلق بالاستحقاق. لم تستحق هي أن تفقد ابنتها؛ ليب كانت تعلم ذلك حتى في أصعب أيامها. لم تفعل شيئًا لا ينبغي فعله، ولم تترك شيئًا يجب عمله. القدر ليس له وجه واحد، والحياة تعتمد على الصدفة. الحياة كلها قصة يحكيها أحمق!

إلا في لحظات نادرة مثل هذه، عندما يمكن

للشخص أن يلمح طريقة لتغيير الوضع إلى الأفضل.

أتى على رأسها، سؤال الآنسة «ن»: **هل يمكنك أن تلقي بنفسك في المعركة؟**

أمسكت ليب بذراع بيرن كحبل. لم يكتمل القرار في عقلها حتى هذه اللحظة. قالت له:

-سآخذ آنا بعيدًا.

-إلى أين؟

-أي مكان خارج هذه البلدة. نظرت بعينيها نحو الأفق. أردفت: «كلما كان أبعد كان أفضل».

استدار بيرن ليواجهها:

-كيف سيقنع ذلك الطفلة بتناول الطعام؟

-لست متأكدة، ولا أستطيع أن أشرح ذلك، ولكنني أعلم أنها يجب أن تترك هذا المكان وهؤلاء الأشخاص.

قال بلهجته الساخرة:

-أنتِ تشترين الملاعق اللعينة!

لوهلة، ارتبكت ولم تفهم، ثم تذكرت مئات الملاعق في سكوتاري وابتسمت.

عاد بيرن، ليتحدث بطريقة مهذبة مرة أخرى:

-لنكن واضحين.. هل تعني أن تختطفي الفتاة؟

-أعتقد أنهم سيصفونها هكذا، ثم ظهر الخوف في صوتها: «ولكنني لن أجبرها».

-هل ستذهب آنا معك بمحض إرادتها إذن؟

-أعتقد أنها قد تفعل ذلك، إذا استطعت أن أعرض الأمر لها بالطريقة الصحيحة.

كان بيرن ذكيًا بما يكفي لعدم رفض الاحتمالات في هذا. سأل:

-وكيف تعتزمين السفر؟ هل ستستأجرين سائقًا؟

سيتم القبض عليك قبل أن تصلي إلى مقاطعة أخرى.

فجأة، شعرت ليب بالإجهاد يتملّكها، قالت:

-الاحتمال الأكبر هو أنني سأنتهي في السجن، وستموت آنا، ولن يحدث أي فرق.

-وعلى الرغم من ذلك، أنت تعتزمين المحاولة؟

جاهدت للرد:

-الغرق في المياه العميقة، أفضل من الوقوف مكتوف الأيدي على الشاطئ.

من سخرية الأقدار، أنها عندما تنفذ تعاليم الانسة «ن»، سيجعل ذلك معلمتها نفسها في ذهول، عندما تسمع أن أحد ممرضاتها اعتُقِلَت بتهمة الاختطاف! ولكن في بعض الأحيان، يحمل التعليم أكثر مما يعرفه المعلم!

ما قاله بيرن بعد ذلك، أصابها بالذهول:

-في هذه الحالة، يجب أن يتم ذلك هذه الليلة!

عندما وصلت ليب لبدء دوامها، في الساعة الواحدة صباحًا يوم السبت، كان باب غرفة النوم مغلقًا. الأخت مايكل وكيتي وعائلة أودونيل جميعهم راكعين في المطبخ. و»ملاخي «يحمل قبعته بيده.

توجهت ليب لفتح مقبض الباب.

صاحت روزالين:

-لا تفعلي ذلك.. السيد ثاديوس الآن يأخذ سر توبة آنا!

-توبة؟ هل هذه كلمة أخرى مرادفة للاعتراف؟

همست الأخت مايكل:

-جزء من الطقوس الأخيرة.

-هل آنا تحتضر؟! ترنحت على قدميها، وكادت أن تسقط.

طمأنتها الراهبة:

-هي ليست فقط «bona mors» لمساعدة المريض على إنهاء حياته بسلام.

-ماذا؟

-«bona mors» أي موت جيد، هذا هو المقصود. لكنها أيضًا لأي شخص في خطر. وحتى قد يستعيد المريض صحته، إذا كانت هذه هي مشيئة الله.

المزيد من الخرافات هنا!

فجأةً، دق الجرس عاليًا في الغرفة، وفتح السيد ثاديوس الباب، وقال: «يمكنكم جميعًا الدخول الآن للمسحة».

نهض الجميع من ركوعهم وتحركوا إلى داخل الغرفة بعد ليب.

كانت آنا مستلقية بدون البطانيات. الطاولة مغطاة بقماش أبيض عليه شمعة بيضاء سميكة، وصليب، وأطباق ذهبية، وورقة جافة من نوع ما، وكرات بيضاء صغيرة، وقطعة من الخبز، وأطباق من الماء والزيت، ومسحوق أبيض.

غمر السيد ثاديوس إبهام يده اليمنى بالزيت. وهمس: «من خلال هذا المسح المقدس ورحمة الله العظيمة.. ليغفر لك الرب كل ما ارتكبته من ذنوب بالبصر والسمع والذوق والشم واللمس والكلام والحركة» ثم لمس عيني آنا، وأذنيها، وشفتيها، وأنفها، ويديها، وأخيرًا، باطن قدميها المشوهتين.

همست ليب إلى الأخت مايكل: «ما الذي يفعله؟

قالت الراهبة في أذنها، وعيناها لا تفارق الكاهن: «يمسح أماكن الخطايا التي ارتكبتها بكل جزء من

جسدها».

أثار كلامها الغضب في داخل ليب. تساءلت: «ماذا عن الخطايا التي ارتكبت ضد آنا؟

ثم أخذ الكاهن صحن الكريات البيضاء ومسح كل نقطة من الزيت بواحدة منها. هل هي كريات من القطن؟ ثم وضع الصحن جانبًا، وفرك إبهامه على قطعة الخبز. «لعل هذا المسح المقدس يجلب العزاء والراحة». ثم قال للعائلة: «تذكروا، سيمسح الله كل دمعة من عيونكم».

صاحت روزالين أودونيل: «ليباركك الرب، يا سيد ثاديوس»!

ثم تابع الرجل بصوتٍ منغمًا كأنها أغنية: «سواء بعد وقت قليل، أو بعد الكثير من السنوات القادمة.. سنلتقي جميعًا مرة أخرى ولا ننفصل أبدًا، هناك حيث ينتهي الحزن والفراق».

قالوا جميعًا: «آمين».

غسل يديه في صحن الماء وجففها بالقماش.

توجه ملاخي أودونيل إلى ابنته وانحنى كأنه سيقبل جبينها. ولكنه توقف، كما لو أن آنا صارت مقدسة جدًا ولا يستطيع لمسها الآن. سألها: «هل تحتاجين إلى أي شيء، حبيبتي؟

قالت له وهي ترتجف: «فقط البطانيات، من فضلك يا أبي».

قام بتغطيتها حتى ذقنها.

جمع السيد ثاديوس كل أدواته في حقيبته، وأوصلته روزالين إلى الباب.

صاحت ليب إليه، وهي تعبر الغرفة: «انتظر، من فضلك، أحتاج إلى التحدث إليك».

أمسكت روزالين أودونيل بكم ليب بقوة حتى

تفتق مكان الخياطة. قالت: «نحن لا نعطل الكاهن في محادثة عبثية وهو يحمل القربان المقدس».

جذبت ليب نفسها بعيدًا عنها، وأسرعت خلفه.

في الفناء الخارجي، هتفت:

-سيد ثاديوس!

توقف الرجل وركل دجاجة كانت تنقنق بالقرب منه:

-ما الأمر؟

كان عليها أن تعرف ما إذا كانت آنا قد حدثته للتو عن خططها لفداء بات بحياتها. سألته:

-هل تحدثت آنا إليك عن أخيها؟

تجعّد وجهه الناعم، وقال:

-سيدة رايت، إن عدم معرفتك بعقيدتنا فقط، هو ما يبرر محاولتك لإجباري على انتهاك ختم الاعتراف.

-إذنْ فأنت تعلم!

-يجب أن تبقى مثل هذه المصائب داخل الأسرة، ولا ينبغي أن نُجر للحديث عنها. لم يكن ينبغي لآنا أبدًا أن تبدأ في مثل هذا الموضوع معكِ.

-ولكن إذا حاولت أن تقنعها، إذا شرحت لها أن الله لن يـــ...

علا صوت الكاهن مقاطعًا:

-لقد كنت أخبر الفتاة المسكينة لشهور بأن خطاياها قد غُفرت، وبالإضافة إلى ذلك، ينبغي لنا ألا نتحدث إلا بالخير عن الأموات.

حدّقت به ليب. **الأموات؟** لم يتحدث عن خطة آنا للتضحية بحياتها من أجل فداء شقيقها. **خطاياها؟** كان السيد ثاديوس يقصد ما فعله بات لها! «**لقد**

كنت أخبر الفتاة المسكينة لشهور»، هذا يعني أنه بعد انتهاء خدمة الإرسالية في الربيع، فتحت أنا قلبها للكاهن المسؤول في الأبرشية، وشاركته عن ارتباكها بشأن **الزواج السري**، وعن شعورها بالخجل. وعلى عكس روزالين أودونيل، كان الكاهن مستنيرًا بما فيه الكفاية ليصدق الفتاة. لكن العزاء الوحيد الذي قدمه لها، هو أن يخبرها بأن **خطاياها** قد غفرت، ولا ينبغي أن تذكرها مرة أخرى!

كان الكاهن قد بلغ منتصف الطريق، عندما استعادت ليب نفسها. شاهدته وهو يختفي حول السياج. ثرى كم من هذه المصائب، وكم من الأسر الأخرى التي يستر عليها السيد ثاديوس؟ هل هذا كل ما استطاع عمله مع معاناة الطفلة؟

بداخل الكوخ المليء بالدخان، كانت كيتي تلقي بمحتويات الصحون الصغيرة في النار: الملح، الخبز، حتى الماء الذي طرطش بشدة.

سألت ليب:

-ما الذي تفعلينه؟

-عليهم آثار من زيت الصلاة المقدس؛ لذا لا بد أن يُدفنوا أو يُحرقوا.

فقط في هذا البلد يمكن للشخص أن يحرق الماء!

كانت روزالين أودونيل تضع علب الشاي والسكر على رف مغطى بورق ومثبت في الجدار.

سالت ليب:

-ماذا عن الدكتور ماكبرارتي؟ هل فكرت في استدعائه قبل الكاهن؟

-ألم يكن هنا في الصباح؟

أجابتها روزالين دون أن تلتفت نحوها. أما كيتي، فقد شغلت نفسها بخبز الشوفان المحترق.

استمرت ليب:

-وماذا قال عن آنا؟

-هي الآن بين يدي الله.

خرج صوت خافت من كيتي؛ تُرى هل كانت تبكي؟

تمتمت روزالين بتذمر:

-ألسنا جميعًا بين يدي الله!

صعق ليب الغضب كصدمة كهربائية، غضب من الطبيب، والأم، والخادمة، وأعضاء اللجنة.

لكنها ذكرت نفسها بأن لديها مهمة، ولن تسمح لأي شيء بأن يلهيها عن ذلك. قالت لكيتي بصوت هادئ قدر المستطاع:

-هل القداس الخاص هذه الليلة، سيكون في الساعة الثامنة والنصف؟ كم تستمر هذه الطقوس؟

-لا أستطيع الكلام.

-أطول من المناسبات العادية؟

-أوه، أطول بكثير.. ساعتان، ربما، أو ثلاث.

أومأت ليب وكأنها سعيدة بالأمر، قالت، «كنت أفكر في البقاء لوقت متأخر الليلة، حتى تتمكن الأخت مايكل من مرافقتكم جميعًا إلى القداس.

قالت الراهبة، وهي تظهر في باب الغرفة.

-لا داعي لذلك!

-لكن يا أخت مايكل..

بدا الذعر في حنجرة ليب. فكرت بحالها، ثم استدرت نحو ملاخي أودونيل، الذي كان يتأمل في جريدة بالقرب من الموقد.

-ألا يجب على الأخت مايكل أن تذهب أيضًا، لأن الطفلة تُحبها كثيرًا؟

-بلى!

ترددت الراهبة، وقد عقدت حاجبيها.

قالت روزالين أودونيل:

-نعم، يجب أن تكوني هناك معنا، يا أخت مايكل.

قالت الراهبة. وعيناها لا تزال مشوشتين:

-بكل سرورا!

اتجهت ليب بسرعة إلى الغرفة قبل أن يغيروا رأيهم.

-يوم سعيد، يا آنا! كان صوتها مليئًا بالارتياح بشكل غريب، لأنها أخيرًا، نجحت في إقناعهم ببقائها لوقت متأخر.

قالت آنا: «يوم سعيد، يا سيدة ليب». كان وجهها شاحبًا ونحيفًا، حركتها خاملة، كما لو كان كاحليها السميكان تربطانها بالسرير، باستثناء رعشة بين الحين والآخر. ونفسها صاخبًا.

-هل تريدين شرب قليلًا من الماء؟

هزت رأسها.

نادت كيتي لتحضر بطانية أخرى. كان وجه الخادمة جامدًا وهي تعطيها البطانية.

«تجلدي» أرادت ليب أن تهمس في أذن آنا. **«انتظري قليلًا، فقط حتى حلول الليل»**. لكنها لم تستطع أن تخاطر بقول كلمة، ليس الآن على الأقل.

هذا أبطأ يوم عرفته ليب. ومع ذلك، كان في المنزل نوع من الحركة في سكون. عائلة أودونيل وخادمتهم يتحركون في المطبخ ويتهامسون بأصوات حزينة، يتطلعون على آنا بين الحين والآخر. أما ليب راحت تمارس عملها؛ رفعت آنا على وسائد، وبللت شفتيها بقطعة قماش. كانت أنفاسها تتسارع بشدة.

في الرابعة، أحضرت كيتي وعاءً به خضار مطبوخ.

أجبرت ليب نفسها على تناوله.

سألت الخادمة الطفلة بصوت به بهجة غير مناسبة للموقف: «هل ترغبين في شيء ما، يا عزيزتي؟ رفعت لعبة الطفلة وقالت:

-شيء خاص بك؟

-أرني، إياها يا كيتي.

قامت الخادمة بشد الحبال وجعلت الطائر يظهر في القفص، ثم يطير حرًا.

أخذت آنا نفسًا عميقًا. قالت: «يمكنكِ أن تأخذيه».

بدى الحزن على وجه الشابة. لكنها لم تسأل ماذا تعني آنا، فقط وضعت اللعبة جانبًا. سألتها: «هل تريدين صندوق الكنز على ركبتكِ؟

رفضت آنا برأسها.

ساعدت ليب الفتاة في الارتفاع قليلًا على الوسائد. سألتها: «أتريدين ماءً؟

هزت رأسها مرة أخرى بالرفض.

عند النافذة، قالت «كيتي»: «إنه ذلك الرجل المصور، يتجول مرة أخرى».

قفزت ليب على قدميها، ونظرت فوق كتف الخادمة. رأت العربة بها لافتة مكتوب عليها: **رايلي وأبناءه للتصوير الفوتوغرافي**. لم تسمع صوت الأحصنة تجر العربة. يمكنها تخيل كيف سيقوم «رايلي» بترتيب المشهد ببراعة لالتقاط الصورة على فراش الموت: ضوء خافت من الجانب، الأسرة تتجمع وتجثو حول سرير آنا، والممرضة بزيها الرسمي في الخلف وتحنى رأسها للأمام.

بدت كيتي متفاجئة، ولكنها لم تجادل، غادرت الغرفة.

تطلعت آنا نحو صندوقها، وتمتمت: «بطاقاتي

المقدسة وكتبي وأغراضي».

سألتها ليب. «هل تريدين رؤيتها؟

هزت رأسها. قالت: «إنها لأمي. بعدي».

أومأت ليب برأسها. وفكرت، يبدو أنه كان هناك نوع من العدالة السماوية، حيث أن القديسين الذين على البطاقات الورقية واقفين لحماية طفلة من اللحم والدم. في حين تدفع روزالين أودونيل ابنتها نحو القبر طوال الوقت، ربما منذ وفاة بات في نوفمبر الماضي؟

بمجرد أن تفقد المرأة آنا، ربما تستطيع أن تحبها بلا عناء. فعلى عكس الابنة الحية، ستكون الابنة الميتة خالية من العيوب. هذا ما اختارته روزالين أودونيل. قالت ليب لنفسها: هذا اختيارها لتكون الأم الحزينة والفخورة لأن لديها اثنان من الملائكة.

بعد خمس دقائق، ابتعدت عربة «رايلي» ببطء. فكرت ليب وهي تنظر من النافذة: **«إنه سيعود»**. وستكون الصورة القادمة للوفاة أسهل حتمًا.

بعد ساعة، دخل ملاخي أودونيل وركع بصعوبة بجوار السرير حيث كانت ابنته تغفو. ضم يديه بشدة، لدرجة جعلتها تُشكل بقعًا بيضاء على الجلد الأحمر، تمتم بالصلاة الربانية.

راقبت ليب رأسه الرمادي المنحني، ترددت وهي تفكر أن هذا الرجل ليس لديه من الشرَ ما عند زوجته، ولكنه يحب آنا بطريقته السلبية. لو يُفيق من غفوته، ليقاتل من أجل ابنته... ربما يجب أن تمنحه ليب فرصة أخيرة!

جعلت نفسها تحوم حول السرير، وانحنت نحو أذنه. قالت: «عندما تستيقظ ابنتك، اطلب منها أن تأكل، من أجل خاطرك».

لم يعترض، فقط راح يهز رأسه. قال:

-سيخنقها ذلك، بالتأكيد.

-هل سيخنقها شرب الحليب؟ لكنه نفس قوام الماء.

-لا أستطيع فعل ذلك.

-لم لا؟

-لن تفهمي، يا سيدتي.

-إذنْ اجعلني أفهم!

تنهد ملاخي بأنفاس طويلة ومتقطعة. قال:

-لقد وعدتها.

نظرت ليب بدهشة:

-وعدتها بأنك لن تطلب منها أن تأكل؟ متى حدث هذا؟

-قبل أشهر.

الفتاة الذكية؛ غلّت أيدي والدها المحب. قالت ليب:

-لكن هذا عندما كنت تعتقد أنها قادرة على العيش بدون طعام، أليس كذلك؟

إيماءة كئيبة. أردفت ليب:

-كانت صحتها جيدة في ذلك الوقت. انظر إليها الآن!

همس قائلًا:

-أعلم. لكنني، وعدت ألا أطلب ذلك أبدًا.

من يعطي وعدًا من هذا النوع إلا إنسان غبي! ذكّرت ليب نفسها، لن يكون من الجيد إهانة الرجل. الأفضل التركيز على الحاضر. أردفت: «وعدك يقتلها الآن. بالتأكيد هذا يلغي الوعد!

تلوى الرجل وقال:

-إنه وعد سري وله قدسية، لقد أقسمت على الكتاب المقدس، يا سيدة رايت.. أقول لك هذا فقط حتى لا تلومينني!

-لكنني ألومك.. ألومكم جميعًا.

انحنى رأس ملاخي كما لو كان ثقيلًا جدًا على عنقه. بدا مثل ثور طائش.

أدركت ليب أنه شرير بطريقته السلبية؛ لا يهمه أي عواقب سيواجهها في مقابل عدم كسر وعده لابنته. يفضل أن يرى آنا تموت قبل أن يحنث بوعده لها.

انسالت دمعة على خده غير المحلوق، قال:

-بالتأكيد لا زال عندي أمل.

-أي أمل، أن تطلب آنا فجأة الطعام؟

-كان هناك فتاة أخرى ميتة تمامًا في سريرها، عمرها أحد عشر عامًا.

تساءلت ليب، هل كانت هذه جارة لهم؟ أم قصة في الصحف؟

قال ملاخي، وهو يبتسم تقريبًا: «وهل تعرفين ما قاله ربنا للأب؟ لا تخف. لا تخف، فقط آمن، وستكون ابنتك سالمة».

أعربت ليب عن اشمئزازها وأعتراضها.

تابع ملاخي: «قال يسوع إنها كانت نائمة فقط، وأخذ بيدها.. ألم تقم وتناولت عشاءها؟

يبدو أن الرجل في حلم عميق جدًا، لن تستطيع ليب أن توقظه منه. كان يتشبث ببراءته، يرفض أن يعرف أو يسأل أو يفكر أو يستفسر عن الوعد الذي قطعه لابنته، هو لا يفعل أي شيء. بالتأكيد أن تكون أبًا، يعني أن تتحرك وتأخذ قرارًا، سواء كان صحيحًا أو خاطئًا، بدلًا من انتظار حدوث معجزة! هو مثل زوجته - التي كان يختلف كثيرًا عنها - يستحق

فقدان ابنته!

الشمس الباهتة تميل للانخفاض في السماء. ألن تغيب أبدًا؟

في الساعة الثامنة. كانت آنا ترتجف. وتتمتم. «لتكن مشيئتك. لتكن مشيئتك».

طلبت ليب من كيتي أن تدفئ أقمشة من الصوف عند النار في المطبخ ثم وضعتها فوق آنا، غطتها من كلا الجانبين. استنشقت رائحة نفاذة. لكنها قالت: «كل جزء متشوه أو نحيل أو منتفخ، كل بوصة من الفتاة الحقيقية والميتة، أنا أقدركِ».

سألت روزالين أودونيل وهي تدخل الغرفة وتحوم حول ابنتها: «هل ستكونين بخير إذا ذهبنا إلى القداس، يا حبيبتي؟

أومأت آنا بالرأس.

سأل الأب عند الباب: «هل أنتِ متأكدة الآن؟

همست الفتاة: «اذهبوا».

فكرت ليب: «اخرجوا، اخرجوا»!

ولكن، بعد أن خرج الزوجان، أسرعت وراءهم وقالت بصوت منخفض: «قولوا لها وداعًا»!

حدّق بها الزوجان. همست ليب: «يمكن أن يحدث في أي وقت الآن»!

«ولكن..»

«يأتي دائمًا بدون سابق إنذار».

بدا وجه روزالين وكأنه قناع ممزق. عادت إلى جانب السرير. قالت:

«ربما لا ينبغي لنا الخروج الليلة، يا حبيبتي».

لعنت ليب نفسها الآن. كانت فرصتها الوحيدة، إنه الوقت الوحيد الممكن لتنفيذ خطتها المرعبة، وقد

أضاعته. هل كانت تنقصها الشجاعة؟ هل هذا هو الأمر؟

لا، بل يتعلق الأمر بالذنب، بسبب ما كانت تنوي فعله. كل ما تعرفه، هو ضرورة السماح للوالدين بوداع ابنتهما بشكل لائق.

ارتفع رأس آنا بثقل من السرير، قالت: «انطلقي، يا أمي.. اذهبوا إلى القداس من أجلي».

«هل سنفعل؟

«قبّليني»، وصلت يديها المتورمة نحو رأس والدتها.

وسمحت روزالين بأن تجذب ابنتها رأسها إلى أسفل. طبعت قبلة واحدة على جبين آنا. قالت: «وداعًا الآن، يا عزيزتي».

جلست ليب تقلب صفحات « All the Year Round» باهتمام؛ حتى لا يخمن أحدهم مدى رغبتها في أن ينتهي هذا.

انحنى ملاخي فوق زوجته وابنته.

«صلِ من أجلي، يا أبي».

«أفعل دائمًا»، ثم قال بصوت مليء بالدموع. «سنراكِ لاحقًا».

أومأت آنا، ثم أسقطت رأسها على الوسادة.

انتظرت ليب حتى دخلوا المطبخ. سمعت أصواتهم وصوت كيتي. ثم صوت الباب الأمامي الثقيل. ثم ساد هدوء مريح. الآن بدأت المهمة.

راقبت صدر آنا الصغير يرتفع وينخفض. استمعت إلى صوت زفير رئتيها الصغيرتين.

أسرعت إلى المطبخ الفارغ ووجدت علبة حليب. شمت رائحتها لتتأكد من أنها طازجة تمامًا، ووجدت زجاجة نظيفة. ملأت نصف الزجاجة بالحليب، ثم

أغلقتها بفلينة واختارت ملعقة من العظم. كان هناك كعكة شوفان مهملة أيضًا؛ كسرت جزءًا منها. ولفت كل شيء في منديل.

عادت إلى غرفة النوم، وجلست على مقعدها بجوار آنا. هل من الغرور أن تعتقد أنه يمكنها النجاح حيث فشل الجميع؟ تمنت لو كان لديها المزيد من الوقت، والقوة لإقناع أكبر. **(يا الله، إذا كنت حقًا موجود، فعلّمني كيف أتكلم بلسان الملائكة)**. قالت:

آنا.. اصغي إليّ. لديّ رسالة لك.

-ممّن؟

أشارت ليب إلى أعلى. وهي ترفع عينيها أيضًا، كما لو كانت ترى رؤى على السقف.

-لكنكِ لا تؤمنين!

-لقد غيّرتني! قالتها ليب وهي تشعر بصدق الكلمة. ثم أردفت: «ألم تخبريني يومًا أنه يمكن له أن يختار أي شخص؟

-نعم، هذا صحيح.

-إليك الرسالة: ماذا لو بإمكانك أن تكوني فتاة أخرى بدلًا من نفسك؟

اتسعت العيون.

-إذا استيقظت غدًا ووجدت أنك شخص آخر، طفلة لم ترتكب شيئًا خاطئًا، هل ستحبين ذلك؟

أومت آنا برأسها كطفلة صغيرة.

رفعت ليب الزجاجة بجدية كأي كاهن في الكنيسة، قالت:

-حسنًا، هذا حليب مقدس.. هدية خاصة من الله لك.

لم تغمض الفتاة جفنها.

ما منح الإقناع لنبرة ليب هو أن كل شيء كان صحيحًا: ألم تشرق الشمس المباركة على العشب المبارك، وألم تأكل البقرة المباركة العشب المبارك، وألم تعطي الحليب المبارك من أجل عجلها الصغير المبارك؟ ألم يكن كل ذلك عطية الله؟ في أعماقها، كلما تذكرت ليب بكاء ابنتها، تشعر كأن حليبها يتدفق.

واصلت كلامها: «إذا شربت هذا، لن تكوني أنا أودونيل بعد الآن. ستموت آنا الليلة، وسيقبل الله تضحيتها ويستقبلها هي وبات في السماء.

لم تحرك الفتاة عضلة واحدة. وجهها جامد.

«ستكونين طفلة أخرى، جديدة. في اللحظة التي تتناولين فيها ملعقة من هذا الحليب المقدس، طفلة لديها قوة تكفي لبدء حياتك من جديد». بدأت ليب تتسارع الآن، حتى أنها كانت تتلعثم في الكلمات. تابعت، «ستكونين فتاة تدعى نان، تبلغ ثمانية أعوام فقط وتعيش بعيدًا جدًا عن هنا».

كانت نظرة آنا مظلمة.

هنا حيث كل شيء سينهار. بالطبع كانت الفتاة ذكية بما يكفي لرؤية هذا الخيال، إذا اختارت ذلك. كل ما استطاعت ليب المراهنة عليه، هو رغبتها الملحة بأن آنا يجب أن تكون بحاجة إلى أي مخرج، تتوق إلى قصة مختلفة، لتجربة شيء مستبعد مثل ربط قطعة قماش على شجرة معجزات.

مرت لحظة، ثم أخرى، وثالثة. لم تتنفس ليب.

أخيرًا، أضاءت العيون الثقيلة كالألعاب النارية.

«نعم».

هل أنت مستعدة؟

همست: «ستموت آنا؟ هل هذا وعد؟

أومت ليب بالرأس. «ستموت آنا أودونيل الليلة».

لم يخطر في بالها أن الفتاة - التي كانت عقلانية وذكية جدًا - ربما تظن أن ليب كانت تعطيها سمًا.

بات وآنا معًا في السماء»

نعم، فما كان إلا صبيًا جاهلًا ووحيدًا رغم كل ما حدث؟ **بائس ومنفي من ذرية حواء.**

«نان» كررت آنا الاسم بسعادة بالغة، «ثمانية أعوام. بعيدًا جدًا، بعيدًا جدًا».

«نعم».

كانت ليب واعية تمامًا أنها تستغل طفلة على فراش الموت. لم تكن صديقة الفتاة في هذه اللحظة؛ بل بالحري مثل معلم غريب. قالت: «ثقي بي».

عندما قدمت ليب زجاجة الحليب وملأت الملعقة، ابتعدت آنا قليلًا.

لم يكن هناك أي مجال للإقناع الآن، بل فقط صرامة. «هذا هو الطريق الوحيد» ما الذي قاله بيرن عن الهجرة؟ «إنها ثمن لحياة جديدة». «اسمحي لي بإطعامك. افتحي فمك». ليب كانت هنا تمثل المغوي، الشرير، الساحرة. مثل هذا الضرر الذي سيسببه ليعيد روح آنا مرة أخرى إلى جسدها. مثل هذا الاحتياج، ومثل هذا الشوق والألم، والمخاطر والندم، كل هذه الفوضى غير المقدسة للحياة.

«انتظري»! قالتها الفتاة ورفعت يدًا واحدة.

انتفضت ليب من الرعب. **الآن، وساعة موتنا.**

قالت آنا: «صلاة النعمة.. يجب أن أقول صلاة النعمة أولًا».

النعمة لتناول الطعام، تذكرت ليب الكاهن وهو

يصلي من أجل ذلك. **امنحها النعمة.**

أحنت الطفلة رأسها. وتمتمت: **«باركنا يا رب وبارك عطيتك التي نستعد لنتناول منها، آمين»**

ثم فتحت شفتاها المتشققة للملعقة، بكل بساطة.

لم تقل ليب كلمة بينما تسكب السائل في فم الفتاة. راقبت الحنجرة تتحرك كالموج. كانت مستعدة للاختناق، والقيء، والتشنجات، أو الانقباضات.

ابتلعت آنا. بهذه البساطة، تم كسر الصيام.

الآن قطعة صغيرة من كعك الشوفان. قدر ما استطاعت ليب أن تمسكه بين إصبعيها. وضعته على اللسان الأرجواني وانتظرت حتى ابتلعته.

همست: «ماتت آنا، ماتت آنا».

«نعم، ماتت آنا». وضعت ليب كفها على وجه الفتاة وأغلقت الجفون المتورمة.

انتظرت لحظة طويلة. ثم هتفت بها: «استيقظي، يا نان. حان الوقت لبدء حياتك الجديدة».

فتحت الطفلة عينيها الرطبتين.

ستتحمل ليب كل اللوم على جذب هذه الفتاة الرائعة مرة أخرى إلى أرض المنفى، مرة أخرى تُثقل روحها، وتثبتها إلى الأرض الرديئة. «بسبب خطئي أنا بسبب خطئي أنا»!

كانت ليب تود إعطائها المزيد من الطعام على الفور، لتملأ هذا الجسم المحروم من الطعام منذ أربعة أشهر. لكنها تعرف خطورة إرهاق المعدة. لذا وضعت الزجاجة والملعقة في مئزرها مع قطعة الكعك ولفتهم في المنديل.

بالتدريج؛ يجب أن يكون طريق الخروج من هذا المنجم طويل كما هو حال الدخول فيه. ربتت جبين

الفتاة بخفة شديدة. قالت: «هيا، يجب أن نذهب الآن».

ارتجفت وهي تسأل، هل كانت تفكر في العائلة التي ستتركها وراءها؟ ثم هزت رأسها ومضت.

لفتت ليب الفتاة بثوب دافئ من الخزانة، ووضعت زوجين من الجوارب على القدمين المشوهتين بالإضافة إلى حذاء أخيها، ووضعت القفازات على يديها، وثلاثة شالات على جسمها، مما جعلها حزمة ضخمة من الملابس.

فتحت الباب إلى المطبخ، ثم نصفي الباب الأمامي للكوخ. ظهرت الشمس بلون الدماء في جهة الغرب. كان المساء دافئًا، وليس هناك صوت سوى صوت دجاجة واحدة في الفناء.

عادت ليب إلى غرفة النوم وحملت الطفلة. ليست ثقيلة على الإطلاق. (فكرت في طفلتها الصغيرة، ذلك الوزن الصغير بين ذراعيها، خفيفة كرغيف الخبز) ولكن مع حمل الفتاة وهي تسير بجانب المنزل، شعرت بارتجاف ساقيها.

ثم كان ويليام بيرن فوق فرسه، ظاهرًا في الظلام. وعلى الرغم من أن ليب كانت تنتظره، إلا أنها قفزت عندما رأته. هل كانت تفقد الثقة في أنه سيكون هناك كما وعد؟

قال: «عمت مساءً، يا صغيرة..»

«نان»، قاطعته ليب قبل أن يفسد الأمور بذكر الاسم القديم. أردفت: «هذه نان. لا عودة الآن».

فهم بيرن بسرعة، قال:

-عمت مساءً، يا نان.. سنأخذ رحلة على ظهر بولي. أنت تعرفين بولي، أظن ذلك. لن تشعري بالخوف».

فقط إيماءة بعينيها المتورمة، لم تقل الفتاة شيئًا

على الإطلاق، فقط تتنفس بصعوبة وتشبث بكتفي ليب.

قالت ليب: «كل شيء على ما يرام، يا نان، يمكننا أن نثق بالسيد بيرن». التقت عيناه بعينيها. أردفت «سيأخذك إلى مكان آمن وسينتظر معك، وسأكون معك في وقت قريب».

هل ما تقوله صحيحًا؟ هل هي صادقة، إذا كان ذلك كافيًا؛ فهي تريده بكل ما تملك.

قفز بيرن إلى السرج وانحنى لالتقاط الفتاة. اشتمت ليب رائحة الحصان. سألته، لتؤجل ذهابهما لحظة أخرى: «هل شُوهِدت وأنت تغادر هذا العصر؟

أومأ وهو يقرع حقيبته. «نعم بينما كنت أحزم السرج، اشتكيت إلى رايان بأنني تم استدعائي بسرعة إلى دبلن».

أخيرًا، تركت ليب حملها.

تشبثت الفتاة بها بقوة قبل أن تُفارقها.

وضع بيرن الفتاة في السرج أمامه. طمأنها: «كل شيء على ما يرام، نان».

أمسك بزمام الفرس بيد واحدة ونظر إلى ليب بطريقة غريبة، كما لو أنه لم يراها من قبل. لا، فكرت هي، أنه ينظر إليها كما لو أنه.. يراها للمرة الأخيرة ويريد أن يحفظ ملامحها. إذا فشلت خطتهم، فقد لا يلتقيان مرة أخرى!

لفت الطعام في حقيبته.

همس: «هل أكلت؟

أومأت ليب.

ابتسامته أنارت السماء المظلمة.

همست. «ملعقة أخرى بعد ساعة». ثم اشرأبت على أصابع قدميها وقبلت الجزء الوحيد الذي أمكنها

الوصول إليه، الجزء الدافئ من ظهر يده. ربتت على الطفلة من فوق البطانية. قالت: «قريبًا جدًا، يا نان». ثم أعطت لهما ظهرها.

عندما أصدر بيرن صوتًا وتحرك بولي عبر الحقل - صار بعيدًا عن القرية - نظرت ليب إلى الوراء ورأت المشهد للحظة كما لو كان في لوحة؛ الحصان وراكبيه، والأشجار، والشرائط البالية في الغرب. حتى المستنقعات وما بها من الماء. هنا، في ريف أوساط البلاد، ظهر نوع من الجمال.

عادت مسرعة إلى الكوخ، تحسست جيبها لتتأكد من أن دفتر الملاحظات ما زال في مئزرها.

أولًا، أسقطت الكراسي في غرفة النوم. ثم أسقطت حقيبتها الخاصة بما فيها من معدات، وركلتها نحو الكراسي. أخذت كتابها **«ملاحظات حول التمريض»** لكنها أجبرت نفسها على رميه على كومة الأشياء، سقط مفتوحًا كأجنحة طائر. لا شيء يمكنها أن تحتفظ به إذا أرادت أن تكون قصتها مقنعة: عمل سريع وفعال وقت الفوضى.

ثم دخلت المطبخ وحصلت على زجاجة الويسكي من الزاوية بجوار النار. سكبتها فوق الوسائد وأسقطت الزجاجة. التقطت عبوة الوقود المشتعل وسكبت كمية منها فوق السرير، والأرض، والحائط، والخزانة مع صندوق آنا الصغير المائل مفتوحًا، يكشف كنوزه. وضعت الغطاء مرة أخرى على العلبة بشكل غير محكم تمامًا.

الآن، تنبعث منها رائحة سائل الاشتعال من يدي ليب. كيف ستفسر ذلك لاحقًا؟ فركت يديها بقوة على مئزرها. بعد ذلك لا يهم. هل كل شيء جاهز؟ **لا تخشى. آمن فقط، وستكون آمنًا.**

أمسكت ببطاقة مزينة بالدانتيل من صندوق الكنز

الخاص بـانا عليها صورة - قديسة لم تكن تعرفها - وأشعلتها في مدخنة المصباح، اشتعل اللهب، وظهر الشخص المقدس محاطًا باللهب. **تطهري بالنار، التطهير بالنار فقط.**

هبت النيران في الفراش، طقطق صوت احتراق الأثاث القديم بشكل متقطع. واشتعل السرير. شعورها بالحرارة على وجهها ذكرها بالنيران المشتعلة في الاحتفال بالألعاب النارية.

لكن هل ستندلع النيران في الغرفة بأكملها؟ هذه كانت فرصتهم الضئيلة الوحيدة للإفلات من المؤامرة. هل السقف الذي شهد ثلاثة أيام من أشعة الشمس كان جافًا بما يكفي؟ نظرت ليب بغضب إلى السقف المنخفض. بدت العوارض القديمة قوية جدًا، والجدران السميكة قوية للغاية. لا شيء آخر يمكن فعله؛ اهتز المصباح في يدها، ورمته في العوارض.

فأمطر الزجاج والنيران.

ركضت ليب عبر ساحة المزرعة، ورداؤها مشتعل يغطي وجهها، كتنين لا يمكنها الإفلات منه. صارعته بيديها. كانت صرختها تبدو كأنها تأتي من فم آخر. تعثرت عن الطريق وألقت نفسها في حضن الطين الرطب.

كانت الأمطار تهطل طوال الليل. أرسلت شرطة المنطقة رجلين من أثلون، على الرغم من أنه كان يوم السبت؛ في الوقت الحالي كانوا يفتشون في بقايا الموحلة لكوخ أودونيل.

كانت ليب تنتظر في الممر خلف دكّان المشروبات الروحية، يديها المحترقة ملفوفة بضمادات، وكانت تنبعث منها رائحة المراهم. فكرت وهي في دوامة الإرهاق، أن كل شيء متوقف على المطر. على متى

بدأ المطر الليلة الماضية. هل أخمد النار قبل أن تسقط العوارض؟ هل تحولت غرفة النوم الضيقة إلى رماد لا يمكن فك شفراته، أم أنها تروي - قصة واضحة كالنهار - عن طفلة مفقودة؟

الألم. لم يكن هذا ما أثر في ليب. بل الخوف - على نفسها بالطبع - ولكن أيضًا على الفتاة. (نان، كانت تسميها هكذا في رأسها، وتحاول التعود على الاسم الجديد)، لقد وصلت مرحلة من الجوع يصعب العودة منها. نسي جسمها كيفية التعامل مع الطعام؛ تقلصت الأعضاء. أو ربما كانت رئتا الطفلة الصغيرة قد تعبتا لوقتٍ طويل، أو قلبها صار مجهدًا. تمنت ليب في رأسها: «**من فضلك دعها تستيقظ هذا الصباح**». سيكون ويليام بيرن هناك للعناية بها، في أكثر مكان مجهول يعرفه في شوارع أثلون. هذا ما خططا له هو وليب. «**رجاءً، نان، تناولي رشفة أخرى، وقضمة أخرى صغيرة**».

خطر ببال ليب أن الأسبوعين قد انتهيا. كان الأحد دائمًا هو اليوم الذي يتقدم فيه الممرضون بتقاريرهم إلى اللجنة. قبل أسبوعين، وهي ما زالت حديثة الوصول، تخيلت نفسها تبهر أهل البلدة بتقريرها الدقيق عن كشف الاحتيال. لم تتخيل نفسها بهذا الشكل: ملطخة بالرماد، معاقة، ترتعش.

لم تكن تتوهم حول الاستنتاجات التي من المرجح أن يتوصل إليها أعضاء اللجنة. لو أمكنهم ذلك، فسيجعلون فسيحملون المسؤولية للمرأة الأجنبية. ولكن ما هي التهمة بالضبط؟

إهمال؟ حريق متعمد؟ جريمة قتل؟ أو.. إذا تحققت من الشرطة من عدم وجود أي أثر لجثة في بقايا الطين المحترق، ربما يكون هناك تهمة اختطاف أو احتيال.

لقد أخبرت بيرن: «سأنضم إليكما في أثلون غدًا أو بعد غد». هل خدعته طريقتها الواثقة؟ كانت تتمنى لو لم يُخدع. هو مثل ليب، كان يتظاهر بالشجاعة، لكنه يعرف أن هناك احتمالًا قويًا لأن ينتهي بها المطاف وراء القضبان. سيغادر هو والفتاة على متن السفينة كأب وابنه، ولن تفصح ليب بكلمة عن وجهتهم.

فحصت دفترها بغلافه المحروق. هل كانت التفاصيل النهائية مقنعة؟

السبت، 20 أغسطس، 8:32 مساءً

***نبض: 139.**

***الرئتين: تنفس 35؛ رطوبة تحدث خشخشة.**

***لا بول طوال اليوم.**

***لم تتناول الماء.**

***شحوب.**

8:47: هذيان.

8:59: صعوبة شديدة في التنفس، انتظام في دقات القلب.

9:07: الوفاة

-السيدة رايت.

حاولت ليب إغلاق الكتاب بسرعة.

وقفت الراهبة بجوارها، وأسفل العيون بشرة داكنة. سألتها: «كيف حال الحروق صباح اليوم؟

قالت ليب: «هذا ليس مهمًا».

كانت الأخت مايكل هي التي وجدت ليب الليلة الماضية، بعد أن عادت من القداس، وقامت بسحبها من الطين، وأخذتها مرة أخرى إلى القرية، وقامت بتضميد يديها. كانت ليب في حالة سيئة، ليس هناك

حاجة إلى التمثيل وادعاء غير ذلك.

«أخت مايكل، لا أعرف كيف أشكرك».

أومأت برأسها، ونظرت إلى الأسفل.

واحدة من الأشياء الكثير التي كانت تعذب ضمير ليب، هو أنها كانت ترد محبة الراهبة بالقسوة. ستقضي الأخت مايكل المتبقي من حياتها، وهي مقتنعة بأنهما كانا سببًا في وفاة آنا أودونيل، أو على الأقل فشلا في منعه.

حسنًا، لا يمكن تجنب عذاب الضمير. لكن كل ما يهم هو الفتاة.

للمرة الأولى، تستوعب ليب الأمومة المثالية. فكرت أنه إذا حدثت معجزة اليوم، ونجحت في الهروب إلى تلك الغرفة في أثلون، حيث ينتظرها ويليام بيرن، ستصبح أمًا للفتاة، أو أقرب شيء إلى ذلك.

«خذني كطفلك»، هل كانت هكذا كلمات الترنيمة؟

في الوقت القادم، إذا أرادت «نان» - التي كانت في يوم من الأيام آنا - أن تلوم شخصًا ما، ستكون ليب هي الملامة. لأن جزء من أمومتها، كان تحمل مسؤولية دفع الطفلة خارج الظلام الدافئ إلى سطوع الحياة الجديدة المروعة.

سار السيد ثاديوس بجانب السيد «أوفلاهيرتي». اختفت الإشراقة عن وجه الكاهن، وظهر عليه علامات التقدم في العمر. وأومأ إلى الممرضات، بوجه حزين ومهموم.

قالت ليب للراهبة:

-لا داعي لأن تستجوبك اللجنة، أنت لا تعرفين شيئًا». كان هذا تصريحًا صادمًا للغاية. لذا أردفت: «أعني، لم تكوني هناك - لقد كنت في الكنيسة - في

نهاية الأمر.

رسمت الأخت مايكل علامة الصليب. قالت:

-ليرحمها الرب، هذه الصغيرة!

وقفنا جانبًا لإفساح المجال لمرور البارون.

قالت ليب، وهي تتجه نحو الغرفة الخلفية:

-لا يجب أن أجعلهم ينتظرون!

لكن الراهبة وضعت يدها على ذراع ليب، فوق الضمادة. قالت:

-من الأفضل ألا تفعلي أو تقولي أي شيء حتى يطلبون منكِ ذلك. التواضع، يا سيدة رايت، التواضع والتوبة.

قالت ليب: «التوبة؟ كان صوتها عاليًا جدًا. أردفت: «أليس عليهم هم أن يتوبوا؟

همسَت الراهبة: «طوبى للودعاء».

-ولكن أخبرتهم، قبل ثلاثة أيام..

اقتربت الراهبة أكثر، تكاد شفتيها تلامس أذن ليب. قالت: «تكلمي بتواضع، يا سيدة رايت، وربما سيتركونكِ تذهبين».

كانت هذه نصيحة جيدة.

أغلقت ليب فمها. مر السيد جون فلين بخطوات ثابتة، وجهه مليء بالخطوط العميقة.

لكن ما العزاء الذي يمكن أن تقدمه ليب للأخت مايكل بالمقابل؟

سألت الأخت مايكل: «هل أنا كانت... كيف كانت في ذاك اليوم؟ هل كانت وفاتها جيدة؟ هل أسلمت الروح بمحض إرادتها؟ دون مقاومة؟

كان هناك اضطراب في تلك العيون الكبيرة، حتى ولو لم تتخيل ليب ذلك. يوجد شيء أكثر من مجرد

البؤس؛ هل كان الشك؟ أو حتى الارتياب؟!

خرجت الكلمات من حنجرتها بصعوبة: «بمحض إرادتها تمامًا»، ثم أكدت ليب للراهبة: «كانت مستعدة للرحيل».

اندفع الطبيب ماكبرارتي عبر الممر، يبدو على وجهه الرعب، يلهث كأنه يركض. لم يتوقف طويلًا ليلقي نظرة إلى الممرضات في أثناء مروره.

قالت ليب، صوتها يهتز: «أنا آسفة يا أخت مايكل، آسفة جدًا»!

قالت الراهبة مرة أخرى بلطف، كما لو كانت تتحدث إلى طفلة: «صه صه.. اهدئي.. سأقول شيئًا بينك وبيني، يا سيدة رايت، لقد رأيت رؤية».

«رؤية؟»

«شيء كأنه حلم في أثناء اليقظة... رأيت، أنني غادرت الكنيسة مبكرًا، كما تعرفين، لأنني كنت خائفة على آنا».

بدأ قلب ليب يخفق بسرعة. تابعت الراهبة: «كنت أسير في الطريق عندما رأيت... يبدو أنني رأيت ملاكًا يأخذ الطفلة بعيدًا معه».

يا لها من صدمة! **إنها تعرف**. سمعت ليب الصوت صاخبًا في رأسها. الآن مصيرنا بين يديها. الراهبة ملتزمة بالطاعة؛ فكيف لها أن لا تعترف بما رأته للجنة؟

سألت الراهبة، ونظراتها تحرق ليب: «هل كانت رؤية حقيقية، هل تستطيعين القول بذلك؟

كل ما استطاعت ليب فعله، هو أن توافق برأسها.

ساد صمت مفزع. ثم، قالت الراهبة: «سبلة عجيبة»!

قالت ليب بصوت مبحوح: «نعم»!

«هل ذهبت الطفلة إلى مكان أفضل، هل تستطيعين أن تعديني بتأكيد ذلك؟»

وافقت ليب بإماءة رأس أخرى.

قال ريان وهو يشير بإبهامه: «السيدة رايت.. «حان الوقت».

تركت ليب الراهبة من دون كلمة وداع. بالكاد تصدق ذلك. لا تزال مستعدة لإمكانية اتهامها في أي وقت، ولكن لم يتهمها أحدا! لم تستطع منع نفسها من النظر خلفها لتلقي نظرة على الحضور. وجدت الراهبة تضم يديها وتحني رأسها. **لقد أعتقتنا!**

في الغرفة الخلفية، كان هناك كرسي موضوع أمام الطاولة الكبيرة، حيث كانت اللجنة تجلس، ولكن ليب وقفت أمامه، لتبدو أكثر تواضعًا، كما نصحتها الراهبة مايكل.

أغلق ماكبرارتي الباب وراءه.

«السيد أوتواي؟ هذا كان حضرة جابي الضرائب المحترم.

قام البارون بحركة ضعيفة. «نظرًا لأنني هنا ليس كقاضي مقيم، وإنما بصفتي الشخصية فقط..»

«سأبدأ، إذن». كان هذا فلين الذي تحدث بنبرته الحادة: «ممرضة رايت».

«أيها السادة». لم يكن صوت ليب مسموعًا بوضوح. ولم تكن مضطرة لجعل صوتها يبدو مرتعشًا.

«ماذا حدث في حرائق الليلة الماضية بالضبط؟

قامت ليب بتعديل إحدى ضماداتها الملتفة حول معصمها، شعرت بوخزة ألم شديدة. أجفلت وأحنت رأسها كما لو كانت تحاول التغلب عليها، وتأوهت كثيرًا من شدة الألم.

قال البارون بصوته العميق:

-سيدتي، لن تفيدي نفسك بهذه الطريقة.

تُرى هل يعني عدم الفائدة من الناحية القانونية، أم كان يقصد صحتها فقط؟

قال فلين:

-فقط أخبرينا ما حدث للفتاة الصغيرة.

بكت ليب وناحت:

-أنا فقط.. لم تشاء.. ذلك المساء كانت تضعف وتضعف. سجلت ملاحظاتي.

أسرعت نحو ماكبرارتي ووضعت دفترها أمامه، مفتوحًا حيث انتهت الكلمات والأرقام. ثم أردفت، «لم أكن أعتقد أبدًا أنها ستذهب بهذه السرعة»! ارتعشت، وصارعت لتتنفس. ثم قالت: «حتى توقف كل شيء فجأة». التقطت ليب أنفاسها بصعوبة، جعلت الرجال الستة يفكرون ويتخيلون آخر نفس للطفلة.

تابعت ليب: «صرخت طلبًا للمساعدة، ولكن اعتقدت أنه لن يكون أحد بالقرب ليسمعني. لا بد وأن الجيران جميعهم كانوا في الكنيسة. حاولت سكب بعض الويسكي في حلقها. كنت مشتتة.. ركضت بجنون».

إذا كانوا على دراية حقيقية بممرضات «نايتينغيل» المدربات، لكانوا يدركون عدم احتمالية ذلك. أسرعت ليب في حديثها: «أخيرًا، حاولت رفعها، لوضعها في الكرسي حتى أستطيع دفعها إلى القرية للبحث عنك، يا دكتور ماكبرارتي، لترى إذا بإمكانك إحياؤها». ثبتت عينيها على عينيه. ثم سمعت في رأسها ما قالته للتو: «أعني، كانت ميتة تمامًا، لكنني أملت أن يحدث المستحيل»!

وضع الرجل العجوز يده على فمه كما لو كان على وشك أن يتقيأ.

تابعت ليب: «لكن المصابيح.. بالتأكيد دفعته تنورتي عن مكانه. لم أعلم أن النيران أمسكت بي، إلا عندما وصلت ألسنة اللهب إلى خصري». رفعت ليب يديها الملفوفة بالضمادات في الهواء كدليل. ثم أردفت: «حينها اشتعلت إحدى البطانيات. سحبت جسدها من فوق السرير، لكن كان ثقيلًا عليّ، ثم رأيت اللهب يلتهم العبوة..»

سأل أوفلاهيرتي: «أي عبوة؟»

أخبره السيد تاديوس: «عبوة سائل الاشتعال».

تمتم أوفلاهيرتي: «شيء فتاك وخطير، لو كنت أنا، ما كنت لأدخله في بيتي».

تابعت ليب: «كنت أعيد ملء المصباح، لأبقى الغرفة مضيئة حتى أستطيع أن أرى.. حتى أستطيع مراقبتها في كل دقيقة». انهارت ليب تبكي بمرارة. يا له من أمر غريب، فهي لا تطيق تذكُّر هذه التفاصيل: الضوء المستمر على هذه النائمة الصغيرة! واصلت كلامها: «كنت أعلم أن العبوة ستنفجر، لذا ركضت.. ليغفر لي الله»! قالت هذا لتثبت صدقها. انهمرت الدموع على خديها؛ الحقيقة والكذب مختلطان بحيث لم تستطع تمييزهما. تابعت: «ركضت خارج الكوخ. سمعتها تنفجر ورائي بصوت رهيب ولم أتوقف لأنظر، فقط ركضت لأنجو بحياتي».

كان المشهد واضحًا جدًا في عقل ليب، شعرت وكأنها عاشته حقًا. ولكن هل سيصدقها هؤلاء الرجال؟

غطت وجهها وأنفاسها تتسارع في انتظار ردة فعلهم.

«ليت رجال الشرطة لا يقومون برفع السقوف المحترقة الآن، أو فحص ألواح الخشب في السرير والخزانة، أو ينبشون في تلك الفوضى من الرماد. ليتهم يكونوا كسالى أو يفصلوا من عملهم. ليتهم يظنون أن العظام الصغيرة المتفحمة دفنت في الأنقاض ولا أمل في عودتها».

تحدث السير أوتواي قائلًا: «لو لم تكوني مهملة لهذه الدرجة الصادمة يا سيدة رايت، لكان بإمكاننا الوصول إلى جذور المسألة، على الأقل».

التهاون! هل هذا هو الاتهام الوحيد الذي تواجهه ليب؟ **المسألة**.. معناها وفاة طفلة؟

أضاف البارون: «من المؤكد أن فحص ما بعد الوفاة، سيحدد إذا ما كانت الأمعاء تحتوي على أي طعام مهضوم جزئيًا.. هل هذا صحيح يا حضرة الطبيب؟

إذن، لم يكن لديهم مشكلة حقيقية أن يتم تشريح جسد فتاة صغيرة، فقط لإشباع فضول الرأي العام!

أومأ ماكبرارتي برأسه، كما لو أنه لا يستطيع التحدث.

همس رايان: «بالتأكيد يوجد بعض الطعام.. كل الكلام عن معجزة هراء»!

انفجر جون فلين قائلًا: «وعلى العكس، عندما لم يتم العثور على شيء في أمعاء آنا، يجب أن يتم تبرئة عائلة أودونيل. هما زوجان مسيحيان صالحان فقدا طفلتهما الأخيرة - شهيدة صغيرة! - وهذه الحمقاء، دمرت كل دليل على برائتهما».

ظلت ليب مطأطئة الرأس.

«ولكن الممرضات ليس عليهن أي مسؤولية في وفاة الطفلة». هذا ما قاله السيد ثاديوس، أخيرًا.

«بالطبع ليس عليهن أدنى مسؤولية». رفع الطبيب ماكبرارتي صوته. قال: «كنّ مجرد خادمات لهذه اللجنة، يعملن تحت سلطتي كمساعدات للطبيب».

يبدو أن الكاهن والطبيب يحاولان تبرئة ليب والراهبة من اللوم عن طريق ادعاء أنهما خادمتان غبيتان! ظلت تمسك لسانها عن الكلام، لأنه لم يغد يهم الآن.

قال معلم المدرسة: «لكن هذه لا يجب أن تحصل على راتبها كاملًا، بسبب الحريق».

كادت ليب أن تصرخ: «لو قدم لها هؤلاء الرجال عملة واحدة من عملات يهوذا الخائن، لألقت بها في وجوههم. «أنا لا أستحق أيًا من نقودكم، يا سادة»!

«الشركة الإنجليزية - الأيرلندية للتلغراف المغناطيسي

تم استلام الرسالة التالية في يوم 23 من أغسطس 1859

من: ويليام بيرن

إلى: رئيس التحرير، صحيفة التايمز الأيرلندية

المقالة النهائية تتبع بالبريد. وقد قبلت منصبًا خاصًا كسكرتير لسيد محترم من القوقاز. عذرًا لعدم الإفادة بالتغيير. أحتاج إلى الراحة وما إلى ذلك وليس جحودًا. و. ب

-فيما يلي آخر تقرير للمراسل حول الفتاة الصائمة في أيرلندا:

في الساعة التاسعة وسبع دقائق مساء السبت الماضي، بينما كان تقريبًا كامل سكان القرية الكاثوليكية مجتمعين داخل الكنيسة البيضاء الصغيرة للصلاة من أجلها، فارقت أنا أودونيل الحياة. من المفترض أن السبب هو الجوع. لكن

لا يمكن تحديد السبب الطبي الدقيق لتلك الوفاة بسبب النهاية المروعة لهذه القصة، والتي استمع إليها المراسل من شخص حضر الاجتماع النهائي للجنة.

لقد ارتبكت الممرضة المرافقة لها بشكل طبيعي، بسبب وفاة الطفلة المفاجئة، وحاولت اتخاذ إجراءات غير عادية لإيقاظها، وفي خلال ذلك، أزاحت المصباح بطريقة غير مقصودة. هذا المصباح كان أداة رخيصة استعارتها الأسرة من أحد الجيران، وتم تعديلها لتعمل ليس بزيت الحوت بل بمنتج أرخص يُعرف باسم السائل المشتعل أو الكامفين. (وهو مزيج من الكحول المغشوش مع التربنتين بنسبة أربعة إلى واحد، بالإضافة إلى قليل من الإيثر - معروف بأنه قابل للاشتعال، وقيل إنه سبب المزيد من الوفيات في الولايات المتحدة، أكثر من حوادث البخار والسكك الحديدية مجتمعة).

عندما سقط المصباح على الأرض، اندلعت النيران في الفراش وفي جثة الطفلة، وعلى الرغم من محاولات الممرضة الشجاعة لإخمادها - متسببة في إحداث إصابة خطيرة لنفسها في أثناء ذلك - لم تكن هناك فائدة. انفجر سائل الاشتعال بأكمله وأحدث انفجارًا، واضطرت الممرضة إلى الفرار من الحريق.

في اليوم التالي، تم إعلان وفاة آنا أودونيل غيابيًا، حيث لم يتمكنوا من انتشال جثتها من بين الأنقاض. ووفقًا للشرطة، لم يتم توجيه أي اتهامات ولا يُعتقد أنه سيتم ذلك.

لكن لا يجب أن يمر هذا في سلام. يجب أن يُسمى ما حدث بـ (العمل الفاسد)، عندما يُسمح - بل يتم تحريض - فتاة ليس لديها أي مرض عضوي، لتجوع حتى الموت في ذروة الرخاء في خلال عهد

فيكتوريا المزدهر، ولا يتم معاقبة أو حتى محاسبة أي شخص. ليس الأب، الذي تخلَى عن مسؤوليته القانونية والأخلاقية. ولا الأم، التي خالفت قانون الطبيعة- أو على الأقل - امتناعها عن عمل أي شيء، وهي ترى ابنتها تتلاشى. وبالتأكيد ليس الطبيب الغريب الذي يبلغ من العمر سبعين عامًا، الذي كان مسؤولًا عن رعاية آنا أودونيل ودمرها. ولا قسيسها الرعوي، الذي فشل في استخدام صلاحيات منصبه لإجبار الفتاة على كسر صيامها المميت. ولا أي عضو آخر في تلك اللجنة المراقبة، من الذين استمعوا لأدلة تؤكد أن الفتاة كانت على فراش الموت ورفضوا أن يصدقوا ذلك.

لا يوجد أعمى أكثر من الذي لا يريد الرؤية!

يمكن قول الشيء نفسه عن السكان الكثيرين في المنطقة، الذين بوضع الزهور والدعوات الأخرى على بقايا الكوخ المحترقة في الأيام الأخيرة، يبدو أنهم يعبرون عن اعتقاد ساذج بأن ما حدث هناك، كان تجليًا لقديس محلي بدلًا من قتل غير قانوني لطفل!

ما لا يمكن مناقشته هو أن المراقبة التي تم وضعها قبل أسبوعين، أنهت عملها في ساعة الموت، على الأرجح. بمنع وسيلة سرية للتغذية والمساهمة في تدمير الفتاة الصغيرة التي كان من المفترض أن تفحص حالتها. كان آخر عمل للجنة قبل أن تحل نفسها، هو إعلان أن وفاة الفتاة كانت **قضاءً إلهيًا، ناتج عن أسباب طبيعية.** ولكن **لا ينبغي أن نلوم الخالق أو الخليقة على ما تقترفه أيدي البشر.**

عزيزتي المشرفة،

ربما تكونين قد سمعت الان عن النهاية المأساوية لعملي الأخير. يجب أن أعترف بأنني مهتزة جدًا

- جسمي كله تعطل - ولن أعود إلى المشفى في المستقبل القريب. لقد قبلت دعوة للبقاء مع عائلتي المتبقية في الشمال.

مع كامل احترامي،

إليزابيث رايت

آنا ماري أودونيل

7 أبريل 1848 - 20 أغسطس 1859

عادت إلى ديارها

(19)الجمعة العظيمة، تسمى أيضًا الجمعة الحزينة، هي يوم الجمعة الذي ضلب فيه المسيح، بحسب الإنجيل. ويتبعه الاحتفال بعيد الفصح أو عيد القيامة (المترجمة).

الخاتمة

على بعد ستين درجة تحت خط الاستواء تقريبًا، في أشعة الشمس اللطيفة في أواخر أكتوبر، قامت السيدة إليزا ريت، بتهجئة اسمها أمام القس. ثم ضبطت القفازات التي كانت ترتديها دائمًا فوق يديها المشوهة.

انتقل القس إلى السطر التالي في سجله. سأل:

-ويلكي بيرنز. المهنة؟

أخبرته:

-حتى وقت قريب، كان مديرًا لشركة طباعة.

-حسنًا جدًا. هل ينوي تأسيس صحيفة في نيو ساوث ويلز؟ ويصدر جريدة لعمال المناجم؟

أومأت بطريقة مهذبة. قالت، «ليس ذلك مستبعدًا على الإطلاق»!

همس القس وهو يكتب:

«أرملة وأرمل»، نظر شرقًا فوق الأمواج، ثم استشهد بشكل شعري، «للتخلص من غبار الحزن في مراعٍ جديدة».

أومأت إليزا بابتسامة بسيطة.

-مواطنون بريطانيون، من الكنيسة الإنجليزية...

صححت السيدة إليزا:

-السيد بيرنز وابنته مواطنان كاثوليكيان، سوف نؤدي طقوس أخرى في تلك الكنيسة بمجرد وصولنا.

كانت تتوقع أن يعترض القس على ذلك، لكنه أومأ بلطف.

نظرت من فوق كتف الرجل وهو يدون اسم السفينة، تاريخ اليوم، ودائرة العرض وخط الطول

الدقيقين. (تذكرت أنها أسقطت دفتر ملاحظاتها في الأمواج منذ شهر) ثرى ما هو سبب تأخر الشخصين الآخرين؟

سأل القس:

-وبالنسبة لنان بيرنز، هل ما زالت تعاني من الحزن وآلام المعدة؟

أجابت وهي تؤكد له.

-لقد بدأ هواء البحر يفيدها بالفعل!

-لم تعد يتيمة! يا لها من قصة رائعة حقًا، تلك الطريقة التي التقيتما بها أنت والفتاة الصغيرة في المكتبة على متن السفينة، وكل ما تبع ذلك من تفاصيل...

ابتسمت إليزا بتواضع وظلت صامتة.

ها هما صعدا الآن على سطح السفينة، الأيرلندي ذو اللحية مع الشعر الأحمر المقصوص، يدًا بيد مع الفتاة الصغيرة. كانت نان تمسك بمسبحة من خرز زجاجي وباقة من الورود الورقية - يبدو أنها صنعتها بنفسها - لا تزال تشعر بالألم.

كادت إليزا أن تبكي. لكن أخبرت نفسها، **لا دموع**، ليس اليوم!

رفع القس صوته، وقال:

-اسمحي لي أن أكون أول من يهنئك، يا آنسة نان!

خبأت الطفلة وجهها في فستان إليزا من شعورها بالخجل.

احتضنتها إليزا بقوة، وهي تفكر أنها على استعداد أن تهب نان جلدًا من جسدها إذا اقتضت الضرورة، وحتى عظام من ساقيها!

سأل القس الطفلة. وأشار فوق رؤوسهم:

-هل تستمتعين بوجودك على هذه السفينة

الكبيرة؟ أحد عشر ألف ياردة من الإبحار، تخيلي ذلك! ومئتان وخمسون شخص على متن السفينة.

أومأت نان.

-ربما تتطلعين إلى منزلك المستقبلي، أليس كذلك؟ ما الذي يعجبك في أستراليا أكثر من غيره؟

همست إليزا في أذنها الصغيرة، «هل يمكنك أن تخبريه؟

قالت نان.

-النجوم الجديدة!

ابتهج القس بهذا الرد.

أخذ ويلكي يد إليزا بين يديه الدافئة. كان متحمسًا، لكنها كانت أكثر حماسًا منه. تطوق للمستقبل!

-كنت أقول لعروسك، يا سيد بيرنز، كم هي رائعة هذه القصة الرومانسية لتكوين عائلتكم الصغيرة على متن السفينة. ربما يمكنك حتى أن تفكر في كتابتها للصحافة!

أومأ العريس بابتسامة.

قالت إليزا:

-أفضّل أن تبقى أيامنا غير مكتوبة.

نظر ويلكي لأسفل ليلتقي بعيون الطفلة، ثم عاد لينظر إلى إليزا، ثم سأل: «هل نبدأ؟

ملاحظات الكاتبة

رواية «المعجزة» هي قصة خيالية. ومع ذلك، أستلهمت فكرتها من حوالي خمسين حالة لفتيات غرفن باسم «الفتايات الصائمات. أشيد بقدرتهن على البقاء بدون طعام لفترات طويلة، كان ذلك في الجزر البريطانية وغرب أوروبا وشمال أمريكا بين القرن السادس عشر والعشرين. هؤلاء الفتيات والنساء اختلفن بشكل واسع في العمر والخلفية العقائدية. بعضهن (سواء كنّ بروتستانت أو كاثوليك) زعمن أن لديهن دوافع دينية، ولكن كثير منهن لم يكن لديهن ذلك. كانت هناك حالات بين الذكور أيضًا، لكن بأعداد أقل بكثير. تم وضع بعض الصائمين تحت المراقبة لأسابيع متتالية؛ بدأ البعض منهم يتناول الطعام مرة أخرى، إما بإرادتهم أو بعد أن تهديدهم أو سجنهم أو إيداعهم في المشفى، أو تغذيتهم بالقوة؛ بعضهم توفي، وآخرون عاشوا لعقود، مدّعين أنهم لا يحتاجون إلى الطعام.

أشكر وكلائي: كاتلين أندرسون وكارولين ديفيدسون، ومحرري النصوص: إيريس توبهولم في هاربركولينز كندا، وجودي كلاين في ليتل براون، وبول باجالي في بيكادور على الاقتراحات الهامة. أيضًا، ساعدني كلُ من تانا وولين وكورماك كينسيلا كثيرًا في الحفاظ على استخدامي الصحيح للغة الإنجليزية، والهايبرنية، والبريطانية، وكانت مراجعة تريسي روي»هامة كما هو الحال دائمًا، لا تُقدّر بثمن بأي شكل من الأشكال. كما شاركت الدكتورة ليزا جودسون في الكلية الوطنية للفنون والتصميم في دبلن، بمعرفتها بالأمور الدينية الكاثوليكية في القرن التاسع عشر. كما استعرت من أصدقائي سينيد ماكبرارتي وكاثرين أودونيل أسماء

بعض الشخصيات، واستخدمت اسمًا اخر لسيدة معطاءة - هو ماجي رايان - التي تعمل كمساهمة في جمع التبرعات لصالح جمعية كاليدوسكوب ترست.

أسئلة ومواضيع للمناقشة

1. عندما تم تكليف ليب بمهمة مراقبة أنا، ظلب منها العمل جنبًا إلى جنب مع الأخت مايكل.

في كتاب مليء بالتوتر الديني، ما رأيك في عمل ليب بجانب راهبة؟ وكيف يغير حديث الأخت مايكل مع ليب في نهاية الرواية فهمنا للأخت مايكل والعقيدة الكاثوليكية بشكل عام؟

2. ليب هي ممرضة سابقة، تدربت مع الانسة نايتنغيل. بعد عشر سنوات من عملها مع الانسة «ن»، لم تجد مكانًا لها في المجتمع وتبالغ في مكانتها كممرضة خلال الحرب، رغم أن الجزء الاكبر من عملها كان يتضمن تجهيز الضمادات وإعداد الأسرّة للمرضى. لماذا تعتقد أنها قدمت نفسها للمجتمع بهذه الطريقة؟ وكيف كان دور الممرضة مختلفًا في عصرها؟

3. كيف أثرت مقتطفات التراتيل والصلوات التي ظهرت على مدار الرواية، في قراءتك لرواية «المعجزة؟ هل ساعدتك في إعطاء فكرة عن العالم الذي عاشت فيه آنا؟ أم أعطتك شيئًا أكثر من ذلك؟

4. ظهر من خلال الرواية تأثر ليب بشكل عميق بالشخصيات الأنثوية القوية للآنسة «ن»، وشخصية رئيسة الممرضات. وكثيرًا ما كانت تقتبس النصائح الطبية من الآنسة «ن»، وتروي إساءة معاملة رئيسة التمريض وتقليلها من شأنها. كيف تغير تفكيرها حول الشخصيتين على مدار الرواية؟

5. في رأيك، لماذا تم تضمين شخصية الدكتور ستانديش؟ وكيف تعتقد أن شخصيته تتعلق بوصف ليب بأنها متكبّرة؟ هل هو تذكير بمن هي وكيف كانت عند وصولها أول مرة؟

6. لماذا تطلب الأمر مراقبة وانتباه بيرن لحالة أنا، حتى تدرك ليب أن الطفلة تتضور جوعًا؟ هل يمثل بيرن، الصحفي، الحقيقة الموضوعية؟

7. هل أدى فقدان ليب لعائلتها إلى تشويش قدراتها كممرضة؟ وإذا لم تكن قد تعرضت لهذا النوع من الخسائر، هل كانت ستجد نفسها مضطرة للتدخل في حياة آنا بالطريقة التي فعلتها؟

8. تذكر إيما دونهيو في ملاحظات الكاتبة، أنه على الرغم من أن هذه الرواية خيالية، إلا أنها تستند على عدد كبير من حكايات الفتيات الملقبّات بـ«الفتيات الصائمات». كيف يغير هذا الأساس التاريخي الطريقة التي ترى بها آنا وعائلتها؟ وكيف تفهم الرواية؟

9. لقد أظهر أسلوب الكاتبة، الكثير على التوتر بين العلم والدين، والنظري والملموس، والخرافة والخطر الحقيقي، والمعجزات الدينية والاحتيال. أيضًا المناطق الرمادية التي يمكن العثور عليها بين النقيضين. أين رأيت الأمثلة على ذلك في الرواية؟ أين هي المواضع التي تبنيت فيها وجهة نظر أحد الطرفين ضد الآخر، بشكل ثابت وقوي؟ أين هي المواضع التي كانت تمثل لك مجالًا للشك؟

10. لماذا أكدت الكاتبة ذكاء آنا؟ هل تعتقد أنها تريد أن تقول، «أن أكثرنا ذكاءً يمكن أن يكون معميًا بسبب عقيدته؟ أم أنها تقترح أن آنا لديها قدرة كافية على اختيار طريقها؟

11. يمكن تتبع الفساد في الكنيسة الكاثوليكية لقرون. في هذه الرواية، الفساد الذي اجتاح أيرلندا وقرية آنا الصغيرة كان متأصلًا ومتعدد الطبقات. حيث شجّعها أعضاء من المجتمع والكنيسة على الاعتماد على الله بدلًا من التغذية الفعلية لمنحها

القوة. لماذا تعتقد أنه في أيرلندا، وبخاصة في قرية فقيرة في الريف، العقيدة تحكم حياة الناس بشكل كامل؟

12. لقد غضبت ليب عندما اكتشفت أن السيد ثاديوس كان يلوم آنا عن الأخطاء التي أرتكبت ضدها. لكن ما حدث لآنا لا يزال يعتبر مصدرًا للعار أو اللوم في العديد من المجتمعات في الوقت الحالي. كيف تفسر التشابه بين العصرين، رغم أنه - على السطح - يبدو العصران مختلفين إلى حد كبير؟

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook